الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

355

أغلق تحرير العدد في 1 كانون الثاني 2013

السعر : 2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6 أعداد) : 50 دولاراً أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
إيميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
إيميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع أبو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* أن تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.
* يفضل أن تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة، إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد :

مقالات

8- الربيع العربي: مفارقة الأهداف والنتائج.....فاضل ثامر
13- في المشروع الاقتصادي .... صبري زاير السعدي
21- لمحة عن بدائل عملية التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي..... مجيد مسعود
30- مقاربة لبحوث ونظريات الاسكان .....موفق جواد الطائي
36- الهوية الوطنية والتعددية الثقافية .....حاكم محسن محمد الربيعي
48- العلاقة بين أتباع الديانات في العراق في القرون الأولى للإسلام .....جعفر هادي حسن
53- السببية في التسرب من الدراسة.....محمود شمال حسن

نصوص قديمة

63- اشكالية العلاقة بين المثقفين والسلطة.....محمود أمين العالم

نصوص مترجمة

86- اليسار الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية: بقلم: جون نيكولز.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

100- حوار مع الباحث ثامرعباس.....حاوره: سعدون هليل

ادب وفن

110– تجربتي مع الثقافة والترجمة: نقاط تحول.....أمجد حسين
124– الانحلال الاحتمالي للمعنى الاول في المعنى الآخر.....مقداد مسعود

قصائد شعرية
136 – خضراء الضفتين.....حسينة بنيان
137– الرايات الخفّاقة.. ليست راياتنا.....كاظم اللاّيذ
140– الزوجة الخائنة! للشاعر الإسباني فيديريكو غارسيا لوركا .....ترجمة : سنان أحمد حقّي

قصص قصيرة
142– حياة..... يوسف أبو الفوز
148– الغبار يسرج بغاله.....محمد سعدون السباهي

الغلاف الاول: للفنان ثامر داود
الغلاف الأخير: للفنان ياسين شاكر

كلمة العدد

عام جديد.. وأمل يتجدد !

ودّع العالم عام 2012 وفيه العديد من المنجزات التي تعتز بها البشرية رغم ما شهدته من مصائب وحروب هنا وهناك. أما نحن في العراق فقد رحل عنا هذا العام وهو يجر وراءه الكثير من الخيبات وحالات الاستعصاء المتكررة وقعقعة السيوف الكلامية في حروب الطوائف.. كان عاما كئيبا بحق. ما ان تنتهي ازمة حتى تندلع أخرى كأننا مجبولون على العيش مع قوى متنفذة وحكام مهوسين، لهم القدرة العجيبة على اصطناع الأزمات وإعادة انتاجها وتحشيد جيوش الانصار والمريدين لإجبار الاخرين على القبول بالأمر الواقع وهو واقع مرير على اية حال. يريد " اباطرة " السلطة وحراسها المدججون بسلاح اخافة الآخر ان يجبروا الناس على الصمت فهو –برأيهم – " افضل " طريقة للحفاظ على النظام القائم وإعادة انتاجه في " افضل الظروف ".

لقد شهد عام 2012 استمرار تفاقم وتعمق الأزمة. فلم تعد مجرد ازمة حكومة او ازمة علاقات بين المتحاصصين فقط، بل هي ازمة متعددة الصعد: اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية ... الخ، إنها أزمة نظام المحاصصات الطائفية – الإثنية التي قادت البلاد الى ما هي عليه اليوم.

وبالمقابل كنا خلال الاسابيع الاخيرة شهود تصعيد غير مسبوق وتوتر في العلاقة بين الحكومة الاتحادية وإقليم كردستان ولاحت مجددا " بيارق " الغزوات وقعقعة السلاح والحروب " القومية " بين العرب والكرد التي تريد ايقاع البلاد في اتون حرب ضروس ليس فيها رابح ولا خاسر.. وعادت مجددا " ثقافة " الصولات بما تحمله من تهديدات من جهة، ورهانات على تحقيق انتصارات انتخابية من جهة اخرى. كما توترت الاجواء نتيجة استهدافات بعض القوى التي اعتبرت ما جرى لها استهدافا طائفيا ومناطقيا ولاحت في الافق مجددا اجواء الاحتراب الطائفي التي شهدناها في عامي 2006 و 2007 وما حملته من مآس وأهوال.

وبالمقابل تعاظمت التدخلات الاقليمية والدولية في الشأن العراقي. وثمة وجود علاقة طردية بين اشتداد الخلافات بين اطراف العملية السياسية وخصوصا المتنفذة منها، وتعاظم التدخلات الخارجية وتوتر العلاقات مع دول الجوار والدول الإقليمية مما يشكل خرقاً صارخاً لسيادة العراق.

غير ان هذه اللوحة رغم قتامتها إلا أنها مليئة بألوان قزح مبهجة. فمن يتابع ما جرى في بلادنا عام ٢٠١٢ سيجد في مواجهة ما ذكر في أعلاه بروز ديناميات اجتماعية متعددة هي عبارة عن تحديات مباشرة لممارسات السلطة الحاكمة الأمر الذي يبين أن " دار السيد ليست مأمونة ".

نعم. ثمة مبادرات وتحركات جماهيرية عديدة لمجموعات شبابية، عكست رغبتهم في التغيير، وقدرتهم على ابتكار اشكال جديدة للتحرك والتنظيم.

كما ان هناك حراكا شعبيا اتخذ اشكالاً متنوعة اخرى وشمل فئات وشرائح اجتماعية وقطاعات اقتصادية ومناطق جغرافية مختلفة. فقد تم تنظيم العشرات من الفعاليات والنشاطات في بغداد والمحافظات احتجاجاً على تردي

الخدمات، وبعض التشريعات المقيدة للحريات وللمطالبة بتحسين الاجور وتوفير فرص العمل.

في حين شهدت العديد من الجامعات اعتصامات وإضرابات طلابية من اجل توفير اقسام داخلية، وضد التدخلات والقيود على الحريات الشخصية، وخصوصاً على الطالبات، ولتحسين ظروف الدراسة وغيرها من المطالب المتعلقة بظروف دراسة ومعيشة الطلبة.

وتصاعد الحراك على الصعيد الثقافي ايضا على طريق بناء ثقافة وطنية ديمقراطية وتأسيس مشهد ثقافي صحي، وضد محاولات بعض اوساط السلطة ممن تنظر الى الثقافة ومنتجيها نظرة ريبة وشك وتكفير في بعض الاحيان، بل حتى محاولاتها الحثيثة للتدخل في العمل الثقافي والسعي للهيمنة عليه وتوجيهه. وقد انعكس هذا الحراك بفعاليات ومبادرات ونشاطات اقامتها الاتحادات والجمعيات والمنتديات الأدبية والفرق المسرحية ونوادي الشعر والمعارض التشكيلية، مما يجعل من الثقافة العراقية بتنوعها الثري مرادفا للتقدم والديمقراطية والإبداع، علما ان علاقات الموطنة، وحريّة الإبداع لا يُمكن أن تتشكل بدون مناخات ديمقراطية.

كما نشط ايضاً خلال الفترة الماضية المتقاعدون فأسسوا جمعية لهم امتدت فروعها إلى جميع المحافظات العراقية وقاموا بالعديد من المظاهرات والاعتصامات في معظم المحافظات دفاعاً عن حقوقهم ومطالبهم العادلة.

وفي عام 2012 دخل ايضا عنصر جديد ونوعي إلى الحركة المطلبية حيث تصاعدت النشاطات العمالية دفاعاً عن حقوق العمال وحرياتهم النقابية ضد تدخلات بعض المؤسسات الحكومية في شؤونهم، وشرعوا بتنظيم انتخابات ديمقراطية للجان النقابية شارك فيها آلاف النقابيين في جميع محافظات العراق توجت بانتخاب قيادة جديدة لاتحادهم.

ان هذه التحركات بما احتوته من اشكال ثرية ومتنوعة تؤشر حقيقة أنه في ظروف النضال المجتمعي/الديمقراطي الذي يخوضه شعبنا بمختلف قطاعاته وطبقاته وفئاته وشرائحه الاجتماعية، تبرز الأهمية المحورية للعمل الجماهيري والنشاط الاحتجاجي والمطلبي، باعتباره أحد روافع النضال الأساسية للقوى الحاملة للمشروع العابر للطوائف، التي لن يكون بمقدورها أن تؤدي رسالتها التنويرية والحداثية، إلا إذا اعتمدت بجدارة على الجماهير واجتذبتها الى النضال من منطلق الأهداف والمهمات والشعارات التي تنسجم مع المصالح والحاجات الحيوية لهذه الجماهير في اللحظة التاريخية الملموسة. فقد بينت التجربة انه وبدون العمل الجماهيري لن تحل الازمة البنيوية المتفاقمة، فهو الوسيلة لتغيير الواقع.

قد تكون هذه البلاد سائرة الى المجهول ويبدو انه ليس هناك من طريق لمنعها من الذهاب الى هناك غير الرهان على طريق اخر.. بديل اخر وهو ليس سوى البديل العابر للطوائف والقوميات والعشائر والمناطق.. الخ... انه بديل المواطنة الحقة حيث يشعر الجميع بأنهم متساوون في الحقوق والواجبات، ويعيشون في دولة مدنية ديمقراطية معاصرة.

في عام 2013 يتجدد الامل بعراق جديد، عراق خال من الازمات والفساد وخيبات الامل والتهميش والإقصاء والاستعصاءات الدائمة وتناسل الازمات ومكائد حيتان السلطة وحروب المتحاصصين من القوى المتنفذة.

النكوص وقبول الامر الواقع ليس خيارنا.. نعم.. نحلم بوطن آخر سيولد ذات يوم بالتأكيد.. وسنبقى متسلحين بالأمل وبمضاء العزيمة من أجل بناء وطن يتسع لنا جميعا !

مقـــــالات

الربيع العربي: مفارقة الأهداف والنتائج

فاضل ثامر
رئيس الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق

ثمة مفارقة غريبة ومثيرة معا في النتائج والمخرجات التي قاد اليها الربيع العربي تتمثل في ان القوى الاجتماعية التي قادت هذا الربيع هي قوى شبابية لبرالية او ديمقراطية او مهمشة، وكانت هذه القوى مدفوعة في الغالب بدوافع ومطالب وبرامج اجتماعية واصلاحية نتيجة لعجز الانظمة الشمولية والدكتاتورية عن تحقيق مبادئ العدالة والمساواة والحرية وتنفيذ برنامج اجتماعي متوازن يضمن محاربة البطالة والفساد ويهدف الى تقديم مستوى لائق وانساني من الخدمات الاجتماعية، فضلا عن احترام مبادئ حقوق الانسان واعتماد الاليات الديمقراطية المعروفة التي يعتمدها العالم الحديث. وكان من الطبيعي تماما ان تقوم قوى التغيير التي قادت الربيع العربي بتسلم مسؤولية السلطات الجديدة وتشرع بتطبيق برامجها الاجتماعية والسياسية، والثقافية، هذه البرامج التي كانت، في واقع الامر، صدى لحاجات اجتماعية عميقة غير قابلة للارجاء، لأنها تعبر عن تطلعات غالبية شرائح المجتمع الفاعلة والصامتة معا. وهذا ما كان يحدث سابقا بالنسبة للثورات والانقلابات العسكرية العربية ومنها ثورة 23 يوليو 1952 في مصر أو تلك التي اعتمدت على ما يسمى بـ"الشرعية الثورية ". لكن ماحصل على مستوى المتحقق كان يمثل مفارقة صادمة، تحاول هذه الورقة ان تتوقف عندها واعني بها: نجاح قوى اجتماعية ودينية سلفية او صولية في حصد نتائج ثورات الربيع العربي ومن خلال صناديق الاقتراع بالذات، واخفاق قوى التغيير في الحصول على مواقع مؤثرة وفاعلة في الخريطة السياسية الجديدة التي مهدت الطريق لرسم وصياغة الاسس المادية والمعنوية لها.

لا شك ان نجاح القوى السلفية والتقليدية في الهيمنة على نتائج الربيع العربي كانت مثار دهشة واستغراب

وغضـــب قوى الربيع العربي الاساسية، فضلا عن شرائح لبرالية وثقافية واكاديمية كانت تعول كثيرا على عملية التغيير الثوري هذه، وبدت لها هذه النتيجة وكانها حصيلة "مؤامرة"واسعة وخطة مدروسة دبر لها سلفا. ولكي لا نقع في حالة من التشوش والاحباط علينا جميعا مفكرين وسياسيين ومثقفين أن نحاول معرفة الاسباب التي قادت الى هذه النتيجة المحبطة.

ويتعين علينا بداية ان نتعرف الى طبيعة الانظمة الشمولية التي اطيح بها و السياسات او الآليات التي اعتمدتها في الهيمنة الايديولوجية – والسياسية بتعبير المفكر الايطالي (غرامشي) على شعوبها ، وماهي طبيعة القوى الاجتماعية والشرائح الاقتصادية والثقافية التي كانت تتحالف معها، من أجل ضمان تحقيق هيمنتها الايديولوجية والسياسية سعت الانظمة الشمولية والدكتاتورية الى التحالف مع القوى اليمينية الممثلة لمصالح النظام الراسمألي او شبه الاقطاعي احيانا وتوفير غطاء ايديولوجي وثقافي لتبرير سياساتها وبرامجها من خلال التوظيف الجزئي لنصوص من التراث او الشريعة تخدم إدامة مصالحها. ومن الجانب الآخر كانت تعمل من اجل ســـحق قوى المقاومة والتغيير المتمثلة بالطبقات والشرائح الاجتماعية الفقيرة أو المستغلة وكانت تركز بشكل خاص على محاربة الاحزاب والحركات الثورية والتنويرية و تحرم عليها حق التنظيم والعمل العلني . وكانت الانظمة الشمولية تغض النظر عن نشاط بعض القوى اليمينية او الدينية اعتقادا منها أنها لا تشكل خطرا على مصالحها ووجودها، أو تنظر اليها بوصفها قوى اجتماعية يمكن التحالف معها مرحليا لوقف نمو أو صعود القوى والافكار اللبرالية او الثورية التي تخشى منها. وهذا ما يفسر سر قدرة بعض حركات واحزاب الاسلام السياسي من العمل والتحرك من خلال الواجهات الدينية ومؤسسات الجوامع خاصة وأنها كانت تميل في الغالب لتأسيس مؤسسات اجتماعية وخيرية مثل المدارس الدينية وجمعيات رعاية الاطفال والارامل ومراكز الرعاية الصحية وصولا الى الجامعات والمصارف الاسلامية، وهذا ما مكّنها من الوصول الى الشرائح الشعبية المختلفة والتأثير في توجهاتها وتأهيلها للتحول الى قوى تمتثل عند الضرورة الى إملاءاتها وسياستها واجنداتها المعلنة والمؤجلة. ونتذكر جيدا ان بعض الحكام العرب مالوا الى التصالح مع بعض الحركات التي تنتمي للاسلام السياسي، كما فعل أنور السادات في مصر بعد تسلمه السلطة بعد رحيل جمال عبد الناصر، أو مثلما فعل صدام حسين عندما اطلق ما سمي بـ"الحملة الإيمانية" اعتقادا منه بان ذلك سيؤدي الى إلهاء وتخدير وعي الجماهير الشعبية ويبعدها عن الحوار مع أفكار وقوى التغيير الاجتماعي الجذري، او ما نجده متحققا في عدد من البلدان العربية والاسلامية التي تحكم زورا باسم الدين وتفرض بالتالي سلطتها الزمنية والسياسية على العباد من خلال هذه الواجهة. هذه الحقيقة أدت الى خلق قوى اجتماعية وسياسية ســـلفية

تعيش وتنمو تحت ظل الانظمة الشمولية والاستبدادية. ويمكن القول أن هذه القوى تقف ضمن معسكر اليمين الذي تمثله انظمة الاستبداد السياسي، وهي بصورة اخرى نتاج تلك الانظمة ووجهها الآخر، أو ربما احتياطيها للمستقبل. ومعروف أيضا أن غالبية انظمة الاستبداد السياسي اهملت قضية التنمية الصناعية و الزراعية والثقافية، ولم تكترث لعملية مكافحة الامية في المجتمعات العربية او الترويج للثقافة الانسانية الجادة. وفي الكثير من الحالات دمرت المصانع فتحول العمال الى جيش من البروليتاريا الرثة، واهملت الزراعة فتحول الفلاحون الى جيش من العاطلين والمهاجرين المسحوقين. وفضلا عن ذلك كانت الامية تخيم على المجتمعات العربية وتوفرت الظروف الملائمة امام تجميد العقل العربي وترويض المواطن البسيط وتهيئته لتقبل الافكار السلفية والاصولية التي تختزل قضية الاصلاح الاجتماعي الى شعارات براقة وساذجة مفرغة من جوهرها الحقيقي مثل شعار "الاسلام هو الحل" وضرورة اطاعة أولي الامر وعدم الخروج عليهم او الامتثال لما يقوله المرشد العام أو المرجع أو التيار أو الحزب الذي يتنزل احيانا منزلة السلطة الالهية وكأنه ظل اللّه على الارض والممثل لشرعية الحاكمية فيها.

ان مجتمعات مثل هذه تعادي كل ما هو تنويري وعقلي، وترفض الثقافة الجادة المتسائلة، لا يمكن لها ان تنتج بسهولة قوى اجتماعية واعية مهيأة للثورة والتمرد. لقد عمدت الانظمة الاستبدادية لإشاعة الروح السلبية اللامبالية وقيم الخنوع والخضوع لدى الناس واغلقت منافذ الوعي عليهم. وكانت هذه هي النتيجة التي تلقيناها كمجتمعات متخلفة مهيأة لأن تكون فريسة للأجندات الظلامية. وبكلمة واضحة إن مجتمعات اللاثقافة لا يمكن لها ان تنتج الاحساس العميق برفض الاستبداد والخنوع، ويمكن لها بسهولة ان تسقط فريسة بيد قوى الظلام والاستبداد والاصولية. ثمة حكاية طريفة نعرفها جميعا تتحدث عن جاهل نصاب استطاع ان يهيمن على عقول الناس في احدى القرى النائية، وشاء حظ احد المصلحين المتنورين ان يحاول القيام بدور تنويري وتعليمي لابناء تلك القرية فاصطدم بذلك النصاب الأمي الذي دعاه الى مناظرة بسيطة، اذ طلب منه أمام سكان القرية أن يكتب كلمة (حية) فما كان من المصلح المتعلم الا ان يكتب الكلمة بحروف واضحة. اما النصاب فقد اكتفى بان رسم حية وطلب من سكان القرية بان يحكموا، فما كان من السكان الا ان يقفوا الى جانب النصاب: فهذه حية وتلك حروف وألغاز لا يفهمونها. وهذا هو حالنا. فعبر شعارات وكلمات قصيرة و محدودة يستطيع السلفيون والاصوليون خداع الجماهير البسيطة التي لا تمتلك في المرحلة الراهنة الاستعداد أو المقدرة على هضم المفاهيم والقيم النبيلة لأفكار العدالة والحرية والمساواة والديمقراطية، لأنها بكل بساطة جردت من خلالها حرمانها من التعليم وبالتالي سهل تضليلها بشعارات تخديرية وغيبية ماكرة. لا يكفي بالنسبة لنا أن نصل الى حافة اليأس

من هذه المفارقة التي حولت الربيع العربي خريفا أو نظن لحظة أن هذا دليل على فشل مشروع الحداثة العربية في مواجهة ما سمي بالاسلام السياسي أو الصحوة الاسلامية أو الاعتقاد بأن مشروع الديمقراطية لا يمتلك ارضا خصبة في واقعنا العربي، او التصور ان قوى التغيير الثوري التي ضمت لبراليين وديمقراطيين ويساريين وإسلاميين معتدلين هي في اضعف حالاتها في مواجهة الحركات والقوى الاصولية وانها غير جاهزة لمثل هذه المنازلات الكبرى. فقد أكدت الوقائع ان قوى الربيع العربي الآن هي في أعلى درجات وعيها وقوتها، ذلك انها نجحت في اسقاط أعتى الانظمة الشمولية والاستبدادية، ولذا ليس من المنطقي الاعتقاد بضعفها او عدم جاهزيتها لاستكمال المراحل الجديدة من عملية التغيير الاجتماعي المطلوب. ولكن السؤال الأهم يتعلق بضرورة توحيد جهودها وقواها للنجاح في المنازلة الجديدة، ورسم خريطة طريق لتحقيق ذلك. ولا شك في أن الأولويات تتمثل في معرفة حجم القوى الحقيقية للربيع العربي وتجنب تمزقها أو تنافرها والتاكيد على وحدة شعاراتها والعمل على كسب قوى وشرائح اجتماعية وسياسية وطبقية ظلت على الحياد أو لا تمتلك مواقف واضحة ومنها استمالة قوى الاسلاميين المعتدلين الذين يرفضون قوى التطرف والتكفير والظلام التي تطلقها احيانا بعض قوى الاسلام السياسي المتطرفة والتي تبلغ ذروتها الظلامية في سياسات المنظمات الارهابية والتكفيرية ومنها تنظيم القاعدة الارهابي. وتحتل أهمية خاصة أطروحة تحقيق لون من التوأمة بين قوى الربيع العربي من جهة، وشريحة المثقفين العرب من جهة ثانية، اذ يستطيع المثقفون والمفكرون والكتاب والفنانون العرب تقديم رؤية واضحة وعلمية وبرامج واقعية تضمن وصول ثورات الربيع العربي الى شواطئ الامن والانتصار. كما يتعين على القوى السياسية والاسلامية المعتدلة أن تدرك أهمية التحالف مع القوى اليسارية والديمقراطية والعلمانية وتضع جانباً تحفظاتها الآيديولوجية في هذه المرحلة. ويظل سؤال "ما العمل " هو واحد من الاسئلة الملحة التي يتعين علينا مواجهتها بشجاعة ووعي .

بالتأكيد هناك خيارات عديدة، يمكن اللجوء اليها بالتعاقب أو بطريقة تزامنية، منها منح فترة انتقالية تتراوح بين الثلاث والخمس سنوات لقيادات ثورات الربيع لاعادة ترتيب بيتها الجديد، وعدم التعجل في اجراء انتخابات نيابية أو رئاسية، ذلك أن قرار الانتخابات الفورية يعني بصورة مؤكدة منح الفرصة لقوى وفلول الانظمة الشمولية للحصول على مواقع مهمة، كما يعني منح فرصة أكبر للقوى الاصولية والسلفية والرجعية والعشائرية التي كانت تعمل دائما بمباركة مباشرة أو غير مباشرة من الانظمة الشمولية والاستبدادية. إن الفترة الانتقالية التي اقترحها ليست جديدة، فقد اعتادت معظم الثورات والانقلابات والانتفاضات العسكرية أن تعلن مثل هذه الفترات، مثلما فعلت ثورة 23 يوليو 1952 في مصر، التي استطاعت خلال هذه الفترة توطيد حكمها

وتشكيل مؤسسات جماهيرية مثل "الاتحاد الاشتراكي" مكنتها من الوصول الى شرائح اجتماعية وشعبية واسعة. اما المقترح الثاني فيتمثل في ضرورة الوصول الى الجماهير الشعبية العريضة التي ظلت بعيدة عن السياسة في الغالب بسبب الجهل وتفشي الأمية او نتيجة وقوعها فريسة لافكار وشعارات القوى التقليدية والسلفية والعشائرية. وينبغي علينا أن نعترف بان الوصول الى الجماهير البعيدة والمهمشة ليس بالأمر الهين من الناحية العملية.

مرة زار أحد قادة الحزب الشيوعي الايطالي في الستينيات مصر والتقى بعدد من ممثلي الاتجاهات اللبرالية والديمقراطية واليسارية ولاحظ ان معظم هذه القوى يعمل بعيدا عن هذه الجماهير التي كانت من الناحية العملية تصغي بجدية لما يقوله الاصوليون والسلفيون والتقليديون من على منابر الجوامع والمراكز الدينية المختلفة، ولذا قال لهم ما معناه: لو كنت مكانكم لبدأت بنشاطي السياسي من على منابر الجوامع والمساجد.

قد يبدو هذا المقترح بالنسبة لنا خياليا وغير ممكن التطبيق في المراحل الراهنة، لكن ذلك يمكن ان يتحقق اذا ما ضمنا كسب شرائح واعية من رجال الدين المعتدلين الذين يمكن لهم ان يصلوا من خلال هذه المؤسسات الدينية الى الجماهير. ومن الجانب الآخر بالإمكان تطوير أشكال أخرى منها توظيف المضائف العشائرية التقليدية او ايجاد مضائف جديدة تكون بمثابة مراكز ثقافية، كما بالإمكان الإفادة من اسلوب "الديوانيات" المعتمد في دولة الكويت وبعض دول الخليج. وبالامكان تنظيم مهرجانات سياسية وثقافية ومسرحية متنقلة تراعي مستوى الوعي والتلقي لدى الشرائح المستهدفة في المناطق الريفية والتجمعات والمتنزهات العامة. ولا شك ان تطبيق برنامج واسع للاصلاحات الاجتماعية وتفعيل دور المؤسسات التربوية والاعلامية وتحقيق مبادئ العدالة والمساواة عوامل ضامنة للتأثير في مختلف شرائح المجتمع.

ان تطبيق قاعدة اعتماد الفترة الإنتقالية وارجاء الانتخابات والاقتراب من الجماهير المهمشة والصامتة كفيلة بأن توفر للقوى الثورية الشابة الفرصة المناسبة للدخول في منافسة متكافئة مع القوى الأخرى ومنها القوى التقليدية والأصولية وبقايا أجهزة الدولة الأستبدادية التي تمتلك قدرات تنظيمية افضل وموارد مالية هائلة وتحظى بدعم قوى اقليمية ودولية التي تأمل باخضاع هذه الحركات لمصالحها وأجنداتها السياسية والأقتصادية والأيديولوجية.

ونخلص الى القول ان قوى الربيع العربي لم تضعف أو تستنزف وانها قادرة من خلال تحالفها مع قوى التغيير الأجتماعي الحقيقية وبشكل خاص توأمتها مع شرائح المثقفين واليساريين والعلمانيين العرب على السير الى الأمام لتحقيق المهمات الأعقد ومنها تمكين أبناء الشعب من انتخاب مندوبيهم وممثليهم في السلطات الثلاث بحرية ووعي ودونما استلاب لإرادتهم وبالتالي وضع بلدانهم وثوراتهم على طريق الحرية والتنمية وبناء مؤسسات الدولة الديمقراطية الحديثة.

في المشروع الاقتصادي الوطني:

هل يساهم توزيع بعض الإيرادات النفطية بين المواطنين في التخفيف من أزمة البلاد الاقتصادية والمعيشية المزمنة أم سيؤدي إلى تعميقها ؟ (1)

د. صبري زاير السعدي

ولد الدكتور صبري زاير السعدي في بغداد وتعلم في مدارسها، ونال البكالوريوس في الاقتصاد من جامعة بغداد. كما حصل على درجة الدكتوراه في تخطيط الاقتصاد الوطني من جامعة برمنكهام البريطانية. بدأ حياته العملية في المجالات الاقتصادية مبكراً وشغل مناصب وظيفية اقتصادية بارزة في الدولة العراقية واستشارية في المنظمات الاقتصادية والإنمائية الدولية عمل من خلالها في عدد من الدول العربية. نشر عدداً من الدراسات والبحوث الخاصة بتخطيط التنمية وبالسياسات الاقتصادية وبمتابعة الأحداث الاقتصادية الدولية في الأدبيات المحلية والعربية والعالمية. وقد تركزت اهتماماته الفكرية والمهنية والسياسية منذ فترة في الأزمة الاقتصادية بالعراق والدعوة للمشروع الاقتصادي الوطني.

الثروة النفطية والتحديات الاقتصادية والاجتماعية

لا يستطيع أحد أن يرفض المقترح الذي يهدف الى تحسين مستوى معيشة العراقيين وخاصة بالنسبة إلى 23٪ من المواطنين الذين يعيشون تحت خط الفقر، وللتخفيف من صعوبات 8٪ من العاطلين عن العمل و15٪ من هم في مصاف العاطلين من السكان النشيطين اقتصادياً (2). ولكن أيضاً، لا يمكن للمرء أن يتجاهل حقيقة أن الاقتصاد الوطني، وبالتالي الشعب العراقي، يعتمد وبصورة رئيسة على الإيرادات النفطية، أي بوجود العملات الأجنبية المتأتية من الصادرات النفطية التي تشكل 98٪ من مجموع صادرات البلاد، والتي تمول الإنفاق الحكومي الذي يهيمن على الطلب الكلي (3)، وهو المحرك للنمو الاقتصادي. هنا، ومن

زاوية جديدة، تعيد المقاربة الضرورية بين مسألة سبل الانتفاع من الإيرادات النفطية وبين تحسين مستويات المعيشة، إثارة البحث الدائم في أزمة البلاد الاقتصادية الهيكلية المزمنة الناشئة من اعتماد الدولة الكبير على قطاع تصدير النفط. وفي المعالجة، يجب التأكيد بأن مهمة تقليل هذا الاعتماد على قطاع النفط المتزايد منذ أكثر من ستة عقود، هي مهمة صعبة وبحاجة لتضافر جهود سياسية كثيفة ومستمرة، ووعي مهني كاف لدى مؤسسات الدولة الاقتصادية والمالية والنقدية بإستراتيجيات وسياسات وآليات وإجراءات تنفيذها. فللهروب من "فخ رهينة- النفط"، لا يمكن للسياسة الاقتصادية الحكومية الإستناد في الوقت الحاضر، وبشكل رئيس ، إلى قوى السوق ولدور القطاع الخاص الذي يفتقر للإمكانيات المالية، ولقدرات الابتكار، ولريادة الأعمال. ولكن في المقابل، يمكن إنجاز المهمة، وبصورة رئيسة، بزيادة الاستثمار العام في إقامة الشركات الصناعية الكبرى المستخدمة للتقنيات المتقدمة القادرة على المنافسة بهدف إستراتيجي هو التوسع في الطاقات الإنتاجية الصناعية غير- النفطية، ولتعمل في السوق بمثل طريقة إدارة شركات وأنشطة أعمال القطاع الخاص. فمع أهمية قيام الدولة بدعم النمو والاستقرار الاقتصادي، عليها أيضاً أن تعمل، وبصورة متوازية، على تطبيق إستراتيجية التنويع الاقتصادي التي يجب أن تهتدي بدورها بأهداف إستراتيجية محددة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية على المدى البعيد، وأن يتم تنفيذها من خلال سياسات اقتصادية كلية فاعلة على المدى القصير والمتوسط. وكما يتضح من التجربة العملية الطويلة، إن أهداف الدولة الإستراتيجية هذه لا يمكن تحقيقها بدون قبول وتعاون القيادات السياسية التي ينبغي أن تكون ليبرالية في التعامل مع شؤون المجتمع، وتتمتع برؤيا مستقبلية طموحة لمشروع الدولة الحديثة، وتمتلك الإرادة السياسية القوية، وتتعهد بالالتزام في تنفيذها.

في الآونة الأخيرة، أعادت بعض الكتل السياسية العراقية تقديم مقترح توزيع جزء من الإيرادات النفطية على شكل نقود أو بشكل عيني من خلال نظام الحصة التموينية الغذائية (4) وذلك بفرضية المساعدة في تحسين مستويات المعيشة. والسؤال هو، هل هذا مقترح بنَاء أو أنه محاولة من جانب الأحزاب السياسية المهيمنة والحكومة لاستعادة بعض الثقة المتآكلة في السلطة الحاكمة ولإخفاء فشلها الاقتصادي في إعادة تشييد البنية الأساسية، ولعجزها عن منع انتشار الفساد بعد سقوط النظام الدكتاتوري السابق؟ ولأن اعتماد هذه الخطوة سيسجل تحولاً مهماً في السياسة الاقتصادية والمالية العامة، لذلك، فإن المناقشة العامة والتساؤل ضروري فيما إذا كان

المقترح سيؤدي إلى تحسين مستويات المعيشة أو بالعكس سيؤدي إلى ضياع أكثر للثروة النفطية؟

الإيرادات النفطية وأسباب الفشل الاقتصادي

من الذي ينبغي توجيه اللوم إليه عن حالة الركود الاقتصادي القائم ومرافقها السياسات والإجراءات الاقتصادية المضطربة؟ هذا سؤال حيوي، دائم الطرح، وقابل للجدل، وله أبعاد في السياسة العامة، بالإضافة إلى أهميته التاريخية. وللإجابة، تساعد النظرة السريعة على التجربة الماضية ليس فقط في تشخيص جذور المشكلات الاقتصادية القائمة، بل وأيضاً وبهدف المقارنة مع الوضع الحالي، ستبرز مقدار الوعي " بمخاطر الاعتماد على الريع–النفطي" لدى متخذي القرارات، القائمين على السلطة خلال عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات الماضية (5). في الوقت الحاضر، نلاحظ ثلاث مجموعات من الآراء التي تعبر عن هذه الأسباب. فالمسؤولون الرسميين في فترة ما بعد الحرب يشيرون إلى اجتماع عدة عوامل مختلفة في وجود الواقع الاقتصادي السيّئْ الحالي، هي: الهجمات الإرهابية، وإرث التآكل الاقتصادي وفساد مؤسسات النظام السابق، والتدخل السياسي الأجنبي، والقصور في تمويل الاستثمار. بينما يشير آخرون إلى عدم كفاءة إدارة الحكومات للاقتصاد الوطني، وعدم الاستقرار السياسي، ومشكلة الأمن، وعدم قدرة المؤسسات العامة ذات العلاقة، وضعف البنوك والخدمات المالية، وانهيار المشاريع العامة، وقصور مبادرات الريادة لفعاليات الأعمال، وعدم كفاية البنية الأساسية، على أنها العوامل التي تقف وراء الفوضى الاقتصادية الراهنة. ويقول البعض أيضاً، ليس للعراق مشاكل اقتصادية جديَّة وأن مستقبله الاقتصادي لامع طالما يمتلك الثروة النفطية، وهم يتطلعون إلى "نجاح" اقتصادات الريع–النفطي في منطقة الخليج كنموذج.

ومع ذلك، وبالنسبة لمتخذي القرارات العمليين، فإن "الأهمية النسبية" لكل سبب يجب تقديرها بوضوح من أجل معرفة علاج هذه المشاكل. ففي الممارسة، لا تساعد الإشارة فقط إلى وجود نطاق واسع من العوامل التي تقف خلف المشاكل السائدة، بل عوضاً عن ذلك، يجب تشخيص دور وآلية كل عامل من العوامل التي تساهم في استمرار هذه المشاكل من خلال تقديم تحليل نوعي و/ أو كمي شامل ومتسق في منطقه العام لوصف خصائص الواقع الاقتصادي ولمشكلاته القائمة وذلك للمساعدة في تحديد أسبقيات السياسات الاقتصادية المناسبة للتعامل معه.

لقد أظهرت التجربة العراقية بأن المشاكل الحادة الموجودة ليست ناجمة فقط عن

التطبيق المتسرع للسياسات الليبرالية الاقتصادية غير المناسبة التي اتخذتها سلطات الاحتلال، وخاصة المتمثلة في "أوامر" الحاكم المحتل "بريمر"، وتطبيقاتها الفاسدة لإعادة تشييد البنية الأساسية المدمرة ولتوفير الكهرباء والماء الصافي (6). فقد كان هنالك أيضاً، إرث العقود الأربعة الماضية حيث نمت جذور هذه المشاكل من قبل السياسات الاقتصادية آنذاك، وعقوبات الأمم المتحدة المشؤومة التي فرضت على العراق منذ 1990.

في العراق، بدأت جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية الجديدة في عام 1951 كنتيجة لزيادة الإيرادات النفطية بصورة كبيرة والتي وفرت تمويل التوسع في الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية من خلال الميزانية العامة الاعتيادية، وكذلك لبناء عدد من مشاريع البنية الأساسية المادية (الاقتصادية) ومشاريع صناعة تصفية النفط من خلال "برامج الإعمار" خلال فترة الخمسينيات (7).

ومنذ ذلك الحين، ترعرت بذور اعتماد الاقتصاد على الصادرات (الإيرادات) النفطية وقويّت جذورها بالزيادة المتتابعة للنفقات الحكومية، وخاصة زيادة الاستثمار في مشاريع القطاع العام خلال عقد السبعينيات. وتكشف التجربة التناقض المثير للاستخفاف والمتمثل في إدعاء نظام البعث في بداية السبعينيات بضرورة تقليل المخاطر المحتملة من الاعتماد على الصادرات النفطية، فقد أصبحت المخاطر واقعاً ظاهراً في نهاية ذلك العقد (8). وفي الحقيقة، كانت الدعوة لتخفيض الاعتماد على النفط قد بدأت في أوائل سنوات عقد الستينيات، ولكن الحكومات المتعاقبة قد فشلت في تقييد السقوط العميق في فخ "رهينة–النفط" نتيجة للإنفاق الحكومي المفرط للزيادات المستمرة في الإيرادات النفطية في مقابل بقاء الطاقات الاستيعابية الاقتصادية والصناعية والمؤسسية والتكنولوجية محدودة مع وجود النقص في العمالة الماهرة، والتي ترافقت مع الدور الضعيف للقطاع الخاص.

ولقد ظهرت أعراض الأزمة الاقتصادية الهيكلية الخفية بوضوح خلال عقد الثمانينيات مباشرة بعد اندلاع الحرب مع إيران (1980–1988). كما كان للإجراءات التقشفية التي استهدفت تخفيض النفقات على الخدمات والمنافع العامة في تلك الفترة أثر محدود لمواجهة التأثيرات المدمرة الناشئة عن التزايد المستمر في الإنفاق الحكومي. وقد انفجرت الأزمة الاقتصادية الهيكلية مباشرة بعد فرض عقوبات الأمم المتحدة التي لم يسبق لها مثيل حيث أوقفت صادرات النفط لمدة سبع سنوات (9). ونتيجة لذلك، وخلال الفترة (آب 1990– مايس 2003)، عانى العراقيون أقسى الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تاريخهم الحديث. فمع نهاية عام 2002، قدر

معدل حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي 225 دولاراً، وهو الأدنى خلال العقود الخمسة الماضية (10)، كما كان الفقر والبطالة في أعلى مستوياتها، وشهدت البلاد ندرة في الحاجات الأساسية كالكهرباء والماء الصافي، وتدهورت بسرعة كمية ونوعية الخدمات الصحية والتعليمية العامة، ودمرت كثيراً البنية الأساسية الاقتصادية بصورة عامة، والبنية الأساسية للصناعة النفطية بصورة خاصة. لقد كان للانخفاض الحاد والسريع للصادرات (الإيرادات) النفطية المقترنة بتطبيق السياسات والإجراءات الاقتصادية والمالية والنقدية الفوضوية نتائج كارثية.

خلال عقد الخمسينيات، بينما اهتدت الحكومات بمبادئ اقتصاد السوق، خصصت 70٪ من الإيرادات النفطية لتمويل عدد من مشاريع البنية الأساسية من خلال "برامج الإعمار"، وخصصت المتبقي 30٪ لتمويل الميزانيات السنوية، أي للإنفاق الحكومي الجاري. حينذاك كان التوسع في السياسة المالية يتماشى مع الزيادة المستمرة في الإيرادات النفطية، بينما كانت السياسة النقدية ذات طبيعة محافظة، وكانت أداة سعر الفائدة غير فاعلة. كما كانت التجارة الخارجية حرة، ولم يكن هنالك تدخل حكومي استثنائي في أنشطة القطاع الخاص. وخلال تلك الفترة، كانت البنية الاقتصادية (المادية) الأساسية ومؤسسات السوق الضرورية قاصرة، وكانت فعاليات القطاع الخاص صغيرة، ولكنها كانت واعدة أيضاً. ومنذ أوائل الستينيات، تغيرت السياسة المالية جذرياً بتخفيض نسبة مساهمة الإيرادات النفطية في الاستثمار إلى 50٪ لتمويل المشاريع العامة من خلال "برامج الاستثمار" السنوية التي كانت متلازمة بخطط التنمية ذات الخمس سنوات. أما الـ 50٪ المتبقي من الإيرادات النفطية فقد تم تخصيصها لتمويل الإنفاق الحكومي الجاري. وفي الوقت نفسه ازداد الاستثمار في مشاريع القطاع العام بالرغم من عائدها المالي القليل وإنتاجيتها المنخفضة. كان ذلك التغيير نتيجة لتبني الأفكار الاشتراكية الشعبية آنذاك.

في عقد السبعينيات، انتفع نظام حزب البعث كثيراً من الإيرادات النفطية الوفيرة في تطبيق إيديولوجية "الاشتراكية العربية" الغامضة. وكنتيجة لذلك، وبسبب التوسع المحدود في الفعاليات الاقتصادية غير-النفطية، تعمقت "الأزمة الاقتصادية الخفية". ومهما كانت الدوافع، فقد أدى الإنفاق الحكومي إلى زيادة مهمة في الإنفاق الخاص وفي الاستيرادات المدعمة بالإعانات خلال الفترة (1974-1980). لقد شجعت الإيرادات النفطية المتزايدة، وخاصة بعد تأميم شركات النفط الأجنبية، الحكومة على زيادة نفقاتها وزيادة الاستيرادات بصورة أكبر. ولكن، طالما كانت الطاقات الاستيعابية المادية والمؤسسية محدودة، فإن الزيادة

العالية في الطلب الكلي خلقت ضغوطاً تضخمية أدت في النهاية إلى الاختلال المتتابع في التوازن بين ارتفاع الأسعار والأرباح من جهة، وبين العوائد المالية المنخفضة للمشاريع العامة ومحدودية الاستثمار الخاص من جهة ثانية. وقد أوجد الاختلال أيضاً الفجوة بين ارتفاع الأجور وبين هوامش الأرباح العالية. وبالإضافة إلى هذه الأنواع من الاختلال، فإن السياسات الحكومية في تلك الفترة التي كانت متحيزة سياسياً واجتماعياً في توزيع الإيرادات النفطية بين المناطق والمدن والفئات الاجتماعية وحتى بين الأفراد، قد وسعت من فجوة نمط التوزيع السيّئْ في الدخول والثروات وفي توفير الخدمات العامة (11).

الثروة النفطية من أجل تحقيق التنويع الاقتصادي

في هذه المرحلة، يحتاج العراق ليس فقط إلى زيادة القيمة المضافة لقطاع النفط في الناتج المحلي الإجمالي، ولكن، وبقدر متساو في الأهمية، يحتاج إلى التوسع في الطاقات الإنتاجية الصناعية غير-النفطية، وتحسين مستويات المعيشة، ودعم التقدم الاجتماعي، وتأمين التوزيع "العادل" للثروة العامة، واستدامة الاستقرار السياسي، وتشجيع الممارسات الديمقراطية. وبالإضافة لذلك، فإن الاهتمام بتنمية الموارد الطبيعية والبيئية والعناية بمصالح الأجيال القادمة، وخاصة بالنسبة لاستهلاك موارد النفط الخام والغاز، يجعل من الدعوة لتحقيق مضمون "التنمية المستدامة" الأكثر ملاءمة من تركيز الدولة لجهودها فقط في زيادة النمو وتأمين الاستقرار الاقتصادي. وعلى خلاف التوجه بمعايير الكفاءة الاقتصادية في توزيع حصيلة نقود دافعي الضرائب من خلال السياسة المالية الحكومية، كما يتم في معظم الدول، فإن الموارد النفطية التي تمول الإنفاق الحكومي الذي يهيمن على الطلب الكلي، العامل الرئيس في النمو الاقتصادي والتشغيل والتنمية الاجتماعية، هي مملوكة لجميع "العراقيين" بغض النظر عن مقدار دخولهم وثرواتهم الفردية. إن مضمون هذه الحقيقة واضح. فأسبقيات توزيع الموارد النفطية يجب أن تكون مختلفة عن سياسات الاقتصاد الكلي الليبرالية في البلدان النامية. وبالنسبة للعراق، إن من المهم جداً أن تسيطر الحكومة المركزية، فقط الحكومة المركزية، على الثروة النفطية وتأمين التحكم في القيام بالمسؤوليات الآتية:

1- تأمين الانتفاع المؤسسي الرشيد للثروة النفطية بتطبيق معايير واضحة التعريف.

2- زيادة الاستثمار العام في مشاريع البنية الأساسية وفي صناعات متقدمة-

التقنية التي تأخذ شكل شركات كبيرة مستقلة الإدارة، وتعمل خارج التأثير السياسي، ولها حرية كاملة في قراراتها، وقدرة على المبادرة والابتكار ومهارة في ريادة الأعمال لتتلاءم مع ظروف السوق والمنافسة الحرة.

3- ممارسة الديمقراطية السياسية والمؤسسية والإدارية والاجتماعية بما تشمل التوزيع "العادل" للدخل وللثروة العامة بين جميع المواطنين من خلال توزيع الموارد المالية في الميزانية السنوية وبين مشاريع الاستثمار العام.

لقد أظهرت تجربة البلاد بأنه لا السياسات المركزية العالية والتخطيط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الشمولي المحنطة وهيمنة المشاريع العامة المتحجرة للنظام الدكتاتوري السابق، ولا التطبيق السائب الجاري للإصلاحات والسياسات الاقتصادية المبعثرة لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والمدعمة قوياً بتأثير الولايات المتحدة الأمريكية السياسي، هي مناسبة لمعالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الحادة. وبالتحديد، فإن الحكومات غير المتجانسة التي جاءت في فترة ما بعد- صدام، قد فشلت على نحو مزرٍ في تأمين شروط الحد الأدنى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية بالرغم من توفر الموارد المالية والعملات الأجنبية. إن الفشل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الظاهر للحكومة، والأزمة الاقتصادية –الاجتماعية الحادة القائمة، لا يمكن معالجتهما بتوزيع جزء من الإيرادات النفطية بين المواطنين. ففي العراق، على الدولة، وبأفق رؤيا وطنية متفائلة بعيدة المدى، القيام بمهمة تعبئة الموارد العامة، وخاصة النفطية منها، لبناء الاقتصاد الوطني لزيادة النمو والتشغيل وتأمين الخدمات العامة على أسس قوية صحيحة تتجاوز الإجراءات التي لا تختلف في مضمونها عن الرشاوى، وذلك بهدف إستراتيجي رئيس هو توسيع الطاقات الإنتاجية الصناعية غير- النفطية من خلال إقامة شركات صناعية حديثة التقنيات مملوكة للدولة كلية أو بالمشاركة مع القطاع الخاص وتعمل بقواعد السوق وبما يتلاءم مع متطلبات المنافسة في الأسواق المحلية والخارجية، كجزء أساس في إستراتيجية تنويع الاقتصاد الوطني وتقليل الاعتماد على قطاع تصدير النفط الخام المطلوب تطبيقها للخروج من الأزمة الاقتصادية الهيكلية القائمة ومعالجة المشاكل الاجتماعية ذات العلاقة على وجه السرعة.

(1) صيغة عربية معدلة ببعض التوضيحات الإضافية لتناسب القارئ العراقي للمقالة المنشورة باللغة الإنكليزية في دورية ميس الأسبوعية المعنية بشؤون الطاقة والمال والسياسة في منطقة الشرق الأوسط:
Sbari Zire Al-Saadi, "Iraq: Does Distribution of Some Oil Revenues among Citizens Help?", MEES vol.55 no.10 5th March, 2012.

(2)راجع: الجهاز المركزي للإحصاء وتقنية المعلومات، "مسح شبكة المعرفة العراق"، وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي، كانون الثاني، 2011.

(3) البنك المركزي العراقي، "التقارير الاقتصادية السنوية للسنوات 2007–2010".

(4) كانت المبادرة في اقتراح "فنتازيا" توزيع الإيرادات النفطية بشكل نقدي بين العراقيين قد ظهرت لأول مرة بعد الاحتلال الأجنبي مباشرة في 2003 من قبل بعض الجهات الأجنبية المعنية في خصخصة صناعة النفط، وأيدها بعض السياسيين العراقيين. أما التحرك الحديث في تجديدها فقد برز من قبل المجاميع البرلمانية التي لها دوافع مختلفة، وما يزال البت في الموضوع تحت المناقشة السياسية رغم الإشارة الواردة عن تخصيص نسبة معينة من الزيادة المحتملة في الإيرادات النفطية في ميزانية عام 2012 الحالي. راجع جريدة المدى العراقية في عددها المؤرخ في 15 شباط 2012.

(5) عن التفاصيل الخاصة بمسألة الاعتماد على النفط ومؤشرات النمو ذات العلاقة خلال هذه الفترة راجع: صبري زاير السعدي، "التجربة الاقتصادية في العراق الحديث: النفط والديمقراطية والسوق والمشروع الاقتصادي الوطني (1951–2006)" دار المدى، بغداد، دمشق، بيروت، 2009.

(6) سبق وأن قدمنا تقييما لهذه السياسات في:
Sabri Zire Al-Saadi, "Iraq's Post-War Economy: A Critical Review", MEES vol. 47 no.14 5th April 2004.

(7) قدمت مناقشات تفصيلية عن هذه السياسات في "التجربة الاقتصادية في العراق الحديث"، المصدر السابق.

(8) في عام 1972، اقترحت هيئة التخطيط بعيد المدى بوزارة التخطيط أهدافاً اقتصادية مستقبلية بفرضيات التأثير المحتمل لعدم توفر أو تخفيض الإيرادات النفطية. ولكن في نهاية ذلك العقد، ازداد الاعتماد على الإيرادات النفطية. راجع: "التجربة الاقتصادية في العراق الحديث"، المرجع السابق.

(9) بعد التدهور الهائل في مستويات المعيشة، أسس مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، برنامجه الشهير "برنامج النفط مقابل الغذاء" والذي تم بموجبه بدء تصدير النفط في عام 1997.

(10) لقد قدر معدل حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي في عام 2002 بحوالي 225 دولاراً في مقابل 2143 دولاراً كان في عام 1980. عن هذه التقديرات الإحصائية، راجع:
Sabri Zire Al-Saadi, "Oil Wealth and Poverty in Iraq: Statistical Adjustment of Government GDP Estimates (1980-2002)", MEES vol.48 no.16 18th April 2005.

(11) عن مظاهر التباين الاقتصادي والاجتماعي والفساد، راجع: "مسح شبكة المعرفة العراق"، المصدر السابق.

لمحة عن بدائل عملية التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي

د.مجيد مسعود

الدكتور مجيد مسعود، حاصل على درجة الدكتوراه في التخطيط الاقتصادي من جامعة براغ عام 1968 . عمل خبيراً لدى هيئة تخطيط الدولة في سوريا، ثم عضواً في الهيئة التدريسية في جامعة وهران في الجزائر، وعضواً في الهيئة العلمية في المعهد العربي للتخطيط بالكويت. كما عمل خبيراً لدى الأمانة العامة لمجلس التخطيط في قطر، ومديرا تنفيذياً لدار المدى للثقافة والنشر في دمشق. صدر له عدد من الكتب في التنمية والتخطيط.

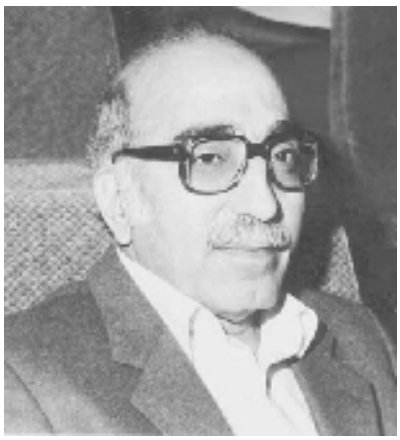

تتطلب عملية التخطيط هذه تحديد الغليات وما يشتق منها من اهداف مرحلية متناسقة وفق أولويات مبررة خلال فترة زمنية محددة، واختيار لمجموعة من الوسائل، من سياسات واجراءات، يتطلبها تحويل هذه الأهداف الى واقع ملموس .

ومهما كان شكل الوعاء التخطيطي واختصاصاته وصلاته فانه لا يستطيع فرض وجوده وكسب ثقة وتعاون بقية الوزارات والاجهزة الأخرى إلا على أساسين هما :

الأول : ان يبرهن عملياً فائدته ومقدرته على مساعدة الوزارات والأجهزة الأخرى وتذليل المشاكل التي تواجهها .

الثاني : ان يتبع اسلوب الحوار والإقناع والتنسيق نهجاً وتطبيقاً مع تلك الوزارات والأجهزة المشمولة بالتخطيط .

ان الاطار العام للمهام الرئيسية لأجهزة التخطيط يمكن تلخيصه بما يأتي :

أ- مساعدة الدولة (الحكومة) على صياغة الغايات والاهداف الوطنية للتنمية

الاقتصادية والاجتماعية المتواصلة (وضع مقترح استراتيجية تنموية).

ب- بلورة السياسات والطرق التي تحقق تلك الغايات والأهداف.

ج- إعداد المشروعات المحددة المختارة ضمن اطار متسق وبأوليات.

د- متابعة تنفيذ كل ذلك وتقييمه.

هـ- الاستفادة من هذه التطبيقات العملية في تغذية وتطوير ومواصلة عملية التخطيط بصورة دائمة متحركة، ووضع المعالم الرئيسية لخط سير الاقتصاد والمجتمع، على المديات: القصير والمتوسط والطويل المنظور.

وعملية التخطيط هذه يمكن ممارستها ببدائل عدة منها:

1- البديل الأول: منهجية التخطيط الشامل للتنمية (التخطيط المركزي الامري المُلزم)

2- البديل الثاني: منهجية مرنة للتخطيط في اطار آلية السوق.

3- البديل الثالث: منهجية خطة البرامج القطاعية.

4- البديل الرابع: منهجية البرنامج الانمائي الموازي للموازنة المالية العامة للدولة.

ونحاول توضيح كل بديل من هذه البدائل لعملية التخطيط باختصار على النحو الآتي:

اولاً: منهجية التخطيط الشامل للتنمية

(التخطيط المركزي الآمري الملزم)

هذه المنهجية ترتكز على المحاور الآتية:

● اعداد وثيقة الاستراتيجية العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، تشخيص المحتوى الاقتصادي والاجتماعي للبلاد خلال منظور زمني (20-25 سنة قادمة)، والمصادقة عليها من السلطات السياسية والاقتصادية والتشريعية العليا في البلاد.

● اعداد اطار منبثق من وثيقة الاستراتيجية، يتضمن المتغيرات الاساسية الكمية للسنوات العشرة القادمة انطلاقا من سنة اساس محددة. تقدر فيها الموارد المتاحة البشرية والطبيعية، والاحتياجات الاساسية للاستهلاك العائلي والاستهلاك العام الحكومي والاستثمارات. وتترجم إلى اهداف واضحة قابلة للقياس والمتابعة وتقييم الاداء.

● تحديد السياسات والوسائل الإقتصادية وغير الاقتصادية المنسجمة مع تحقيق تلك التوجهات الانمائية الستراتيجية وما ينبثق عنها من اهداف مرحلية في جميع الحالات المشمولة بالتخطيط . وتوفير التشريعات والاجراءات التنظيمية لتهيئة البيئة الملائمة للعمل التخطيطي المتكامل.

● وضع خطة شاملة للتنمية. تتضمن جانبا للأهداف الكلية مثل معدل نمو الناتج المحلي الاجمالي . وتقدير معدل نمو السكان وتركيبهم الجنسي (ذكور وإناث) والعمري، وحجم القوى العاملة، وكذلك تقديرا لحجم الادخار والاستثمارات ومصادر التمويل للخطة. وخطط قطاعية للأنشطة الاقتصادية

والاجتماعية تتضمن مشاريع مدروسة من حيث جدواها الاقتصادية والاجتماعية والمالية والفنية، ويمكن ان يكون المدى الزمني المتوسط لهذه الخطة بخمس سنوات انسجاما مع الدورات البرلمانية، وكعمر مناسب لقيام المشروعات الكبيرة من بداية دراستها وتنفيذها، وكذلك لتخريج جيل جامعي لتخصصات مطلوبة .

متطلبات تنفيذ منهجية التخطيط الشامل للتنمية:

* تملك الدولة لغالبية وسائل الانتاج والتوزيع، اي وجود قاعدة اقتصادية للدولة ممثلة بالقطاع العام. يمكن إلزامه بالتنفيذ.

* تتوفر قاعدة بيانات ومعلومات شاملة حديثة ودقيقة، مع توفير الخبرات الفنية لأداء نظم المعلومات والحاسب الآلي لدى جهاز التخطيط .

* توفير الخبرات الفنية المقتدرة على وضع هذه المنهجية للتخطيط الشامل (الآمري الملزم) موضع التطبيق العملي بكفاءة، بداية من تشخيص الوضع الراهن وإعداد الستراتيجية التنموية والسياسات والخطة وإجراءات متابعة التنفيذ وتقييم الاداء، وذلك باستخدام الأدوات التخطيطية من حسابات قومية ونظام الموازين وجداول المدخلات والمخرجات وجداول التدفقات المالية، ومصفوفة الحسابات الاجتماعية والنماذج الرياضية ...إلخ .

* إضافة للجهاز المركزي للتخطيط (مجلس، هيئة، وزارة) وجود وحدات للتخطيط والمتابعة لدى الوزارات الأخرى والجهات المشمولة بالتخطيط، مع تقوية روابطها الفنية بالجهاز المركزي للتخطيط (هيئة تخطيط الدولة ، أو وزارة التخطيط).

اعداد دليل اعداد الخطة وادلة متابعة التنفيذ وتقييم الاداء وبطاقة المشروعات وغيرها من المعايير وانظمة العمل التخطيطي.

الرأي

لقد تبين من تجارب الدول التي تبنت هذه المنهجية صعوبة تنفيذها بنجاح لسعة الشمول وتسارع المتغيرات المحلية والخارجية وفي بعض البلدان العربية لعدم توفر مقدماتها الضرورية السياسية والاقتصادية والتنظمية والمعلوماتية، ما جعل الخطة على الورق لا تعكس مسار الاقتصاد الوطني. وحاليا وضع العراق لا يتقبل مثل هذه المنهجية للتخطيط الشامل الآمري الملزم ولا بد من البحث في البدائل الاخرى، والبداية بتنفيذ التعداد العام للسكان والمنشآت كقاعدة معلومات للتخطيط .

ثانياً : منهجية مرنة للتخطيط في إطار آلية السوق

مقاصد التخطيط في هذه المنهجية المرنة المتماشية مع التعددية الاقتصادية، هي تحقيق عقلانية اقتصادية مجتمعية، لا سيما لتعظيم حجم الموارد المتاحة والمحتملة

وتحسين جودتها باستمرار وترشيد استخدامها.

وتؤكد هذه المنهجية احترام عنصر الوقت والالتزام بمواقيت تنفيذ المشروعات بعد اعتمادها . وان تكون عملية اتخاذ القرارات الاستثمارية الرئيسية ضمن العملية التخطيطية .

ولهذا فإن المنهجية المرنة للتخطيط في اطار آلية السوق يمكن ان يكون لها تأثير في مجال نشاط القطاع العام (الاقتصادي والاداري)، الذي بمقدور إدارة الدولة للتنمية توجيهه. في حين يظل هذا التخطيط المرن ارشادياً لبقية القطاعات (المشترك، الخاص، التعاوني)، ويفضل ان يكون لهذه القطاعات من يمثلها في جهاز التخطيط المتبني للتعددية الاقتصادية لتشارك في العملية التخطيطية.

هذه المنهجية المرنة للتخطيط في اطار آلية السوق يمكن ان تقوم على المحاور الآتية :

● التوسع في الإدارة الاقتصادية. غير المباشرة . المعتمدة على الحوافز الاقتصادية باستخدام آلية الاسعار والقروض واسعار الفائدة والاعفاءات والمنح والضرائب وغيرها من الادوات المماثلة .وذلك للتأثير غير المباشر في المؤسسات والافراد للتوجه نحو المسار الاقتصادي والاجتماعي. المنسجم مع الاستراتيجية العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للدولة.

● وانطلاقاً من واقع المرحلة الراهنة ونحن ندخل الألفية الثالثة، حيث تتاح للقطاع الخاص مجالات واسعة ومتزايدة على خريطة النشاط الاقتصادي والاجتماعي، وما يلازم هذه الظاهرة من تعدد لمراكز صياغة القرارات الاقتصادية من جهة، ومن جهة ثانية المركزية النسبية المطلوبة للقرارات التخطيطية الرئيسية على صعيد الاقتصاد الوطني، فان المنهجية المرنة للتخطيط تحاول ان تجد الحل الملائم لهذه العلاقات المتشابكة وذلك من خلال:

السُبُل المباشرة وشبه المباشرة للتخطيط

* وضع خطة مرنة للقطاع العام بالتوافق مع الموازنة العامة للدولة، تُركز على المؤشرات الرئيسية وبدون الغوص بالتفاصيل، وتكون قابلة للتعديل وفقاً للمستجدات، وهي بمثابة دليل عمل للدولة ومؤسساتها العامة .

* التوسع في القطاع المشترك . باعتباره احد المداخل المفيدة لإشتراك جزء من اصحاب النشاط الخاص المنظم مع القطاع العام، ووضعه تحت مظلة المنهجية المرنة للتخطيط بصورة شبه مباشرة .

* التعاقد بين القطاع العام وبقية القطاعات في اطار التعددية الاقتصادية (المشترك، الخاص، التعاوني) لإنجاز بعض المقاولات او تأمين بعض المستلزمات، او حتى في إدارة بعض الخدمات العامة، مما يساعد هيئة التخطيط على التعرف الى توجهات هذه الانشطة المتعاقد بشأنها، مما

يجعلها قريبة من خطة الدولة لقطاعها العام ومن الاستراتيجية العامة للتنمية.

السُبّل غير المباشرة للتخطيط الارشادي

وتكون باتباع واحدة او اكثر من الاجراءات الآتية:

* الانفاق الاستثماري العام في قطاعات معينة، مما يفرز فرصاً مشجعة لميل القطاع الخاص (والتعاوني) بتوجيه انشطتها او جزء منها نحو اهداف تتوخاها الاستراتيجية العامة للتنمية .

* اعتماد الضرائب المباشرة والضرائب غير المباشرة للردع والتحفيز في مجالات معينة.

* توظيف الادوات المالية والنقدية التي بامكان الدولة وجهازها المصرفي استخدامها بشكل مؤثر، مثل القروض وسعر الفائدة، سعر صرف الدينار مقابل العملات الاجنبية، الإعانات المالية لمستحقيها بما فيها دعم بعض الاسعار وما يماثلها من ادوات .

* اعتماد آلية اسعار بعض المنتجات من السلع والخدمات، يمكن ان تكون مُحفزاً لنشاط معين . او رادعاً . وبالتالي التحوّل منه الى نشاط آخر مرغوب اجتماعياً.

* التوجيه غير المباشر بالانطلاق من بعض الاجراءات الإدارية، مثل تراخيص اقامة المشروعات لضمان نظافة البيئة، او عند تشغيل العمالة بتفضيل المدربة منها على الهامشية لرفع الانتاجية وبالتالي تعزيز القدرة التنافسية.

* وهناك وسائل اخرى للتأثير غير المباشر، مثل تقديم المعونة الفنية، وتقديم المعلومات عن فرص الاستثمار المجزية، وتقديم الخبرة في مجالات معينة، لا سيما في المراحل الاولى لإنشاء المشروعات ولفترة محددة مع التأكيد على الإنتاجية والجودة.

متطلبات تنفيذ المنهجية المرنة للتخطيط في اطار آلية السوق

● قاعدة بيانات ومعلومات عن مجمل الاقتصاد الوطني، ولاسيما في ما يخص القطاع العام، وان تكون دقيقة و محُدَثَة باستمرار .

● شمولية اقل والزام اقل مقارنة بالبديل الاول لمنهجية التخطيط الشامل للتنمية (المركزي الآمري الملزم).

● ايجاد طريقة لتفاعل التعددية الاقتصادية بمشاركة القطاع الخاص والمشترك والتعاوني مع القطاع العام، من خلال لقاءات لممثلي هذه القطاعات للتشاور معهم في ما يخص الانشطة المشتركة وتعريفهم بتوجهات الدولة الاقتصادية (اي الشفافية الاقتصادية) والحوار بشأنها.

الرأي

هذا البديل للمنهجية المرنة للتخطيط في اطار آلية السوق، يمكن الأخذ به في هذه المرحلة من تطور العراق، ولا سيما اذا

تحققت التحسينات الجارية للقدرات الفنية لوزارة التخطيط، واتمتة عملها. وكذلك رفع القدرات الفنية لوحدات التخطيط والمتابعة في الوزارات والمحافظات المشمولة بالتخطيط. وهذا البديل يبدو مقدوراً عليه ما دامت الارادة السياسية للدولة تدعمه وتوفر له متطلبات تنفيذه.

ثالثاً : منهجية خطة البرامج القطاعية

هذه المنهجية سيكون هيكلها قائماً على عدد من البرامج المُفضلة بمشروعات استثمارية انشائية واخرى تطويرية.

تشارك باعدادها بالاضافة لوزارة التخطيط باعتبارها الجهاز الفني لمجلس الوزراء، جميع الوزارات والجهات المعنية بكل برنامج.

واهداف خطة البرامج القطاعية يُفترض ان تنبثق من وثيقة الاستراتيجية العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للعراق . وما يناسب منها لكل مرحلة. وكل برنامج عبارة عن مجموعة من المشروعات الانشائية المرتبطة بها والتي تشكل جزءاً من خطة البرامج القطاعية للفترة الزمنية المحددة لها.

المشروعات الاستثمارية لخطة البرامج القطاعية

استثمارات ومستلزمات تشغيل مادية ومالية وبشرية، تُعتمد لكل مشروع وفق سلم زمني لكل خطوة من نشاط هذا المشروع، حتى تسهل عملية متابعة التنفيذ وتقييم الاداء.

وعند التحضير لخطة البرامج القطاعية . يفضل أن تكون متزامنة مع اعداد الموازنة العامة للدولة . وان يكون اختيار المشروعات وفق معايير محددة تحقق الاهداف الانمائية لكل مرحلة من تطوير البلاد، ولحل المعضلات التي تعيشها البلاد او المتوقع تواجدها قريباً.

وكمثال لهذه البرامج:

برنامج تطوير التعليم وربط مخرجاته بسوق العمل . الذي يمكن ان يتضمن مشروعات منها :

- مشروع تطوير التعليم الاساسي والثانوي والمهني.
- مشروع تنقيح المناهج والكتب المدرسية ووسائل التعليم لجميع المراحل والانتقال من اسلوب التلقين، إلى اسلوب التفكير والإبداع.
- مشروع تطوير التعليم الجامعي والمعاهد المتخصصة ومراكز البحث العلمي.
- مشروع النهوض والارتقاء باعضاء الهيئة التعليمية لجميع المراحل.
- مشروع الابنية التعليمية لكل المراحل بما فيها تطوير المختبرات والمكتبات وبقية الاحتياجات المرافقة للعملية التعليمية ، بما فيها الاقسام الداخلية الملائمة.
- مشروع تطوير مراكز التدريب وتجهيزها لتلبية تنفيذ برامجها.
- مشروع تطوير تعليم الكبار ومكافحة الأمية.

– مشروع تطوير رياض الاطفال ودور الحضانة للأطفال.

– مشروع أتمتة عمل وزارتي التربية والتعليم العالي وقاعدة معلوماتهما.

وبرنامج تطوير الخدمات الصحية . الذي يمكن ان يتضمن مشروعات منها:

– مشروع تطوير الخدمات الصحية الوقائية.

– مشروع بقاء الطفل وحمايته ونمائه المنسجم مع برنامج الأمم المتحدة.

– مشروع العناية بالأم الحامل ودور الولادة.

– مشروع تطوير الخدمات العلاجية.

– مشروع تطوير انتاج واستيراد وتصدير الأدوية .

– مشروع تطوير الابنية الصحية للمستشفيات المتخصصة والمراكز الصحية.

– مشروع تطوير مراكز العلاج الطبيعي واعادة التأهيل.

– مشروع تطوير خدمات المسنين والمحتاجين لرعاية صحية خاصة.

– مشروع تطوير الخدمات للمعاقين واعادة تأهيلهم.

– مشروع العلاقات الصحية مع المنظمات الاقليمية والدولية.

– مشروع اتمتة عمل وزارة الصحة وبناء قاعدة معلومات صحية متجددة.

– متابعة تنفيذ خطة البرامج القطاعية

● تكوين فرق عمل قطاعية لوضع الخطة بمشاركة الجهات المعنية مع وزارة التخطيط، وبناء قاعدة معلومات متجددة.

● وضع القواعد والمعايير لمتابعة تنفيذ ما يُعتمد من برامج من السلطات المختصة (دليل متابعة التنفيذ وتقييم الاداء اضافة لدليل اعداد الخطة).

● استخدام خطة برامج متحركة، ومتابعة تنفيذها وتعديلها وفقاً للمستجدات، ويمكن تحريك الخطة لسنة قادمة، بعد استبعاد السنة الماضية .

الرأي

في الممارسة العملية يجري جزئياً تطبيق هذه المنهجية، ومن الممكن تطويرها بتأطير المشروعات ببرنامج قطاعي وتنسيق هذه البرامج تحت مظلة الخطة بإشراف وزارة التخطيط، مع توفير متطلبات تنفيذها .

رابعاً : منهجية البرنامج الانمائي الموازي للموازنة المالية العامة للدولة

هذه المنهجية تُقلص عملية التخطيط وتجعلها موازيةً للموازنة المالية العامة للدولة التي تؤكد الجانب المالي، بينما البرنامج الإنمائي المُقترح في هذه المنهجية، يتولى إضافة للجانب المالي، توضيح الاهداف والسياسات والاحتياجات المادية والبشرية لتنفيذه.

ويمكن الانتقال من المعالجة السنوية للموازنة المالية، التي تعتمد ما تحقق في السنة الماضية وما ينتظر أن يتم في السنة اللاحقة، فتمدها للسنوات الاثنين أو الثلاث القادمة، قابلة للتعديل في ضوء المستجدات

الفعلية والمحتملة للايرادات والمصروفات للسنوات المشمولة بالموازنة المالية العامة للدولة والبرنامج الانمائي المصاحب لها.

واضافة للتوسع الزمني في سنوات الموازنة العامة للدولة، وفقاً لمقترح هذه المنهجية . من الممكن والمطلوب ايضاً التوسع في مفهوم الموازنة، وذلك بعمل فصل خاص للموازنات الملحقة وآخر للموازنات المستقلة للجهات الحكومية التي لها شخصية اعتبارية مستقلة يجمعها اطار موحد يعكس المركز المالي للدولة (الحكومة). يصحبها البرنامج الانمائي، مفصلاً الاهداف والاولويات والسياسات وبقية الاجراءات التنفيذية.

فمن المعروف ان الحكومة العراقية تُشغِل جزءاً كبيراً من القوى العاملة وتدير مؤسسات القطاع العام الاداري والاقتصادي، وهي بذلك ربة عمل يلزمها اعداد برنامج واضح يؤكد الاستخدام الرشيد في اطار التعددية الاقتصادية محلياً وبانفتاحها للتعامل مع العالم الخارجي.

كما ان الحكومة العراقية بانفاقها العام سنوياً الذي يقتطع جزءاً كبيراً نسبياً من الناتج المحلي الاجمالي، تعتبر بمثابة الوكيل عن الاستهلاك العام للخدمات الصحية والتعليمية والخدمات الاخرى، ولهذا فهي هنا ايضاً بحاجة لبرنامج يوضح هذه الاحتياجات واولوياتها وحجم ومصادر تمويلها.

متطلبات تنفيذ البرنامج الإنمائي الموازي للموازنة المالية العامة للدولة

* التنسيق والعمل المشترك في ما بين وزارة التخطيط ووزارة المالية ووزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية وبقية الوزارات والجهات المعنية.

* تدعيم القدرات الفنية لدى وزارة التخطيط واتمتة عملها، وتعزيز وحدات التخطيط والمتابعة في الوزارات والمحافظات المشمولة بالبرنامج الإنمائي.

* توفير قاعدة بيانات ومعلومات دقيقة ومُحدثة باستمرار.

الرأي

هذه المنهجية قابلة لوضعها موضع التنفيذ بمتطلبات مقدور على توفيرها، وتعديلات تشريعية مناسبة، واذا دعمتها الإرادة السياسية القائدة للبلاد.

المتغيرات الاقتصادية الكلية

في حال تبني منهجية البرنامج الإنمائي الموازي للموازنة المالية العامة، كما جرى توضيحها في الفقرات السابقة، فان المتغيرات الاقتصادية الكلية، مثل الناتج المحلي الاجمالي، والدخل الوطني القابل للتصرف، والاستهلاك النهائي بشقيه الحكومي العام والاستهلاك العائلي الخاص، والمدخرات على الصعيد الوطني، والتراكم للتكوين الرأسمالي (الاستثمارات) والتغير في المخزون، والصادرات والواردات من السلع والخدمات وبقية مكونات ميزان

المدفوعات، وما يماثلها من متغيرات اجمالية كتقدير عدد السكان ومنهم الموارد البشرية والقوى العاملة، من الممكن متابعة تطورها واعداد تقارير سنوية عنها، وذلك بالتعاون مع المكتب المركزي للاحصاء، وكذلك بالتعاون مع المصرف المركزي والجهات الاخرى المعنية.

ومن الممكن والمرغوب فيه لوزارة التخطيط العمل على اعداد الدراسات الإستشرافية لهذه المتغيرات الاقتصادية الكلية وللسكان والقوى العاملة، وعمل النماذج الرياضية الملائمة و/أو مصفوفة للحسابات الاجتماعية، كادوات تخطيطية الى جانب الحسابات القومية وجداول المدخلات والمخرجات لمعرفة التشابك القطاعي، وذلك للإسترشاد بها في العمل الفني لوزارة التخطيط.

والخلاصة فان التخطيط إدارة وقناعة سياسية قبل كل شيء، ونجاحه مرهون بما تقدمه وزارة التخطيط من نجاحات ملموسة لدعم متخذي القرار، لتكسب المزيد من دعمهم. ويظل هذا الموضوع بحاجة إلى ندوة لمناقشته، لترشيح البديل الملائم لظروف العراق في هذه المرحلة من تطوره وتطلعه إلى مستقبل أفضل. وكذلك مشاركة الهيئات الممثلة للجماهير كمنظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في الحوارات حول هذا الموضوع المهم والمراقبة في تنفيذ ما يُعتمد ليكون المسار لعملية التخطيط لصالح الجماهير الواسعة ومستقبلها المزدهر باستمرار.

مقاربة لبحوث ونظريات الاسكان

موفق جواد الطائي
أكاديمي وخبير إسكان ومهندس معماري

النظرية هي ليست مجرد ترف أكاديمي، بل تعد من أهم الوسائل لتمكين القراء من الحكم على البحوث وفقا لحيثياتها وشروطها الخاصة، ولتفادي الخلط مما يقال وشائع ومحدوديته ودرجة شيوعه الذي لا يعني بالضرورة صحته.

إن أي دراسة أو منحة دراسية لبحوث الإسكان يجب أن تتضمن نظرية اجتماعية وأدواتها هي:

أ- الاقتصاد السياسي Merritt, 1979; Ball, 1983 MacLennan, 1982

ب - العلوم السياسية (Dunleavy, 1981)

ج- الجغرافيا الاجتماعية Harvey, 1973, Smith, 1989; Massey

د- علم الاجتماع (Rex and Moore 1967; Saunders, 1990)

تهيمن على "دراسات الإسكان" قرينة قوية وهي أن المهمة الأساسية للبحث هي "وصفة طبية " جاهزة لمساعدة السياسات أو لتأكيد مقولات المعنيين لتصبح لاحقا حقيقة شائعة.

والبحث في الاسكان علم نظري تحليلي ينظر إليه على أنه وسيلة لمواجهة هيمنة البحوث الوصفية المفروضة والرأي المسبق. لذلك هناك فهم واسع النطاق بأن التنظير التحليلي الصريح يؤدي لأجود نتائج للبحوث وأن إقرار الوصفات الجاهزة يجعل من الباحث وعاض سلاطين يقر كل ما يفرض عليه واقعه البر البراغماتي. فعلى المهتمين في أمر الاسكان أن يدركوا أنهم لا يمكن أن يضطلعوا في البحث في موضوعة الإسكان بنجاح بمعزل عن مناقشات ما يجري على نطاق أوسع في غيرها من العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

لقد تغير مفهوم السكن ولم يعد يهتم فقط بإنتاج البيوت من مواد بناء فحسب واصبح يعنى بالتأجير والرصيد السكاني والإدامة ومشاكل الارض والمتطلبات الإنسانية الملحة في الفضاء الداخلي والخارجي وعوامل الادراك السيكولوجي وغيرها، والتي تهدف جميعا للتحول لدولة الرفاه الموصوفة بمقررات الألفية الثالثة في (جوهانسبرج) والتي اصبحت الوثيقة المركزية والدستور الذي تهتدي به الامم وهذا حتما سمة عصر العولمة الحالي. لذلك اصبح لزاما علينا أن لا ننأى بأنفسنا عن الركاب العالمي ونبتعد عن الثورة العلمية العالمية التي تسعى جاهدة لحل مشكلة السكن من خلال التحليل وليس الوصفات الجاهزة (المسبقة القرار) مثل تقديم السكن العمودي على السكن الأفقي أو حل مشكلة السكن عبر توفير الأرض أو

التدخل المباشر أو غير المباشر للدولة أو كمية العجز المطلوب من الوحدات السكنية المأخوذة اعتباطا وغيرها. فلكل حالة حل تحليلي قد يصلح في مكان ولا يصلح في مكان اخر يحددهما البحث العلمي الموضوعي الموضعي.

لعل من الظواهر الأساسية في بحوث الإسكان في العراق هو أن يتم التمويل والتكليف وفق سياسات موجهة مسبقاً تعتمد على متطلبات المقاولات أو جهة التنفيذ أو لإيجاد مورد مالي للبحث من خلال محاكات سياسات موجهة أو الحصول على شهادة عليا، ولذلك يغلب الوصف على التحليل لمجارات الإجرائيات المطلوبة من المعنيين الأكاديميين و الإداريين.

علينا ان نكون واضحين وساندين وإيجابيين في موقفنا من المحاولة لتحليل وتفهم السياسات السكنية هذا من جانب، ومن جانب آخر البحث من منظور معالجة أوجه القصور في السياسات وتوجيه الدراسة نحو الحسم العلمي الصريح. ولعل افضل السبل لذلك اعتماد الإجراء المتضمن تقديم الأطروحة (theses) ونقيضها (ntitheses) وناتجهما المتأتي من الموازنة بين المؤثرين (syntheses) وقد نحتاج لهذا النهج للاستشارات الأكاديمية من الجامعيين لتحسين ممارسة البحث وتقديم المنهج التحليلي النظري الصريح مقابل المنهج الوصفي.

تسعى جميع سياسات الإسكان للهدف الأعلى وهو تمكين وتحسين ظروف من هم بأمس الحاجة للسكن والبحث عن حلول لمشاكل السكن، وعلى ضوئها تأتي المبادرات الحكومية ومنظمات الائتمان ومنظمات المجتمع المدني وغيرها. غير أن هذا مرتبط بالتغيرات العامة الموضوعية المحيطة وكيفية تفسيرها وفق الأطر المناسبة لتحليل التغير الاجتماعي والسياسي. ولعل عدم فهم ذلك قد كان سببا في إهمال أكثر البحوث ووضعها على الرفوف أو عدم إنجاز سياسات اسكان رصينة ورائدة مثل دراسة بول سيرفس .

إذاً ماهي الهيكلية المناسبة لتحليل التغيرات الاجتماعية والسياسية، ولعلنا نجدها بالأطر الآتية:

1: النهج (البنيوي) (structuralism) والذي يؤكد العلاقة بين نتائج بحوث الاسكان والاقتصاد العام الواسع ويرفض التفسيرات الفردية .

2: النهج (الإداراتي) (managerialism) والذي يعطي الوكالة والأولوية للفرد لإدارة جميع الإجرائيات الحضرية الخاصة بالسكن; Ray Pahl Rex 1990 Moore, 1967; Saunders, 1990.

3: نهج التوحيد والأحكام Consolidation

أ: نظرية الهيكلة (كيدينز Giddens) حيث التماسك العام في أصول البحث والترابط الجدلي بين مكوناته.

ب: نظرية الهيئة العامة (الخلقة Habitus) (بورديو Bourdieu) ويعتمد الترابط العضوي لتشكيل الهيئة العامة كحدث آني.

دور الدولة والسوق

لا يمكن إجراء أي دراسة لسوق السكن دون مناقشة ما يجري لتحليل نوع الدولة ونفوذها المباشر وغير المباشر على توفير

السكن واستهلاكه وجل هذه القضايا هي:

1: تحديد مستوى إمكانيات الدولة الاقتصادي العام: (فقيرة، نامية، نامية تسعى لمتقدمة، متقدمة، متقدمة استثمارية صرفة (كمبرادورية) متعددة الجنسيات أحيانا.

2: شكل وتوجهات الدولة: اشتراكي، سكن تعاوني، سكن مدعوم، اقتصاد السوق مع الاستدامة، رأسمالي حر، رأسمالية دولة، رأسمالي ربحي فقط.

3: دولة قوية مقابل دولة ضعيفة.

4: التغيرات المحتملة التي تطرأ على دور الدولة.

5: الروابط بين الدولة وراسمي السياسات الإسكانية ودرجة توجيههم لها الإيجابية والسلبية، فهناك الكثير من يسعى نحو رأيه الشخصي بعيدا عن توجهات الدولة والمجتمع والتخطيط العام للحكومات.

منظرو بحوث الاسكان الأساسيون

أولا: الإسكان والنظرية الاجتماعية (1992 Kemeny)

يؤكد (كمني) حقيقة ان معظم بحوث الإسكان قليلة التركيز على التوازن في التنظير. وهناك ميل للباحثين في مجال السكن الانجراف المعرفي المنطقي (epistemic drift) والذي يأتي بقرارات ذات سمة حدية خطية أحادية الاتجاه الفكري والقرار (unilinearism) بعيدا عن اعتماد مبدأ الميول والتقارب والتعامل بخطى منطقية ذات مستويات محدودة وغير متعددة، وهذا قد يعد غير مقبول لتجاهله اختلاف وخلافات داخل الموضع المحلي لمناطق البحث.

ثانيا: الإسكان والقوة الاقتصادية 1983 Michael Ball

يشكك (بول) بالبحوث التي تركز على استهلاك المساكن consumption وحاجة المستهلكين needs of consumers ويؤكد ضرورة تركيز البحوث على الانتاج production والتجهيز supply كمؤثرات اساسية لصياغة السياسة الإسكانية .

لذلك ينبغي على التحليل الخاص بالسياسات الإسكانية ان يأخذ في الحسبان الموازنة المحددة لمدى تدخل الدولة مع الحفاظ على الربحية في صناعة البناء وكذلك شأن القطاع الخاص المشارك في سوق السكن .

يشير بول الى قصور واضح في تحليل العلاقة وبشكل تفصيلي كافٍ بين المجاميع المشاركة في إنتاج سوق السكن والعلاقات الاجتماعية السائدة.

من جانبه يؤكد (MacLennan and Whitehead, 1996) أن قاعدة اقتصاد السكن هي جغرافية الإسكان وتعد أحد عناصر استخدام الأرض، كما لا يمكن النظر للإسكان كتخصص مستقل عن الظروف الموضوعية والذاتية المحيطة.

لقد أصبح الاقتصاد نهجاً للدراسات الخاصة بالإسكان وزادت أهميته في السنوات الأخيرة لسببين رئيسيين:

1. إن أسواق السكن أصبحت أكثر الأسواق الموجهة من قبل المنتجين والمنتفعين.

2. كما أن الحكومات تريد توجيه الموارد إلى المواقع الأكثر احتياجا ومراقبة نفقات السكن الاجتماعي، لذلك ينظر واضعو السياسات الإسكانية إلى الاقتصاد كأداة

لمعرفة الكيفية التي يمكن من خلالها توجيه الموارد بشكل أكثر كفاءة.

إن الذي يحرك سوق السكن هو العرض والطلب وليس الرغبة أو النية. فالتوقعات والنتائج يمكن أن تعرف كنماذج كامنة نتاج عن ميكانيكية السوق المستندة إلى اقتصادياته، وهنا لا بد أن نشير الى أربعة مناهج رئيسية:

– النهج المهيمن (وخصوصا في الولايات المتحدة) الذي يؤكد التركيز على نتائج ثابتة التوازن، الناتجة عن عقلانية خيارات المواضع السكنية وموقعها في سوق تنافسية تقومها أنظمة اقتصاديات السوق الرأسمالي غير المنضبط، وهذا بالطبع قاد الى كارثة اقتصادية كبرى أدت بالولايات المتحدة وبالتالي العالم الى الركود الاقتصادي، وهي تراجع الآن كل نظرياتها الاقتصادية التي كانت تبشر بها سابقا بهيمنة الاقتصاد الرأسمالي (الحر).

– نهج تحليل كفاءة أسواق التمويل الإسكاني وخاصة قدرة تلك الأسواق على الاستفادة من فوائد التنويع الإقليمي والبيئي والموارد المادية والبشرية ضمن أجواء (اقتصاديات السوق) التنافسية.

– نهج اعتماد آليات التحليل المعتادة في الاقتصاد القياسي (Econometric) لإعداد النماذج الخاصة بسوق الإسكان العام.

– نهج التركيز على معرفة أسباب فشل سوق السكن ومدى تأثير السياسات الحكومية في النتائج، وذلك من خلال معطيات التغذية المرتدة (Feed back) وبنوك المعلومات لإيجاد ما يسمى نموذج التوازن الجزئي (partial equilibrium model).

ثالثا. دستور الإسكان ، من أجل جدولة أعمال بحوث الاسكان .

The constitution of the Home Towards a Research Agenda (1988) Housing Studies Vol. 3 Nhj hglulhvdi o. 2, P hgjH;f] ugn hglpgdi eter Saunders and Peter Williams

يقترح المؤلفون وجوب التركيز على رؤيا جديدة في بحوث الإسكان يشكل المحور المركزي فيها البيت (home) ، الوحدة الفعالة التي بتفاعلها مع الساكنين تكون الفعل الاساسي المستهدف في بحوث الاسكان بشكل عام والمساكن بشكل خاص. كما اشاروا الى ضرورة تغليب دراسة الاستهلاك على الإنتاج، ويدعم فكرة كيديونز بضرورة التأكيد على المحلية الموضعية (locale) وتفاعلاتها الاجتماعية لأجل صياغة التشريعات الضرورية للفضاء السكني.

إلا أن هذا الرأي لاقى انتقادات مهمة من طرف سومرفيل (Somerville 1989) الذي يدعو الى عدم الفصل بين الإنتاج والاستهلاك و ذلك لكونهما متشابكين لا انفصام بينهما و يشكلان تكوينا واحدا. اما غرني (Gurney 1990) فكان قلقا إزاء تعريف (البيت) الكمي (quantified) وتحديده بعموميات التصنيفات النصية taxonomic generalisations

لكن الإيجابية في دستور الاسكان هذا هي غلبة النماذج النصية البحثية المدعمة من سياسات توجهها البحوث بنصوص محدده غير عائمة تتضمن العالم الموضوعي

الخارجي والمعرفة الضرورية خلال البحث العلمي وأساليب التقييم الكمي الرصينة والخبرة التقنية المناسبة.

رابعا. البنائية الاجتماعية Social Constructionism

ظهرت مؤخرا هذه النظرية التي اعتمدت على التأثير البالغ لبحوث الإسكان في علم الاجتماع ومنها جاءت مقولة جيرجل المشهورة: " نحن نوجد مبانينا ومبانينا توجدنا " وهناك رواد هذا الفكر كثر قد لا يسع المجال لذكرهم جميعاً.

لعل أهم المنظرين هو (verstehen) الذي يؤكد اعتماد دراسة السلوك البشري human conduct القائم على فهم واستيعاب الوعي الذاتي subjective consciousness للمشاركين في فعل السكن .

أما ديلثي وجماعته (Dilthey, Weber, Schutz Berger and Luck-mann) فيحددون منهاجياتهم وفق الاطر التفسيرية الآتية :

أ .عدم إعطاء أي دور حقيقي لأساليب العلوم الطبيعية.

ب. الحقيقة هي مفهوم بعيد المنال تمويهي (elusive concept) متأتٍ من حقائق ذاتية متعددة.

ج . هناك إمكانية تعدد الأهداف ضمن المنظمات والجماعات المتنافسة في فعل الإسكان، وهذه دون شك دعوى لبرالية واضحة رائدة في بحوث الإسكان.

د . تحويل الاهتمام في التحليل من ما يفترض القيام به للأشخاص (الفكر المسبق) وما يفعلونه حقا، ولنا في الدول العربية خير مثال على ذلك رائد عمارة الفقراء حسن فتحي وغيره.

هـ. الاهتمام بالتغيرات الاجتماعية المحيطة ومتابعتها .

و. التركيز على أهمية الطاقة بكافة أنواعها كبنى تحتية للسكن وكمورد طبيعي متجدد.

ز. التأكيد على الاعتراف باستحالة وجود نظرية محايدة لمراقبة بحوث فعل السكن، فالجميع منا نتاج التمرين الذهني والحرفي والطبقي والبيئي الذي لا يمكن أن يفضي لقرار أو تحليل واحد.

ثمة افتراضات مهمة ملازمة لموضوعة (البنائية الاجتماعية Social Construc-tionism) وهي:

أ. المعرفة (Knowledge) تسيرها النظريات.

ب. من المستحيل للباحث أن يفصل الكائن (object) عن الموضوع قيد التحليل العلمي.

ج . لا فصل بين النظرية والممارسة.

د. الباحثون لا يستهدفون قيماً محايدة.

هـ. البحوث تحدث داخل "المجتمع الدراسي " ذات المهنية العالية ومن المنح للدارسين وليس هواة البحوث الصحفية المروجين لكليشات شائعة.

الادراك المعرفي (Cognitive)

في الآونة الأخيرة ساد اعتقاد بضرورة ادخال الادراك كمؤثر أساسي في بحوث السكن، وقد يطول بنا البحث لتشعب مفهوم الادراك المعرفي (Cognitive) للطبيعة التكوينية للإدراك المتأتي من مستويات وارتباطات معرفية متعددة ، لكننا من المهم ان

نؤشر هنا فقط أهمية الولوج في البحوث السيكولوجية وبشكل مشترك بين المخططين والمعماريين والسيكولوجيين وحسب تسلسل أهميتها في المواضيع الآتية :

أولا: مواضيع الإسكان وسياسة الإسكان (Housing issues and housing policy)

ثانيا: تجارب السكن والتشرد (Experiences of home and homelessness)

ثالثا :المشاركة الاجتماعية (Community Participation))

رابعاً : التضاد والتناقض في تخطيط المدن (Confliction Contradiction in urban planning)

خامسا : تخطيط واستخدام المخطط المفتوح (Open space planning and use))

سادسا: التصميم والاستخدام وتقييم ذلك مع بحوث المشاركة.

Design use and evaluation in relation to participation research))

سابعا : التنوع في البيئة والبيئة المبنية (Diversity in environment and built environment).

أما العمارة المعرفية (Cognitive Architecture) فهي الأهم من كل ما ذكر سابقا في مجال الإسكان. وهذا يتضمن علم النفس المقارن وعلم النفس التطوري وعلم نفس الشخصي وعلم النفس الكمي وعلم النفس الاجتماعي، أما التطبيق فتحدد آلياته من أسلوب الاستشارة في علم النفس. كما أن من الضروري أن تعطى أهمية لدراسة تأثير الضوابط القانونية وتأثيرها السيكولوجي في العامل البشري لتجنب الجريمة وكيف يمكن للتصميم بإيقافها. و كنت قد عملت بحوثا مستفيضة بذلك قدمت في ندوات علمية كثيرة لا أود تكرارها.

نجد بعد هذه اللمحة العامة من العروض لدراسة نظريات الإسكان أن من الضروري أن تكون النظريات هي المسيرة لبحوث الإسكان وليس العكس، وأن لا تعوم مشاكل السكن بذرائعيات غير مجديه وكلائش قد تخلو من السند العلمي الرصين.

الهُوِية الوطنية والتعددية الثقافية
دراسة مقارنة

أ.د. حاكم محسن محمد الربيعي

حاكم محسن محمد الربيعي، استاذ في جامعة الكوفة/كلية الادارة والاقتصاد، خريج جامعتي بغداد والمستنصرية وحاصل على شهادة الدكتوراه في فلسفة ادارة الاعمال وشغل منصب مدير الشؤون الادارية والقانونية بجامعتي الكوفة وبابل ورئيسا لقسم ادارة الاعمال- كلية الادارة والاقتصاد- جامعة كربلاء لعدة سنوات. له عدة كتب في حقل الاختصاص ، كما نشر ما يقارب الخمسين بحثا واشترك بعدة مؤتمرات عربية ودولية و شارك في مناقشة اطاريح الدكتوراه والماجستير في العديد من الجامعات العراقية. الدكتور الربيعي عضو هيئات تحرير واستشاري في مجلات اختصاصية بعدة جامعات عراقية اضافة الى عضوية الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية وجمعية الاقتصاديين العراقيين، كما شغل رئاسة تحرير المجلة العراقية للعلوم الادارية و مجلة الادارة والاقتصاد التي تصدرها كلية الادارة والاقتصاد بجامعة كربلاء.

مقدمة:

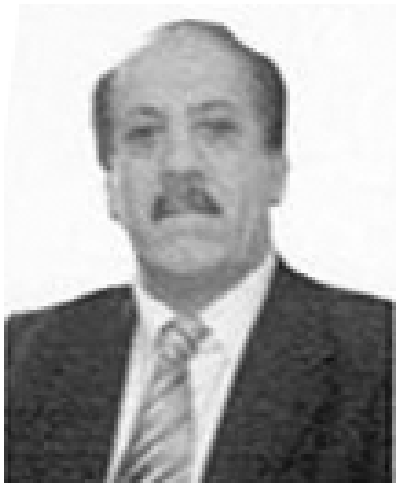

تعبر الهوية الوطنية عن انتماء الفرد الى وطنه او الارض التي يقيم فيها ولا يعنى بالإقامة السكن المؤقت وانما الدائم في بلد ما وبالتالي فان هوية الفرد هي انتسابه وانتماؤه الى البلد الذي يسكن فيه وعائلته وابناؤه واجداده، ولذلك تحظى الهوية الوطنية بالأهمية الكبيرة، وقد يتعدد نوع الناس من حيث القوميات او الاديان او القوميات التي ينتسبون اليها ورغم هذه التعددية في القوميات والاديان والتي ينتج عنها تعددية ثقافية الا انهم جميعاً يحملون هوية البلد الواحد (الوطن) الذي يعيشون

ويتعايشون فيه. وهنالك الكثير من دول العالم التي تكثر فيها القوميات والاديان التي يدين بها الناس لكن الجميع يحمل هوية واحدة هي هوية الانتماء الوطنية رغم اختلاف ثقافاتهم حيث الجامع الموحد لهم هو الانتماء للوطن. ويأتي هذا البحث مساهمة متواضعة وجادة على سبيل الاشارة والتعريف بالهوية الوطنية والتعددية الثقافية في عالم كثرت فيه الصراعات والمنافسات التي قد تولد الفرقة بين اطياف المجتمع الواحد سعياً نحو تأهيل الهوية وتأكيد الوحدة الوطنية، بالتركيز على العراق.

اولاً: الهوية الوطنية

أ- مفهوم الهوية الوطنية:

الهوية الوطنية او الهوية كمصطلح مجرد كان مثار خلاف في الآراء والطروحات التي تناولت هذا المفهوم. ويذكر الاستاذ الدكتور ابراهيم ابراش استاذ العلوم السياسية من جامعة الازهر بان الجرجاني ذكر تعاريف الهوية في كتاب القوميات حيث قال بانها "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على المحتوى (ابراش، لاتا)".

ويكاد هذا المفهوم يكتنفه الغموض وغير واضح لاسيما للعامة من الناس الذين يبحثون عن مفهوم ومعنى الهوية في حين تناول الفارابي مفهوم الهوية بأنها هوية الشيء وعينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له، ومن هذا التعريف يذكر الدكتور ابراش ان قول الفارابي هو اشارة الى هوية الفرد وهو ما أكده المفكر المغربي د. محمد عابد الجابري في ان معنى الهوية في الفكر "وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك"، أي ان هوية الفرد معبرة عن خصائص الفرد التي لا يشترك فيها شخص اخر، هذه التعريفات والمفاهيم تناولت بالتحديد الهوية المجردة. ويتحدث البعض عن الهوية القومية أو الهوية الاقليمية أو الهوية الدينية أو الهوية الحزبية أو الأممية...الخ من هذه المسميات، ان التمسك بهذه المسميات كان احد التحديات التي واجهت الهوية الوطنية. ولكن عندما يقال الهوية الوطنية يصبح الامر مختلفاً أي ان الخصائص منسوبة الى الوطن الإقليم او الارض التي يسكن فيها الفرد وينتمي اليها من خلال نسبه الى العشيرة او القبيلة التي هي الجهة التي ينتمي اليها آباؤه واجداده وهذه الخصائص القبلية والعشائرية يشترك فيها مجموعة من الافراد يشكلون العشيرة او القبيلة التي تسكن فيها (وطن محدد). وتبعاً لذلك تصبح الهوية الوطنية هي التعبير عن انتساب الفرد الى بلد معين فعندما يقال هذا الانسان عراقي يعني انه من العراق ويسكن في العراق وله ثقافته وعاداته واتجاهاته داخل هذا البلد فهو عراقي يحمل الهوية العراقية المعززة بالمستمسكات الصادرة عن هذا البلد وعندما يوجه سؤال الى فرد معين ما جنسيتك، يجيبك الماني، ايطالي، ويعني ذلك انه ينتسب الى الدولة الالمانية او الدولة الايطالية أي ان هناك جماعة او هناك شعب عراقي او الماني او ايطالي ينتسب اليه هذا الفرد او يحمل جنسية ذلك البلد او ان هويته عراقية او بريطانية او ايطالية. وهكذا يعبر عن طبيعة ومفهوم الهوية أو الهوية الوطنية. ومن الجدير بالإشارة أن اهتمام (الاتحاد الاوربي) بدأ بعد عام 1990، بمشكلة الاقليات القومية إذ ازداد بعد هذه السنة عدد النزاعات العنيفة

التي اعتبرتها المجموعة الاوربية مخيفة. وهذا ما أعلنته (منظمة الامن والتعاون الاوربي) عام 1990 وما ركزت عليه وهو تدويل حالة هذه الاقليات. علما أن الدول الاوربية كثيرا مادعمت النزاعات القومية واتخذتها و رقة ضغط ضد بعض الحكومات في آسيا وأفريقيا وامريكا اللاتينية ومن جهة اخرى ساندت حكومات بدعمها بالسلاح ضد هذه الاقليات الثائرة والامثلة كثيرة كبيع الاسلحة الى اندونيسيا لقمع الاقليات في أتشه وتيمور الشرقية او الاسلحة التي تم تزويد غواتيمالا لقمع المايا ويرجع البعض اهتمام الاوربيين بهذه المشكلة ليس من باب احترام الاقليات والذي يعد مقياس احترامها ومبدأ اساسياً للتقدم الاخلاقي للبلد وانما كان بدافع التخوف من الهجرة وطلب اللجوء الذي اصبح متزايدا في ما بعد.(كيمليكا 2011).

ب- مقومات الهوية الوطنية:

ان ترسيخ مفهوم الهوية الوطنية يواجه تحديات الفرعيات من الهوية والمسميات التي سبقت الاشارة اليها اذ هناك مسميات: الهوية القومية او الدينية آو الاقليمية او الاممية او الحزبية وهكذا، هذا التفرع بالهوية يعد من ابرز التحديات للهوية الوطنية وذلك بحسب الصراعات المتسببة عن هذا التفرع وهو ما حصل بين الشعب الواحد ذو القوميات المتعددة او النحل الدينية المتعددة ويعد العراق مثال لذلك للمدة التي اعقبت سنة الاحتلال عام 2003 ولكن وعي العراقيين واصالتهم لن يسمحا لمن ارادوا للشعب العراقي ان يقع في وحل النزاع القومي او الطائفي بإشكاله المختلفة، لذا فان مقومات الهوية الوطنية التي تبرزها كهوية اساسية ولها الاسبقية:

1- التأسيس لنظام سياسي ديمقراطي برلماني فاعل، أي ان لا يكون فقط هذا النظام محدداً على الورق وانما تتجسد مضامينه من الناحية العملية.

2- اشاعة ثقافة قبول الاخر على اساس الانتماء الى الوطن الواحد الذي يجمع القوميات المتعددة والاديان والمذاهب المختلفة من خلال المؤتمرات والندوات ومن خلال المؤسسات التعليمية وذلك بإدخال مادة دراسية باسم (الوحدة الوطنية).

3- التخلي عن سياسة الاقصاء والتهميش التي تمارس ضد الطرف الاخر بسبب الهويات الفرعية والتعامل على اساس الهوية الاشمل وهي الهوية الوطنية.

4- التأسيس لوحدة وطنية فاعلة قائمة على اساس الوطن الموحد لكل القوميات والاديان والمذاهب المختلفة.

5- توحيد الجهود لمواجهة التحديات الخارجية التي تواجه الهوية الوطنية والتي تسعى الى تفكيكها.

6- التخلي عن الخطاب السياسي او الديني العدائي للطرف الاخر واعتماد الخطاب القائم على تعزيز التآخي والتعاون والتسامح الذي يؤسس للوحدة الوطنية وبالتالي للهوية الوطنية.

7- اعتماد سياسة متوازنة من قبل الحكومة مع جميع القوميات والاديان والمذاهب الموجودة في البلد والاخذ بسياسة العدالة الاجتماعية في توزيع الموارد الاقتصادية.

8- اعتماد الكفاءة والخبرة والمؤهل العلمي في الاختيار للوظائف العامة سواء كانت قيادية أو دون ذلك وأن يتم الابتعاد عن الأسس الأخرى التي تؤدي الى الفرقة

الاجتماعية في البلد الواحد.

9- مواجهة تحديات العولمة بكل مكوناتها ولا سيما الداعية الى فرض انظمة سياسية واجتماعية وثقافية.

ج-التركيبة السكانية و أنظمة الحكم:

1-ماليزيا:

دولة تقع في جنوب شرقي اسيا وهي من دول " النمور الاسيوية " التي شهدت تطوراً ونمواً اقتصادياً سريعاً وتتكون من (13) ولاية وثلاثة اقاليم اتحادية يصل عدد سكانها الى اكثر من (28) مليون نسمة وبمساحة مقدارها (239744) كم2 وهي محاطة بأربع دول: تايلند وسنغافورة واندنوسيا وسلطنة بروناي، وهي قريبة من خط الاستواء ومناخها مداري وتدار من قبل حكومة تكون السلطات مخولة الى رئيس الوزراء ونظامها قريب و متأثر جداً بنظام وستمنستر البرلماني وهي دولة ملكية انتخابية دستورية فدرالية، والرئيس الفدرالي هو الملك او السلطان ويتم انتخابه لمدة خمس سنوات من بين سلاطين الولايات الماليزية وهناك اربع ولايات تمتلك حكاماً اسميين لا يشاركون في الانتخابات رغم اعتدال مواردها الا انها حققت قفزة نوعية في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

1-1القوميات

تعد ماليزيا بلدا متعدد القوميات والاعراق ويوضح الجدول رقم (1) عدد القوميات ونسبة كل منها الى مجموع السكان الملاويين، حيث ان النسبة الاكبر هي لذوي الاصول الملاوية ويأتي بالمرتبة الثانية الصينية ثم الهندية.

جدول (1)

عدد ونسبة القوميات في ماليزيا

القومية	النسبة%
الملاويون	57
الصينيون	32
الهنود	7
قوميات اخرى	4
المجموع	% 100

لكوميديا- الموسوعة الحرة

حيث يشكل الهنود (7٪) اما القوميات الاخرى فان نسبتها (4٪). وتظهر احصائية في اواسط الثمانينيات أن الملاويين كانوا يشكلون نسبة 53 ٪ والصينيين 35.4٪ وكانت نسبة الهنود والاجناس الاخرى 10.6٪ (وزارة الخارجية العراقية، 1988). وبالمقارنة يتبين حدوث تغيير لصالح الملاويين بنسبة مقدارها 4٪ في حين كانت نسبة الهنود في اخر الاحصائيات منفصلة عن القوميات الاخرى كما يوضح ذلك الجدول (1). ومن الجدير بالذكر ان الاقتصاد الماليزي فيه ملاويون من اصول صينية هم الغالبية التي تمسك بالاقتصاد الماليزي الخاص. لكن هذه القوميات متعايشة مع بعضها في اطار الاعتراف بحقوق الطرف الاخر، وهذه هي الميزة الاساسية التي تميز بها المجتمع الماليزي الذي ينصرف كل من فيه الى عمله الاساسي في اطار العمل المشترك لبناء البلد الواحد الذي يتعايشون فيه ويعملون بإخلاص في انجاز

اعمالهم وعدم الانشغال بقضايا جانبية.

2-1 الديانات:

بالنسبة للديانات في ماليزيا متعددة، كما هو الحال بالنسبة للقوميات ولكن النسبة الاكبر للمسلمين ولذلك تعد ماليزيا دولة اسلامية وانضمت الى منظمة المؤتمر الاسلامي والجدول رقم (2) يبين عدد الديانات ونسبة كل منها، ويظهر الجدول حصول زيادة في عدد المسلمين حيث كانت نسبتهم اواسط الثمانينيات 54٪ في حين يظهر زيادة بنسبة 6٪ وهذه الزيادة كانت على حساب الاديان الاخرى.

جدول (2)

عدد الديانات في ماليزيا

الديانة	النسبة المئوية ٪
الاسلام	60.3
البوذية	19.2
المسيحية	9
الهندوسية	6.3
الكونفوشية والطاوية	2.6
اخرى الاحيائية والدين الشعبي والسيخ	1.5
لا دينيون	0.9
المجموع	٪100

لكوميديا/ الموسوعة الحرة

ان هذا التنوع في الديانات الماليزية لشعب متعدد القوميات والاعراق والديانات، لم يؤثر في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لهذا الشعب المتعايش على اساس الهوية الوطنية الموحدة وهي الهوية الملاوية التي تتجاوز كل الاختلافات والثقافات القائمة على اساس الاعتراف بحقوق الطرف الاخر ولذلك تنعدم في هذا المجتمع المشكلات المتسببة عن تعدد القوميات والاديان.

2- العراق:

جمهورية العراق تقع في غرب القارة الاسيوية وتطل على الخليج ويصل عدد سكان العراق ولسنة 2011 حوالي (32) مليون نسمة وهو خليط ومتنوع من القوميات والاعراق والاجناس والاديان وفيه قوميتان رئيسيتان هما القومية العربية والقومية الكردية. وهناك قوميات اخرى كالتركمان والارمن والشركس وهناك اكراد من تركيا وعرب من فلسطين ومن سوريا ومصر والسودان ومن عرب الاهواز. وقد نصت المادة (3) من الدستور العراقي على تعدد القوميات والاديان والمذاهب حيث جاء فيها – العراق بلد متعدد القوميات والاديان والمذاهب، كما ضمنت الفقرة ثانيا من المادة (2) من الدستور الحقوق الدينية لجميع الافراد في حرية العقيدة والممارسة الدينية للطوائف والديانات غير الاسلامية. (الدستور،2005)

2-1 القوميات:

توجد في العراق كما اشير القوميتان الرئيستان العربية والكردية اللتان تتراوح نسبتهما بين (75٪-80٪) للقومية العربية و (15٪-20٪) للقومية الكردية، اما باقي الاقليات او القوميات الاخرى فهي تشكل 5٪ وهذا يشير الى عدم وجود احصائية دقيقة (CIA) وقد تعايشت هذه القوميات عبر

التاريخ مع بعضها متآخية ومتزاوجة من بعضها، وليس هناك اية اشكالات بل هناك مصاهرة بين هذه القوميات مما زاد اواصر التآخي والتعاون بينها وعاش الجميع من ابناء هذه القوميات شركاء في هذا الوطن دون اشكالات عدا ما قامت به الحكومات المتتالية من مساس بحقوق البعض من القوميات كما حصل مع ابناء الشعب الكردي حيث عانى الاكراد من حروب قاسية وتهجير من مناطق سكناهم الى اماكن متفرقة من العراق. ويوضح الجدول رقم (3) التركيبة القومية للسكان في العراق ولا يبدو للقارئ ان هذه الاحصائية دقيقة ويتضح ذلك من عدم التأكيد على النسب المحددة.

2-2 الأديان:

تتعدد الأديان في العراق ولكن الغالبية

جدول (3)
التركيبة القومية للسكان في العراق

القومية	النسبة ٪
العربية	80-75
الكردية	20-15
القوميات الاخرى	5
المجموع	100

المصدر: كتاب الحقائق لـ CIA الشبكة الدولية.

هي للديانة الاسلامية والتي تشكل نسبة 97٪ اما باقي الاديان فهي تشكل ما نسبته 3٪ والتي تشمل المسيحية بكل مكوناتها والايزيدية والصابئة والسريان والآشوريين- الكلدان. وقد شكل هذا التنوع القومي والديني للشعب العراقي تشكيلة تجانست في علاقاتها على مر السنين ولكل ابناء قومية او دين خصوصياتهم وطقوسهم المصونة والمضمونة وممارستها بكل حرية.

3- كندا:

تعد كندا ثاني اكبر بلد من حيث المساحة في العالم اذ تبلغ مساحتها (9.976.139) كم2 وتقع في القسم الشمالي من امريكا الشمالية ويحيط بها المحيط الاطلسي من الشرق والمحيط الهادئ من الغرب والمنجمد الشمالي من الشمال وصل تعداد السكان الى حوالي (34) مليون نسمة وتتكون من 13 ولاية ومقاطعة ونظامها ملكي دستوري وتابعة للتاج البريطاني ويمثل بحاكم ولها مجلس برلماني هو (مجلس العموم) الذي يضم (282) عضواً (وزارة الخارجية العراقية، 1988). وهي متأثرة الى حد ما بالنظام السياسي والاقتصادي للولايات المتحدة الامريكية الا انها تتميز عن جارتها امريكا ثقافيا وواقعيا وتميزت ايضا بالاستقرار السياسي (Palnaion.org/vb/show thread/php,).

3-1 القوميات:

تستقبل كندا سنويا أعداداً من المهاجرين وصل عددهم الى 2.2 مليون نسمة بين الفترة من 1991-2000 ولم تتوقف الهجرة اليها إلا أن الاعداد متباينة وكانت غالبية المهاجرين من أوروبا إلا أن نسبة الاوربيين المهاجرين تضاءلت في السنوات الاخيرة في حين تزايدت هجرات من دول اخرى منها دول اسيوية وشرق اوسطية. واللغات

السائدة رسميا هي الإنكليزية والفرنسي، وتتوزع الاصول العرقية فيها الى249 عرقاً مختلفاً وتتغير نسب الاعراق فيها بتزايد قوميات على حساب اخرى ولكن تشير الاحصائيات الى وجود حوالي (60) قومية.

3-2 الأديان:

تشهد كندا تنوعا دينيا فريدا كما هي حالة التنوع القومي فيها. وقد اعلن حوالي 83.3٪ من الكنديين انتماءهم الى واحد من 33 من الاديان في البلاد الا ان الملاحظ هناك تزايد في اعداد المسلمين المهاجرين خاصة من دول الشرق الاوسط وكذلك زيادة في اعداد الهندوس والسيخ والبوذيين، ويشكل هؤلاء من اصحاب الديانات من غير المسلمين حوالي 23٪ من اجمالي السكان. كما تشير الاحصائيات الى ان 38٪ من السكان لهم اصول اثنية متعددة وكان احد اسباب ذلك الولادات من زيجات مختلفة ومن مختلف الاعراق (PalnIon.org/vb/show).

4- مدينة مانينجهام:

4-1 القوميات:

سكان هذه المدينة من قوميات واطياف متعددة ويصل عدد سكانها الى حوالي 112 الف نسمة ومن هذا العدد تصل نسبة من هم من خارج المدينة 34٪ ومن مختلف دول العالم ليصل عدد هذه الدول الى حوالي 140 بلدا وحوالي 50٪ او اكثر من ذلك من سكان المدينة احد ابويهم مولود في الخارج لكن الاكثر هيمنة بسبب اصولهم هم من انكلترا والصين وايطاليا واليونان وايرلندا واسكتلندا وبعض الجاليات آتية من ايران وكوريا والفلبين. غير أن الجاليات الاكثر تأسيسا والتي تنمو بشكل متزايد هي من الصين وماليزيا والهند وجنوب افريقيا، وفي سنة 2009 كان حوالي 43٪ من المهاجرين استطاعوا الاستقرار في هذه المدينة بموجب تأشيرة لم الشمل و2٪ بسبب تأشيرات انسانية و55٪ بموجب تأشيرة هجرة المهارة.

4-2 الأديان:

تعددت الاديان كما تعددت القوميات في هذه المدينة ولذلك فيها اكثر من 25 ديانة ومعتقداً دينياً وابرزها الديانات المسيحية والبوذية والاسلامية والهندوسية واليهودية وبنسب متباينة ((www.manningham.vic.gov.au/diversity ورغم التعدد الديني الواسع الا ان جميع اصحاب الديانات المختلفة والمتباينة في معتقداتها ومبادئها واصوها الدينية متعايشة مع بعضها البعض في اطار من الاحترام المتبادل بين جميع الديانات.

ثانيا-التعددية الثقافية:

ا- الثقافة: تعرف الثقافة من وجهة نظر الأنثروبولوجيا بانها " التراث الاجتماعي" (الساعاتي،1977) وتعرف ايضا بانها (ذلك المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والاخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في المجتمع (وصفي،1977) وتعرف بانها الأفكار والعادات والتقاليد والنظم والمؤسسات وكل ما توفر للإنسان والمجتمعات البشرية عبر السنين (عوض اللّه، 2012). وبناء على هذه التعاريف يمكن

ان تكون الثقافة اسلوب حياة المجتمع فهي تعم مجمل التراث الاجتماعي للمجتمع الذي يشتمل على التراث الحضاري والتاريخي وما صنعته المجتمعات عبر التأريخ من ملاحم تاريخية في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والعلمية والثقافية وترتبط ثقافات الشعوب بالحاجات الاساسية التي يحتاج اليها الافراد في المجتمع ولذلك تسعى ثقافة كل مجتمع الى تأمين هذه الحاجات وتتجاوز ذلك الى التمييز بين الشعوب من خلال ابراز الموروثات الحضارية والتاريخية في مختلف العلوم والميادين. وتبعا لذلك تختلف ثقافة شعب عن اخر وفقا لاختلاف الظروف البيئية بكل مكوناتها المناخية والاقتصادية والسياسية، والثقافة دائمة التغير من خلال ما تضيفه الاجيال المتعاقبة من تراث ثقافي وحضاري (الساعاتي، 1977). فكثيرا ما أضاف الافراد من مبرزات ثقافية لمجتمعاتهم سواء من العلماء والمفكرين وفي مجال الثقافة والادب بكل مكوناته فكان هناك علماء وفلاسفة ومفكرين لهم نظرياتهم وطروحاتهم الفكرية والفلسفية التي اثرت في الثقافة المجتمعية وفي ثقافات الشعوب الاخرى التي تأثرت بهذه النظريات. وللثقافة خصائص عديدة أبرزها انها انسانية ويعني ذلك ان الثقافة مرتبطة بالإنسان (وصفي، 1977) ككائن عاقل يستطيع بما لديه من عقل وافكار وطروحات ان يتعامل كانسان مثقف بطريقة عقلانية وراشدة في ممارسة السلوك العقلاني الرشيد في التعامل مع الغير. وهذا ناتج عن ان الثقافة هي افكار يخترعها العقل البشري وينفذها الانسان بالأدوات او الوسائل التي يمتلكها وبالتالي فان الثقافة هي التراث الحضاري والثقافي لفئة او مجموعة من الناس او شعب بذاته او بعينه والذي يمكن التعبير عن مدلولات ثقافته الخاصة بهذه الجماعة.

1- مفهوم التعددية الثقافية :

يشير بعض الكتاب الى ظهور مصطلح التعددية الثقافية في الولايات المتحدة الامريكية في الثمانينيات للإشارة الى مجتمع مثالي تتعايش فيه الثقافات باختلاف اصولها(غاليوتي، 2012). ومعلوم ان المجتمع الامريكي ليس مجتمعا مثاليا وان هناك تمايزا بين الثقافات المتواجدة في هذا المجتمع و ما حصل ويحصل بين الحين والأخر من نزاعات مجتمعية داخل المجتمع الامريكي دليل على هذا التمايز بين الثقافات المتواجدة في هذا المجتمع.

وجاء في مسودة استراتيجية مجلس بلدية مدينة مانينجهام حول التنوع الثقافي للفترة 2010-2013 تعريفا للتعددية الثقافية بانها "مفهوم واسع يعترف بحق الجميع في التمتع بتراثهم الثقافي والحق في المساواة في المعاملة والفرص لكل فرد بصرف النظر عن خلفياتهم الثقافية او الدينية او اللغوية او العرقية"(www.manningham.vic.gov.au/diverity). وعرفت هذه الاستراتيجية التنوع الثقافي بانه "الاحتفال بالثقافات المختلفة الكثيرة في مجتمعنا التي يعبر عنها من خلال اللغات والتقاليد والديانات واللباس والفنون والرقص واسلوب الحياة" اي ان مجتمع المدينة وبإدارة مجلس البلدية يؤكد مشاركة مختلف الاطياف في مجتمع المدينة بالمناسبات الاحتفالية للقوميات والاطياف المتواجدة في المدينة والمحتفلة كل بالمناسبة

التي تخصها وهذا يعني الاعتراف بالطرف الاخر وبالتالي فان الاعتراف بحقوق الاطراف المتعايشة في مجتمع واحد في ممارسة ثقافاتها بالوسائل والاساليب التي تراها مناسبة، وسيؤدي ذلك الى تعميق التماسك الاجتماعي نحو تعميق الوحدة الوطنية، وان تماسك الوحدة الوطنية يعد الأساس نحو الاستقرار السياسي والاجتماعي. وقد اكد الاعلان العالمي لليونسكو بشأن التنوع الثقافي في مواده الاثنتي عشرة على التنوع الثقافي والتعددية الثقافية، حيث اشارت المادة الاولى من الاعلان المذكور الى ان التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية وينبغي الاعتراف به والتأكيد عليه لصالح اجيال الحاضر والمستقبل. وجاء في المادة الثانية من هذا الاعلان ان التعددية الثقافية هي الرد السياسي على واقع التنوع الثقافي وان هذه التعددية لا يمكن فصلها عن وجود اطار ديمقراطي، حيث تعمل على تسهيل وتيسير المبادلات الثقافية وازدهار القدرات الابداعية التي تغذي الحياة العامة ووفق هذا التأطير تحتاج التعددية الى الديمقراطية بالقول والفعل. اي لا يتحدث الحاكم عن الديمقراطية ولا يعمل بها بل يجب خلق البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتيح لهذا التعدد القومي والديني ممارسة طقوسه واحياء المناسبات الخاصة بكل مكون من المكونات القومية والدينية دون اشكالات من اي جهة، بل يفترض ان تشارك المكونات الاخرى في احياء المناسبات الخاصة به لانهم شركاء في وطن واحد لا ينفصل عن احترام كرامة الانسان فهو يفترض الالتزام باحترام حقوق الانسان والحريات الاساسية كما جاء في المادة الرابعة من الاعلان. فالحقوق الثقافية جزء لا يتجزأ من حقوق الانسان التي هي حقوق عالمية ومتلازمة ومتكافلة. ويقتضي ازدهار التنوع المبدع الإعمال الكامل للحقوق الثقافية كما جاء في المادة (27) من الاعلان العالمي لحقوق الانسان والمادتين(13) و(15) من العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد جاء الإعلان عن اليونسكو في دورة اجتماعها الحادي والثلاثين واكدت المنظمة قناعاتها بان الحوار جاء في ظروف غير اعتيادية اذ اعقب احداث 11 ايلول 2001 حيث كان نتاج اجتماع الثقافات وهو افضل ضمان للسلام ورفضها للقائلين بحتمية النزاعات بين الثقافات والحضارات. وفي هذا تأكيد اخر على اهمية الحوار بين الثقافات والحضارات وفق قاعدة التفاهم المتبادل واحترام الاخر، حيث ان مشكلة الانسان كانت ومازالت انه لا يقبل الاخر شريكا له وقد يؤدي التخندق الطائفي او المناطقي او الحزبي او القومي او الديني باي شعب الى الهاوية اذا تنامى هذا التخندق بكل انواعه.(الاتروشي، 2012).

واصبح اعلان اليونسكو الذي يحارب مظاهر التقوقع والانغلاق المبنية على الاصولية، بتعميم منظور للعالم اكثر انفتاحا وابداعا وديمقراطية، يعد وثيقة تأسيس لفلسفة اخلاقية جديدة عملت اليونسكو على نشرها في القرن الحادي والعشرين www.pncecs.org./ar/unesco/cultura

2- مقومات التعددية الثقافية:

ان مقومات التعددية الثقافية والتنوع

الثقافي تعد حافزا او دافعا لبناء بيئة ثقافية متنوعة تتعدد فيها الثقافات وتتعايش على وفق الاسس الداعمة والمؤيدة لممارسة الثقافات المتعددة لتقاليدها وسياقاتها المعروفة في التعبير عن الافكار والآراء والطروحات التي ترى كل ثقافة انها تعبر عنها كثقافة قائمة بذاتها ولها استقلاليتها بالضد من الهيمنة الثقافية وعدم المساواة الاجتماعية اللذين ظهرا كنتيجة حتمية لسياسات الاندماج التقليدية التي عارضتها الاقليات المتضررة متبنية لمواقف تؤكد خصوصيتها واحتفاظها بالجذور الثقافية المغايرة لثقافة الهيمنة والثقافة المهيمنة (غاليوتي،2012).

ثالثا-العولمة وتحديات التنوع الثقافي

تتنوع مديات العولمة ومؤثراتها فهناك عولمة اقتصادية وعولمة سياسية وقد برزت لهذين النوعين فيما سلكته من سياسات مدعومة من دول المركز التي ظهرت فيها دعوات العولمة بمدياتها المتعددة. وكان لك من العولمة السياسية والاقتصادية ممارساتها ومؤثراتها في كل من أفغانستان والعراق وتونس ومصر اليمن وليبيا. وتبعا لذلك كانت العولمة الاقتصادية، حيث ان السياسة والاقتصاد عنصران مترابطان اذ قال احد الفلاسفة عن هذه العلاقة (السياسة اقتصاد مركز) وهذا يعني ان الحديث في السياسة بالمقابل هو حديث بالاقتصاد و هذا الارتباط بين واضح.

اما العولمة الثقافية فعي تعني فرضاً او ترويجاً لثقافات معينة على ثقافات اخرى وحيث ان الاختلاط بين الثقافات والتعامل مع بعضها الآخر له سمة مؤثرة في الاستفادة من الثقافات التي يتم الاختلاط بينها واخذ ما هو ايجابي وينسجم مع ثقافة المجتمع لا ينبغي للثقافات ان تذوب في الثقافات الاخرى ولا سيما الثقافات القادمة وانما الاستفادة من الاختلاط بهذه الثقافات مع المحافظة على الخصوصيات والثقافات الفرعية. ويعد التنوع مصدر اثراء للمشروع الثقافي العالمي (عوض اللّه، 2012) وبالتالي فان تنشيط جهود الثقافات المتعددة يصب في توحيد هذه الجهود لخلق ثقافة عالمية واحدة ويعني ذلك وجود سمات مشتركة لهذه الهويات الثقافية الفرعية، وليس الانصهار في الثقافات الاخرى. لذا فان هذا التنوع الثقافي بحاجة الى الحفاظ على خصوصية كل ثقافة بمفردها ضمن تعددية متوازنة .

رابعا:

أ. الخلاصة والاستنتاجات

الهوية الوطنية هي انتماء الفرد الى وطنه الذي ينتمي اليه اصلا والناتج عن انتمائه الى عائلته وعشيرته او قبيلته تاريخيا وهو ايضا انتماء للأرض التي تشكل واحدة من اهم مقومات الوطن وفي الوطن الواحد تسكن قوميات وأديان ومذاهب متعددة. ورغم اختلافهم في الاصول القومية او الدينية الا انهم ابناء وطن واحد لهم ذات الحقوق وعليهم ذات الواجبات، مما يعد محفزا للتعايش والتسامح القومي والديني والاجتماعي بما يؤدي الى خلق مجتمع فسيفسائي ويسهل تحقيق الاستقرار السياسي والامني ويحقق توجهات تنموية وتطويرية للمجتمعات. ويمكن ايجاز اهم

الاستنتاجات كما يأتي :

1- يعد العراق من الدول متعددة القوميات والاعراق والديانات ولا ينفرد العراق بهذه الخاصية وانما هناك العديد من الدول التي تشاركه في هذه الخاصية.

2- تتعايش القوميات والديانات في الدول التي تتواجد فيها التعددية القومية والدينية كمكونات اجتماعية على اساس التسامح في كل الاتجاهات والمجالات.

3- ان التعددية القومية والدينية المتعايشة بسلام ينتج عنها الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

4- ان تعايش القوميات والديانات المتعددة في سلام ووئام يدفع الى التعددية الثقافية والمشاركة في تقاليد وطقوس القوميات والديانات الاخرى.

5- تضمنت التشريعات القانونية لبعض الدول ضمان حقوق الديانات والأعراق وحقها في ممارسة طقوسها وتقاليدها.

6- الاعتراف بالآخر على أساس الوحدة الوطنية بين الاطراف الاخرى سهل اقامة العلاقات بين الجميع بما ينعكس بشكل ايجابي على مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ب- التوصيات

1- عقد مؤتمرات وندوات تثقيفية تتضمن شروحات على مسار التنمية الثقافية والاجتماعية.

2- تضمين التشريعات القانونية تأكيدات على حقوق الاقليات القومية والديانات الاخرى.

3- تسهيل وتمكين القوميات والديانات من نشر ثقافاتها في مختلف وسائل الاعلام والنشر المتعددة.

4- تأسيس دار نشر للديانات والقوميات واعطاؤها الفرصة في نشر ثقافاتها.

التخلي عن سياسة التهميش والاقصاء المستندين الى القوميات والديانات.

المصادر

1- دستور جمهورية العراق لسنة 2005.

2- ابراش، ابراهيم (دكتور)، الفكر العربي ومسألة الهوية في عصر العولمة الثقافية، جامعة الازهر،القاهرة، جمهورية مصر العر بي'، الشبكة الدولية،2012.

3- لكوميديا، ويل، Multicultural Odysseys: Navigating the New International Politics of Diver-sity WILL.KYMLICKA, ترجمة د.امام عبد الفتاح امام،2011.

4- لكوميديا، الموسوعة الحرة.

5- كتاب الحقائق، . CIA

6- الساعاتي. سامية حسن (دكتور) الثقافة والشخصية، بحث في علم الاجتماع الثقافي، ط١، مطبعة جامعة عين شمس، جمهورية مصر العربية،1977.

7- وصفي، عاطف، (دكتور) الثقافة والشخصية، ط٢، دار المعارف، جمهورية مصر العربية، 1977.

8- عوض اللّه، عصام الدين برير ادم، (دكتور) دور التعليم في حماية التنوع الثقافي في ظل العولمة، مع الاشارة الى السودان، 2012 ، الشبكة الدولية.

9- غاليوتي، لشبكة الدولية، 2012.

10- الشبكة الدولية، . WWW.manning han.vic.gov.au/ diversity

11- الأتروشي، فوزي، التنوع الثقافي طريق التنوع الحضاري، مجلة الشرارة، العدد، 69، 2012.

12- الشبكة الدولية.. http//: www.prices. 0rg/ar /unesco/culture.

13- الوردي، علي (دكتور)، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الاول، مطبعة الاديب البغدادية، بغداد، 1969.

14- وزارة الخارجية العراقية، دليل العالم، بغداد، 1988.

15- عوض اللّه (دكتور) عصام الدين برير ادم، دور التعليم في حماية التنوع الثقافي في ظل العولمة مع الاشارة الى السودان، الشبكة الدولية، 2012.

العلاقة بين أتباع الديانات في العراق في القرون الأولى للإسلام

د.جعفر هادي حسن

د. جعفر هادي حسن من مواليد العراق حاصل على البكلوريوس والماجستير في الدراسات العربية من جامعة بغداد، كما انه حاصل على البكلوريوس (شرف) في اللغات السامية (العبرية ،الآرامية ،السريانية ، الفينيقية) من جامعة مانشستر- بريطانيا وعلى الماجستير والدكتوراه في اللغة العبرية والدراسات اليهودية من جامعة مانشستر أيضا. درّس في جامعة البصرة وجامعة الملك عبد العزيز وجامعة مانشستر(لطلاب البكالوريوس والدراسات العليا) وجامعة سالفورد(دراسات عليا) وجامعة مغيل والجامعة العالمية للدراسات الإسلامية- لندن. مدير مركز اللغة العربية- لندن لعشر سنوات.

(سيكون الحديث في ورقتي هذه مقتصرا على علاقة اتباع الأديان مع بعضهم البعض وليس عن تعامل الدولة معهم).

تحاول هذه الورقة أن تستشهد ببعض الأمثلة، من تاريخ المجتمع العراقي، لتستدل بها على وجود علاقة طبيعية بين أتباع الأديان المختلفة في قرون خلت. وقبل عرض هذه الأمثلة من المفيد أن نقول إنه على الرغم من تنوع مكونات هذا المجتمع وأديانه، فإن أتباع الأديان، لم يفضلوا العيش في أماكن معزولة، كما كان حال اليهود في أوربا مثلا ، بل كانوا يعيشون بحرية وانفتاح على الآخرين. صحيح أننا نقرأ أحيانا عن وجود حارات خاصة ، ولكن العيش فيها لم يكن اضطرارا بل كان خيارا لأصحابها، وكثيرا ما كان لظهورها أسباب دينية. إضافة إلى أنها لم تكن مغلوقة على سكانها، ولاممنوعة على الذين يعيشون خارجها. ولذلك أصبح الإختلاط والتفاعل مع الآخر، والإلفة لمعتقداته هي السمة السائدة بين أتباع هذه الأديان.

وكان لهذا التفاعل مظاهر عدة في الحياة، تكوَن منها نسق عام، وما كان يحصل خارج هذا النسق، إنما كان استثناءً للقاعدة، وخارج نمط العلاقة الطبيعية.

وكان من هذه المظاهر، توثق العلاقات الإجتماعية بين هؤلاء العراقيين من صداقة وتزاوج، وحضور الاحتفالات والمناسبات الدينية وغير الدينية. وقد كان المسلمون يتطلعون إلى حضور هذه الإحتفالات والمشاركة فيها، وللشعراء المسلمين بعض الشعر في ذكرها، أشارت إليه كتب الأدب والتاريخ. فهم كانوا يحتفلون مع المسيحيين في عيد اسمه يوم السعانين (أو الشعانين)، حتى قال أحد الشعراء المسلمين:

حبذا يوم السعانين وما
نلت فيه من نعيم لو يدوم

كما كانوا يخرجون إلى الأديرة بأعداد كبيرة لمشاركة المسيحيين مناسباتهم. بل إن العلاقة بين أتباع الأديان قد وصلت أحيانا إلى مستوى الصداقة الوطيدة. فمن ذلك مايذكره الجاحظ أن أبا الطمحان الأسدي كان نديما لأناس من بني الحدَاء وكانوا نصارى حمد منادمتهم فقال:

بنو الصَلب والحداء كل سميدع
له في العروق الصالحات عروق
وإني وإن كانوا نصارى أحبهم
ويرتاح قلبي نحوهم ويروق

وقد عُرف أبو اسحق الصابئ بصداقته الوطيدة، مع اثنين من شخصيات المسلمين المثقفة المعروفة، كما يذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء، فكان بين الصابئ وبين الصاحب اسماعيل بن عباد الوزير، مراسلات ومواصلات، وكذلك بينه وبين الشريف الرضي مودة ومكاتبات. ثم يضيف ياقوت "وكان هذا مع اختلاف الملل وتباين النحل". وكان الرضي قد رثا أبا أسحق بقصيدة عصماء عندما توفي، كان مطلعها:

أعلمت من حملوا على الأعواد
أرايت كيف خبا ضياءُ النادي

وكان من ابياتها

إن لم تكن من أسرتي وعشيرتي
فلأنت أعلقهم يدا بودادي

وقال الشاعر ابن عبدل أو غيره في مجوسي ساق عنه صداقا (ساعده على دفع صداق زواج)

كفاني المجوسي مهر الرباب
فدى للمجوسي خالي وعم

هذه مجرد أمثلة قليلة على العلاقة الإجتماعية الطبيعية بين أتباع الأديان، وربما كان هناك غير هذه مما لم نطلع عليه، أو لم يصل إلينا. ومن مظاهر قبول الآخر والإنفتاح عليه، ما كان يحصل في مجال الدراسات العلمية، حيث كان أتباع الأديان المختلفة يدرسون على أيدي أتباع أديان أخرى، فنحن نقرأ أن المسيحي يحيى بن عدي، الذي وصفه ابن أبي أصيبعة، بأنه كان مترجما وناسخا ومنطقيا، ومعه المسيحي متى بن يونس، الذي انتهت إليه رئاسة المناطقة في عصره، كما تذكر المصادر، يدرسان على يد الفيلسوف المسلم أبي نصر الفارابي، وكانت ليحيى بن عدي حلقة درس يحضرها التوحيدي وغيره، كما يذكر هو في كتابه

"الإمتاع والمؤانسة". ونقرأ أن الطبيب المسلم عيسى بن على، كان قد قرأ على يد المسيحي حنين بن اسحق، وأن ثابت ابن قرة الصابئي كان قد درس على يد المسلم محمد بن موسى من أولاد شاكر، وأن عيسى بن أسيد العالم المسيحي، الذي كان مترجما من السريانية إلى العربية، كان يدرس على يد ثابت بن قرة، وكان ثابت كما تذكر المصادر يقدمه ويفضله، وكتب له كتابا بعنوان جوابات ثابت لمسائل عيسى بن أسيد. وكان المجوسي علي بن العباس الطبيب المعروف يدرس على يد موسى بن يوسف بن يسار. وأكثر مايمثل هذا الإنفتاح في المجال العلمي، هو ماذكر عن أبي الفرج عبد اللّه الطيب، الذي وصف بـ "الإمام الفيلسوف العالم، الذي كان كاتبا للجاثليق ومتميزا في النصارى ببغداد " كما يقول ابن أبي اصيبعة، والذي كان الشيخ الرئيس ابن سينا يحمد كلامه في الطب، يُدرِس تلامذة كانوا خليطا من أديان مختلفة، مثل المسلم أبي الحسين البصري (المتكلم والطبيب المعروف) وزهرون، وعلي بن هلال الصابئيين، وابن بطلان المسيحي، والأمثلة على ذلك كثيرة. كما درس بعض اليهود النحو على أيدي النحاة المسلمين، وأصبح بعضهم معروفا بهذا الإختصاص، بل ألف بعضهم كتبا في هذا العلم، مثل النحوي هارون بن الحائك الضرير (كان بعضهم تحول إلى الإسلام في ما بعد). ومن مظاهر هذا النسق العام ما كان يحصل في مجالس المناظرات بين أتباع الأديان والمذاهب ، والتي كانت تعقد في العراق، في البصرة وفي بغداد. فصاحب الأغاني يروي أنه كان في مسجد البصرة حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات (المعتقدات) والجدل فيها، وعرف عن المعتزلة، أنهم كانوا يجادلون المسيحيين واليهود والمجوس. وكان أبو اسحق الكندي الفيلسوف يناظر ابن الراوندي، الذي كان يتهم بعقيدته، وناظره ايضا مجموعة من العلماء في بغداد منهم الصالحي وابو عيسى وابو العباس الناشئ. وعندما كان الجاحظ يخرج للدراسة في مسجد البصرة، كان يلتقي بابن ماسويه وسلمويه وحنين بن اسحق وشمعون الطبيب من أتباع الديانات الأخرى. وبغداد خاصة كانت معروفة بمجالس المناظرة والجدل. إذ يذكر لنا التوحيدي في بعض كتبه، أن هذه المجالس كانت تعقد ليس في البيوت الخاصة حسب ، وإنما كانت في بعض الأماكن العامة مثل سوق الوراقين في بغداد، وكان يحضرها بعض العلماء ممن كان يفد على بغداد. ولم يقتصر حضور هذه المناظرات على من كان يؤمن بدين فقط، بل كان يحضرها ممن لا يؤمن بدين، ممن كانوا يسمون الدهريين والطبيعيين وغيرهم. وقد وجدت عالمين يحكيان تجربتهما الشخصية في هذه المجالس، أحدهما يهودي، معروف بين اليهود، وله أكثر من مؤلف باللغة العربية، وهو أبو يعقوب يوسف البصير من القرن العاشر الميلادي، الذي يعتقد أنه كان عراقيا، والذي كان معروفا بمناظرته لأتباع الأديان الأخرى، وهو يذكر عن مجلس اجتمع فيه مع بعض العلماء المسلمين، فيقول أنه بعد نقاشه معهم شعر بالتعب والانهاك، فطلب منهم أن يرتاح لوحده منفردا، ثم يرجع للنقاش، فعزل نفسه في مكان منفرد ثم صلى ودعا أن يثبت

اللّه أقدامه وقرأ عبارة من المزمور 119 التي تقول "ثبت خطواتي في قولك فلا يتسلط علي من الإثم شيْ" كي تساعده في نقاشه، ثم رجع إلى مجلس النقاش، وهو أكثر ثباتا وعزيمة كما يقول. وهو لم يذكر لنا عما انتهى إليه النقاش سوى قولِه عن مناظريه، بأن لغتهم كانت بليغة وجميلة. والبصير كان يجيد العربية ، وكتب أكثر مؤلفاته بها ومنها كتابه المعروف في قضايا علم الكلام "المحتوي". والمجلس الآخر يذكره الحميدي المؤرخ عن عالم أندلسي، اسمه أبو عمر أحمد بن محمد بن سعيدي جاء إلى زيارة بغداد. ويذكر لنا هذا العالم شيئا عن طبيعة هذه المجالس ببعض التفصيل. حيث يقول أنه عندما رجع إلى الأندلس بعد زيارته العراق، سأله الناس عما إذا كان قد حضر بعض مجالس المتكلمين، فقال نعم لقد حضرت مجلسين من هذه المجالس، ورفضت أن أحضر في مجلس ثالث، وعندما سئل عن السبب قال لهم ستعرفون السبب وأرجو أن تفهموه. فقد حضرت المجلس الأول ولم يكن الحضور فقط من أتباع المذاهب الإسلامية، بل كان الحضور أيضا من بقية الأديان من الصابئة واليهود والنصارى والدهريين والملحدين، بل من مختلف المعتقدات غير الدينية. وكل مجموعة من هؤلاء، كان يرأسها شخص مهمته أن يتكلم بالنيابة عنها ويدافع عن آرائها. وفي كل وقت كان يدخل أحد هؤلاء الرؤساء يقوم له أتباعه احتراما ولا يجلسون إلا أن يجلس هو، حتى أصبح المجلس مزدحما بالناس. ثم قام شخص من غير المسلمين، وخاطب الحاضرين بالقول، نحن جئنا هنا للنقاش والشروط معروفة للكل، فأنتم المسلمون لا يحق لكم أن تستدلوا على عقيدتكم من كتبكم، ومن سنة نبيكم، لأننا ننكر كليهما ولذلك على كل شخص أن يستدل بأدلة عقلية، ووافقه الحاضرون على ذلك. ويقول هذا العالم وبعد أن سمعت هذا الكلام قررت أن لا أحضر مجلسا آخر. وعندما أخبرتهم بذلك عرضوا علي أن أحضر مجلسا ثانيا في مكان آخر، وحضرت ولكن كانت الكارثة نفسها.

وقد وُجدت بعض الشروط التي اشير إليها في النص أعلاه. فكان منها "أن يؤثر المناظِر التصادق، وينقاد للتعارف، وأن يكون الحق ضالته والرشد غايته"، وهذا الشرط يمثل هدفا ساميا، يتمثل ليس فقط في أن لا يكون هناك تصادم وعداوة بين المتناظرين، بل يؤكد التعارف والصداقة بين طرفي المناظرة. ومن مظاهر هذا النسق العام أن بعض الكتب التي ألفها من لم يؤمن بدين، أو في نقد الإسلام كانت تنشر، وتباع في الأسواق، وكانت معروفة للناس، ونحن نعرف هذا من تحذير المتدينين المتشددين لأبناء جلدتهم من شرائها وقراءتها والإطلاع عليها.وكان رجل الدين اليهودي سلومون بن يروحيم من القرن العاشر الميلادي ،الذي كان متشددا في تدينه، يحذر أبناء جلدته من الإطلاع على هذه الكتب والبحث عنها ويقول:

"إن من يتجول في المدن وفي الأسواق ،ويبحث عن العلوم غير الدينية في كتب الفلسفة، وكتب ابن الراوندي وابن سويد، التي لا تعترف بوجود اللّه، ولا بكتب الأنبياء والتوراة، فإن اللّه سيعذبه، ويكون مصيره جهنم إلى ابد الآبدين".

وابن سويد هذا هو عثمان بن سويد من

مصر، عاش في القرن التاسع الميلادي وألف بعض الكتب أحدها كتاب "مناظرات العلماء ومفاوضاتهم" وقال عنه ابن النديم، إنه كان معروفا بصناعة الكيمياء ورأسا فيها. كما يذكر لنا ياقوت الحموي في معجم الأدباء أن مكتبة الصاحب بن عباد كانت تضم بين كتبها كتب ابن الراوندي.

وقد ذكر عن أبي يعقوب البصير الذي ذكرناه أنه كتب رسالة في نقد الإسلام، وكذلك ألف سعد بن منصور بن كمونة كتابه "تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث" عن اليهودية والمسيحية والإسلام،والذي ضم نقدا للإسلام.

وكان من مظاهر هذا النسق العام ما تذكره لنا كتب التاريخ أن أفراد العائلة الواحدة في بعض الأحيان، انتموا إلى دينين مختلفين، وكانت العلاقة عادية بل طيبة بينهم ،فقد ذكر عن أوس، وكان رجلا يهوديا من بني قريضة أن امرأته قد أسلمت وهو لم يسلم ، وقد دعته إلى الإسلام فرد عليها بثلاثة أبيات من الشعر، قال فيها:

دعتني إلى الإسلام يوم لقيتها/ فقلت لها بل تعالَي تهودي

فنحن على توراة موسى ودينه / ونعم لعمري الدينُ دينَ محمد

كلانا يرى أن الرشادة دينُه / ومن يُهد أبواب المراشد يَرشدِ

وكان الفيلسوف والطبيب أبو البركات أوحد الزمان هبة اللّه (ناتنئل) (من القرن الحادي عشر) يهوديا وأسلم ، ولكن بناته الثلاث لم يسلمن وبقين على يهوديتهن وعشن معه ، وقد طلب من الخليفة مساعدتهن في الحصول على إرثهن بعد وفاته. وهذا في ما أرى يمثل سلوكا حضاريا متقدما للإعتراف بتعدد الأديان.

وهذه الأمثلة التي ذكرتها على قلتها (إذ التاريخ لم يسجل لنا كل ماحدث) يمكن أن نستدل بها على وجود نسق عام عاشه أتباع الأديان والمذاهب ، بروح يحكمها الإحترام ويقننها الإعتراف بالآخر وقبوله. وهو ما شهدناه في جيلنا الحاضر وعاصرناه في كل أنحاء العراق، والذي هو كما أرى امتداد واستمرار لما كان يحدث في القرون الماضية. ومانشهده اليوم من محاولات لتغيير هذا التركيب البنيوي للمجتمع العراقي، وتخريب العلاقة بين أتباع الأديان والمذاهب، إنما هو شيْ غريب على هذا النسق العام، وخارج عن مساره الطبيعي، الذي وضعت أسسه منذ القديم . ومن الضروري اليوم أن نؤكد بكل وسيلة سلمية متاحة، ليس فقط على أهمية بقاء هذه التعددية وضرورتها لاستمرار مجتمع آمن سليم، بل يجب التأكيد أيضا على نشاز مايحدث من حالات اضطهاد لأتباع دين من الأديان ،أو مذهب من المذاهب الدينية، أو تهميشهم أو تهجيرهم، أو فرض طريقة حياة عيش معينة عليهم ، والتي شهدنا بعضها في الفترة الأخيرة، لأن استمرار هذه المحاولات سيقود في النهاية إلى كارثة تمزق نسيج المجتمع وتدفع به إلى مستقبل مظلم . وبودي لو أن التربويين وواضعي المناهج الدراسية، يستفيدون من بعض هذه الأمثلة التاريخية ويُدخلون بعضها في مناهج المراحل الأولى من مدارسنا، لينشأ أطفالنا على تقبل الآخر، كما كان الوضع بالأمس.

السببية في التسرب من الدراسة

الدكتور محمود شمال حسن
كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

المقدمة:

بات واضحاً، أن تشغيل الأطفال في عمر مبكر، غالباً ما يدفع بهم إلى التسرب من الدراسة؛ وذلك يرجع إلى أن الأطفال غير قادرين على الجمع بين مقتضيات الدراسة والعمل في آن معاً؛ لأن الدراسة بحاجة إلى المتابعة والمتابعة لا تتحقق هنا، إلا بتوفر الوقت الكافي وهو شرط غير متاح للأطفال العاملين في الشوارع. كذلك، فإن الأطفال الذين يواصلون دراستهم، ينبغي أن يتمتعوا بالراحة البدنية؛ لكي يتمكنوا من متابعة واجباتهم المدرسية، وبطبيعة الحال، فإن المتابعة هذه، تقتضي بين ما تقتضي، صفاءً ذهنياً؛ لكي يساعد الأطفال على التأمل والتفكير، ومن ثم فهم المواد الدراسية والتمكن منها. بيد أن واقع الحال، يشير إلى أن الساعات الطويلة التي يصرفها الأطفال في العمل، تعرضهم إلى الإعياء والإرهاق، مما يؤثر ذلك في مسيرتهم الدراسية. إذ يأخذ حضورهم المدرسي بالتذبذب وعدم الانتظام، ناهيك عن انخفاض انجازهم الدراسي، مما يدفع بهم إلى الانقطاع عن الدراسة، ومن ثم تركها.

وتُشير البيانات التربوية إلى زيادة معدلات التسرب بين تلاميذ المرحلة الابتدائية وطلبة المرحلتين المتوسطة والثانوية. ففي عام 1990 بلغت نسبة التسرب لكل من المراحل الدراسية الثلاث على التوالي : 13.35٪ و 28.9٪ و 7.3٪(1)، ثم بعد ذلك أخذت هذه المعدلات بالزيادة. ففي عام 1991 سجلت نسبة التسرب في المراحل الدراسية الثلاث على التوالي: 16.41٪ و 36.8٪ و 10٪ (2). واذا طالعنا معدلات التسرب في السنوات اللاحقة، نجد أنها في زيادة مستمرة، فلقد سجلت نسبة التسرب في عام 1995 في المراحل الدراسية على التوالي: 14.16٪ و 42٪ و 10.7٪ (3)، في إشارة إلى أن غالبية الأطفال الذين تسربوا من الدراسة، انشغلوا مع أسرهم في تدبير سُبل المعيشة، وهو الأمر الذي أفضى إلى انقطاعهم عن الدراسة.

وهناك مؤشر آخر على انشغال الأطفال بتدبير سُبل المعيشة، ألا وهو ، نسبة الالتحاق بالدراسة، فلقد وجد، أن الأطفال الذين بلغوا السادسة من عمرهم، بلغت نسبة التحاقهم بالدراسة (59٪) وأن (41٪) منهم لم يلتحقوا بالدراسة (4)؛ وذلك يؤشر حقيقة لا بد من التسليم بها، ألا وهي، أن استمرار التدهور في الوضع المعيشي للأسر وغياب البرامج الكفيلة بتخفيف حدة الفقر في المجتمع، سيؤديان إلى

زيادة أعداد الأطفال العاملين في قطاعات مختلفة. وهذا بدوره، سيؤدي إلى زيادة نسبة الأطفال الذين لم يلتحقوا بالدراسة، مما يترتب على ذلك، زيادة نسبة الامية في المجتمع، في مقابل ذلك ، أن المجتمع سيشهد انخفاضاً واضحاً في أعداد النخبة المثقفة على المدى المنظور.

إشكالية السببية في التسرب من الدراسة:

بعد الإحاطة بالأوضاع الاقتصادية للتسرب من الدراسة، لا بد لنا من التركيز على الخصائص التي يتميز بها الأطفال المتسربون من الدراسة عن اقرانهم الذين يواصلون دراستهم.

إن المتتبع للصحيفة النفسية Psyhological profile للتلميذ المتسرب من الدراسة، يجد أنها تختلف كل الاختلاف عن الصحيفة النفسية للتلميذ الاعتيادي الذي يواصل مسيرته الدراسية بشكل منتظم. ولو تفحصنا هذه الصحيفة، نجد أنها تشتمل على عدد من الخصائص النفسية، وفي هذا السياق نشير إلى أهمها:

1- تشير الدراسات التي أجريت في هذا الصدد، إلى أن انخفاض الانجاز الدراسي، يعد إحدى الخصائص النفسية التي يتمتع بها التلميذ المتسرب من الدراسة (5).

وإذا نحن تحرينا عن أسباب انخفاض الانجاز الدراسي لدى التلميذ المتسرب من الدراسة، نجد أن بعضها يعود إلى غياب التشجيع الوالدي في الحث على التعلم؛ ولعل غياب التشجيع الوالدي، قد أضعف بدوره دافع التعلم، وإضعاف دافع التعلم يعني بين ما يعني، ان ثمة عدم اهتمام بالدراسة، وهذا سيؤدي بالنتيجة النهائية إلى النفور منها.

وهنا تكمن الخطورة! إذ أن نفور التلميذ من الدراسة، يعني انه مهيأ لتركها في أي وقت، شريطة أن تكون هناك بعض المحرضات التي تستثيره على تركها، من قبيل: التفكك الأسري والعمل خارج أوقات الدوام المدرسي وصعوبات دراسية يعاني منها جراء عدم فهمه بعض المواد الدراسية، وكذلك شعوره بعدم التقبل من جانب زملائه في المدرسة، إلى جانب أن ثمة رفاقاً آخرين له في الحي السكني أو في المدرسة نفسها يشجعونه على ترك المدرسة والانصراف إلى العمل والاهتمام به؛ وذلك تحقيقاً للأهداف التي يصبو اليها.

كما ان هناك أسباباً أخرى لانخفاض الإنجاز الدراسي للتلميذ المتسرب، المتعلقة بالاتجاهات الوالدية نحو الدراسة. فلقد تبين من الشواهد الميدانية، ان الاتجاهات السلبية التي يحملها الأبوان نحو الدراسة، قد تسهم في إضعاف دافع التعلم لدى الطفل؛ وذلك يرجع اساساً ، إلى أن هذه الاتجاهات اكتسبت عن طريق الاقتران الشرطي، أي اقتران الدراسة بصفات سلبية، مما أفضى بمرور الوقت إلى تكوين استجابة شرطية، مفادها: كراهية الدراسة والنفور منها.

وبذلك، فان غياب التشجيع الابوي في الحث على التعلم، فضلاً عن الاتجاهات السلبية التي يحملها الأبوان نحو الدراسة، قد يفضي الأمر إلى ضعف الإنجاز الدراسي لدى التلميذ وقد يؤدي ذلك بالنتيجة النهائية إلى كراهية المدرسة.

2- لقد وجد، أن التلميذ المتسرب من الدراسة يعيش في أجواء أسرية يسودها التوتر والخلاف وعدم التفاهم. والحقيقة أن المناخ الاسري المضطرب يعرض التلميذ إلى

القلق؛ وهذا بدوره يعطل لديه العمليات العقلية التي يعتمد عليها الانجاز، فيصبح عرضة للنسيان، أي عدم قدرة ذاكرته على الاحتفاظ بالأفكار أو المعلومات المطلوبة إلى جانب عدم قدرة ذاكرته على استدعائها في الوقت المناسب. كما يفقد التلميذ نتيجة تعرضه للقلق الناشئ ، جراء الخلافات والمشاحنات الأسرية، القدرة على ترتيب أفكاره في ذهنه (6)، وهو الأمر الذي يزيد من تشتت انتباهه وعدم قدرته على التركيز، وهذه الأجواء ربما تجعله عرضة لترك الدراسة في وقت مبكر أكثر من غيره الذين يعيشون في أجواء أسرية مستقرة.

3- كما يلاحظ، على التلميذ المتسرب من الدراسة أنه يفد من بيئة تعاني من الفقر والبؤس، مما يفضي إلى ترك الدراسة مبكراً والانخراط في سوق العمل؛ بهدف مساعدة أسرته في سد بعض احتياجاتها المعيشية.

نشير في هذا السياق، إلى أن الدراسات التي أجريت على المتسربين من الدراسة، كشفت أن الغالبية منهم، يفدون من بيئات فقيرة، فلقد وجد أن (37.5٪) من هؤلاء المتسربين على مستوى البلاد العربية، كانوا ينتمون إلى المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتوسط، في حين تنتمي البقية إلى المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني (7). كما توصلت المسوحات التي أجريت في البلاد العربية إلى نتيجة مماثلة أيضاً، إذ وجد أن أغلب الاطفال الذين لم يكملوا تعليمهم الدراسي، كانوا من اسر تنتمي إلى المستوى الاجتماعي- الاقتصادي المتدني (8).

إن من الواضح، ان أوضاع العسر الاقتصادي لأسرة المتسرب، لم تتح له فرصة المتابعة للمعرفة، فضلاً عن غياب التشجيع على مواصلة الدراسة، مما يفضي إلى التنفير منها. وبالمحصلة النهائية، ان التلميذ قد يجد الأجواء مهيأة لترك الدراسة، وقد تكون الفرصة مواتية أمامه لانضمامه إلى إحدى الثلل الجانحة أو احتراف مهنة معينة.

4- من المفيد الإشارة هنا، أن المدارس في الأحياء المزدحمة، أخذت تؤدي دوراً هامشياً، مما ترتب على ذلك، انها فقدت دورها التربوي ومن ثم عجزت عن تشكيل سلوك ابنائها بما يتناسب مع التوجهات الفلسفية التربوية السائدة، وان ثمة مؤشرات تثبت هذا الرأي. فلقد سجلت مدارس هذه الأحياء معدلات عالية في التسرب من الدراسة (9)، وطبقاً لتقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا لعام 1997، بلغت نسبة التسرب بين (20-30٪) في هذه الأحياء بمصر(10)، وفي الأردن بلغت بحدود (40٪)(11)، في حين وصلت هذه النسبة في اليمن إلى (50٪) (12)، وهي نسبة عالية إذا قورنت بنسب التسرب من مدارس البلاد العربية الأخرى. وإذا نحن بحثنا عن الأسباب التي تجعل مدارس هذه الأحياء مشجعة على التسرب، نجد أن تصميم البيئة المدرسية في هذه الأحياء يعد أحد العوامل التي اضعفت فعالية المدرسة. ولو أجرينا مسحاً لتصاميم المدارس في الأحياء المزدحمة، نجد أنها تدعو إلى التسرب، بل أنها لا تشجع التلميذ على الالتزام بمطالبها وواجباتها. فقد غدت حافلة بالتنبيهات التي تدعو إلى النفور، ابتداءً من ساحة المدرسة وانتهاءً بقاعة الدرس، فالصفوف الدراسية قد اكتظت بأعداد التلاميذ بأكثر من طاقاتها الاستيعابية، ولاسيما في مرحلة الدراسة الابتدائية. فلقد وصل معدل كثافة الصف الدراسي الواحد

إلى (54.1) تلميذ في مصر عموماً(13)، في حين بلغ معدل كثافة الصف الدراسي في المدارس الابتدائية باليمن إلى (60) تلميذ (14)، وبموجب الكثافة العالية في هذه الصفوف، فان المتوقع أن تكون مكاناً غير مناسب بالمرة؛ لأن يقضي فيه التلميذ وقتاً قرابة نصف النهار، وهو يؤدي فيه عملية التعلم.

والجدير بالإشارة ، ان نجاح عملية التعلم يعتمد على جملة أمور منها: الأحوال الفيزيقية المحيطة بالمتعلم ونقصد بالأحوال الفيزيقية هنا، ان تكون الصفوف الدراسية ملائمة للأجواء المناخية، وان تتيسر مقاعد الجلوس التي يجد فيها التلميذ بعض الراحة طول مدة الدرس، كما يجب أن تكون هذه المقاعد متناسبة مع مستوى النظر إلى السبورة، فضلاً عن تيسر بعض التقنيات التربوية. ومن الأمور التي ينبغي مراعاتها في عملية التعلم الناجحة، أن ساحة المدرسة، ينبغي أن تكون جاذبة. إذ لوحظ أن ساحات المدارس في هذه الأحياء، تفتقر إلى معدات اللعب البسيطة، وخالية من المزروعات مما يجعلها طاردة لتلاميذها أكثر من كونها جاذبة، ولو خططت ونظمت هذه الساحات بطريقة اخرى لكانت أكثر جاذبية لهم(15)، على أقل تقدير للتمتع بأجوائها واللعب بمعداتها، مما يتوجب عليهم قضاء الساعات الدراسية في المدرسة، وبذلك نكون قد ابعدنا التلاميذ عن ترك المدرسة.

5- تشير الدراسات التي أجريت على الجانحين، ان الجنوح يعد سمة شخصية مميزة للتلاميذ الذين تسربوا من الدراسة (16)، ولعل ذلك يرجع إلى عدد من الأسباب، نذكر من أهمها: غياب سلطة الاب وعدم فعاليته في توجيه الطفل وإرشاده، مما يعني أن الطفل سيضطر بالنتيجة النهائية، إلى البحث عن نموذج بديل يشكل من خلاله سلوكه، وربما يكون هذا البديل الأم، ولعل ضعف حكمها الخلقي أو عدم اكتراثها للطفل أو صعوبة السيطرة على سلوكه، قد لا يجعل منها النموذج أو القدوة الحسنة، وعند ذاك سيجد في النماذج المنحرفة قدوة له، وبذلك سيشكل سلوكه وفقاً لمعايير هذه النماذج.

وقد يعود السبب إلى الأساليب المتبعة في تنشئة الطفل، فلقد وجد ان أساليب التنشئة التي تنطوي على التساهل أو الشدة والصرامة أو غياب الدفء الأبوي، قد تجعل الطفل أكثر عرضة للجنوح من اقرانه الذين تربوا على الدفء والحزم؛ وهذا يعود بطبيعة الحال، إلى أن هذه الأساليب- أي أساليب التساهل والشدة وغياب الدفء الأبوي- قد تجعل الطفل لا يشعر بأهمية مكانته داخل الأسرة، مما يؤدي بالنتيجة إلى خفض مستوى علاقته باسرته، وهو الأمر الذي يمنح جماعة الاقران سلطة التأثير فيه، بعد أن ضعف تأثير السلطة الأبوية. وهنا يبدأ الطفل بتشكيل سلوكه طبقاً للمعايير التي تقرها هذه الجماعة، ومما يزيد الأمورتعقيداً أن هذه الجماعة تضم عدداً من المنحرفين، مما يترتب على ذلك: تنمية شخصيات تتصف بكراهية الآخرين وعدم الإخلاص في علاقاتها الاجتماعية؛ ولأنها كذلك، فمن المتوقع لهذه الشخصيات، أنها ستكون غير قادرة في المستقبل على تقديم الإسناد أو إبداء التعاطف الإنساني في الحالات التي تقتضي تقديم الإسناد أو إبداء التعاطف، فضلاً عن هذا وذاك ، انها ستكون باردة في مشاعرها.

6- يلاحظ على التلميذ المتسرب من الدراسة، انه يعاني بشكل واضح من سوء

التوافق الدراسي.

ونعني بسوء التوافق الدراسي هنا، عدم قدرة التلميذ على الانسجام مع الأجواء المدرسية، مما يؤدي به إلى تكوين اتجاهات سلبية نحو الدراسة، تلك الاتجاهات التي تنطوي على كراهية المدرسة والنفور من التعلم؛ وبقصد الإحاطة بالتوافق الدراسي، فان الأمر يقتضي معرفة المكونات التي يشتمل عليها، وفي هذا السياق، نستعرضها على النحو الآتي:

أ- علاقة التلميذ بالمعلم.

أ- علاقة التلميذ بأقرانه.

ب- ميل التلميذ إلى المواد الدراسية.

د- الحالة الصحية للتلميذ.

والآن نتناول هذه المكونات بشيء من التفصيل:

أ- علاقة التلميذ بالمعلم:

لا بد من التسليم ابتداءً، ان طبيعة العلاقة بين التلميذ والمعلم، تعد احد المؤشرات الدالة على التوافق الدراسي، بمعنى أن العلاقة تتسم بشيء من التسلط والترهيب والتهديد والوعيد، فان النتيجة المتوقعة، ستكون الخوف من المدرسة، مما يترتب على ذلك، بعض المشكلات النفسية نذكر منها: عدم اكتراث التلميذ للمدرسة، وهذا سيفضي بمرور الوقت إلى التغيب وعدم الانتظام، وحتى في حال حضوره- وهو حضور متقطع- فانه سيشعر بالاغتراب عن الأجواء المحيطة به ، وحتى يتخلص من حالته الاغترابية هذه، فانه سيعمد إلى استعمال أحلام اليقظة بوصفها حيلة نفسية يتم من خلالها، التخفيف من حدة اغترابه. وبطبيعة الحال، فان الافراط في استعمال هذه الحيلة، سيعرضه إلى شرود ذهني، وهذا يعني، أنه سيواجه صعوبة في تركيز انتباهه على منبهات محددة داخل الصف الدراسي . والحقيقة، ان استمرار الشعور بالاغتراب عن المحيط المدرسي، سيكون أميل إلى ترك المدرسة، شريطة أن تكون هناك بعض المحرضات في الميدان التي تدعو إلى تركها.

هذا في حال كون العلاقة بين التلميذ والمعلم تستند إلى التسلط والخوف، اما العلاقة التي تستند إلى الإسناد والتعاطف والرعاية، فأنها ستؤدي ولا ريب إلى حب المدرسة والاهتمام بها والحرص على الانتظام في حضور الدروس وعدم التغيب عنها والشعور بالارتياح عند أداء الواجبات التي يكلف بها وهذا سينعكس على ميول التلميذ، فقد تأخذ ميوله بالتشكل، وهو ينتقل من صف إلى آخر، إذ سيفصح عنها صراحة في أن يكون في المستقبل محامياً أو مهندساً أو طبيباً أو معلماً، وذلك من خلال التفاعل اللفظي الحادث مع أقرانه أو مع أفراد اسرته.

وهنا نصل إلى مسألة لا بد من الإشارة اليها وهي، أن طبيعة العلاقة الحادثة بين التلميذ والمعلم، ستفضي إلى إحدى النتيجتين الآتيتين : فإما كراهية المدرسة، وهذه ستؤدي إلى التغيب عنها وعدم الانتظام في الدوام المدرسي، وربما يتطور ذلك إلى تركها والانتظام في إحدى المهن الهامشية أو في مهنة ذات نفع اجتماعي. ومع ذلك، فان ثمة خسارة علمية ستترتب على ترك المدرسة، تلك المتمثلة بعدم اكمال السنوات التعليمية المطلوبة، فضلاً عن حرمان مؤسسات المجتمع من الملاكات المؤهلة للإدارة والإنتاج.

وأما النتيجة الثانية، فهي حب المدرسة والاهتمام بها والحرص على أداء واجباتها، وهذه النتيجة سيترتب عليها الالتزام بالدوام وعدم التغيب عنه؛ ولعل الأهم من ذلك، هو

سرعة التعلم وبزوغ الميول لدى التلميذ وتنميتها في أثناء المراحل الدراسية التي يمر بها ، ثم بروز التفوق في الدروس كافة، مما يمهد السبيل إلى الإبداع في أثناء الدراسة أو ما بعدها عند الانتظام في الميدان المهني.

لا بد من الإشارة في هذا السياق، إلى مسألة الطرائق المتبعة في التدريس. إذ أن اختيار الطريقة التدريسية المناسبة، لها أثر كبير في فهم التلميذ للمادة الدراسية واستيعابها ومن ثم تفضيلها، وهو أمر يعزز المواظبة في حضور المادة الدراسية والاهتمام بها.

وخلاف ذلك، سينفر التلميذ من المادة الدراسية وعدم الاهتمام بها، ان أخفق المعلم في اختيار الطريقة التدريسية المناسبة، تلك الطريقة التي تيسر له عملية الفهم والاستيعاب بشكل اسهل.

ب- علاقة التلميذ بأقرانه:

إن ثمة علاقة بين القبول الاجتماعي والتوافق المدرسي، إذ تنطلق هذه العلاقة من مقولة: أن قبول الاقران سيزيد من التوافق المدرسي للتلميذ، والتفسير الذي نضعه هنا، أن شعور التلميذ بتقبل الأقران له واهتمامهم به، سيزيد من مواظبته على الدراسة، وهذا يؤدي بالنتيجة إلى الانسجام مع الأجواء المدرسية. وقد يترتب على هذا الانسجام آثار نفسية إيجابية، نذكر منها: زيادة تحصيله الدراسي وبروز أنماط من السلوك الإيجابي عنده وتكوين مفهوم إيجابي عن ذاته، إلى جانب تمتعه بالإتزان الانفعالي، وهو رأي تسنده الدراسات الميدانية. فلقد توصلت إلى نتيجة مفادها: أن التلميذ الذي يحظى بقبول اقرانه، يميل تحصيله الدراسي إلى الزيادة، مقارنة بالتلميذ الذي يحظى بقبول اجتماعي ضعيف (17). وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن القبول الاجتماعي يجعل التلميذ يشعر بالاقتدار والكفاءة؛ وهذا بدوره يحسن من ادائه في الاختبارات المدرسية، مما يفضي إلى بروزه وتميزه بين أقرانه. كما وجد، ان التلميذ الذي يحظى بالقبول الاجتماعي، يميل إلى استصدار أنماط سلوكية مقبولة اجتماعياً، تلك الأنماط التي تكون من قبيل: المساعدة والتعاطف والابتعاد عن الغش والتحايل وإطاعة الأنظمة المدرسية ومساعدة الأبوين في شؤونهما المنزلية. كذلك وجد، أن التلميذ المقبول اجتماعياً، يميل إلى تكوين مفهوم إيجابي عن ذاته؛ وذلك يرجع أساساً إلى تمتعه بخصائص شخصية مفضلة، وبموجب هذه الخصائص، يغدق عليه الأقران المديح والإطراء في المواقف التي تستدعي الإطراء، إلى جانب الترحيب به وتبليغه بنشاطاتهم وما عزموا عليه، وبذلك، فان القبول الاجتماعي الذي يحظى به التلميذ، سيدفعه إلى تنمية مفهوم إيجابي عن ذاته. ووجد أيضاً ، أن التلميذ الذي يحظى بقبول جماعته، سيكون أميل إلى الاتزان الانفعالي؛ وذلك بسبب أن القبول الاجتماعي سيعمد إلى خفض مستوى الإحباطات التي يتعرض لها في المواقف الاجتماعية، ومن ثم خفض مشاعر الغضب والتوتر، وبذلك، فان التلميذ الذي يحظى بالقبول الاجتماعي ستكون استثارته الانفعالية، أقل بدرجة ملحوظة من التلميذ المرفوض اجتماعياً.

ج- ميل التلميذ إلى المواد الدراسية:

تعد المواد الدراسية من العوامل المؤثرة في التوافق المدرسي للتلميذ، فلقد وجد، ان ثمة

مواد دراسية تستثير مخاوف التلميذ، وإذا نحن أجرينا مسحاً لهذه المواد التي تستثير مخاوفه، نجد أن الرياضيات واللغة الإنكليزية والعلوم تعد من المواد الدراسية التي تتصدر قائمة المخاوف المدرسية (18). تلك المواد التي يجد فيها التلميذ صعوبة في فهمها واستيعابها، وهناك عدد من الأسباب التي تستثير مخاوفه، من بينها: طرائق التدريس المتبعة وشخصية المعلم وكفاءته، هي المسؤولة عن استثارة مخاوف التلميذ من هذه المواد الدراسية. إذ ان غياب الطريقة التدريسية التي تتناسب مع عمر التلميذ ومستواه العقلي، ستفضي إلى إحداث صعوبة في فهم المادة الدراسية، كما أن شدة المعلم وتسلطه ينفران التلميذ من المادة الدراسية ويجعلانه غير مكترث لها، ومن ثم عدم تفضيلها. كذلك انخفاض مستوى الكفاءة التدريسية للمعلم، قد يزيد من صعوبة التلميذ في الفهم والاستيعاب للمادة الدراسية. اذ تشير الوقائع الميدانية، إلى أن هذه المواد نالت اهتمام واستحسان التلميذ عندما كُلف بتدريسها معلمون يتصفون بخصائص شخصية من قبيل: التعاطف والإسناد والرعاية، إلى جانب تمتعهم بالكفاءة التدريسية المطلوبة، وعلى علم ودراية بالطرائق التدريسية. والحقيقة، أن مراعاة هذه العوامل الثلاثة، ستحول اتجاه التلميذ نحو المواد الدراسية، من السلب إلى الإيجاب أو العكس من الإيجاب إلى السلب.

من ذلك يتضح، ان بعض المواد الدراسية قد تؤدي إلى سوء التوافق المدرسي، على أن شخصية المعلم وكفاءته وطريقته في التدريس هي التي تدفع بالتلميذ إلى أن يجد صعوبة في فهمها، ومن ثم عدم تفضيلها.

د- الحالة الصحية للتلميذ:

تشير بعض الدراسات إلى أن الحالة الصحية التي يتمتع بها التلميذ، تعد عاملاً مؤثراً في توافقه المدرسي(19). والحالة الصحية التي نعني بها هنا، وجود بعض العيوب أو التشوهات في جسد التلميذ أو غياب السلامة العقلية، فضلاً عن إصابته ببعض الأمراض وبذلك، فان الحالة الصحية السليمة، تجعل التلميذ قادراً على السمع والإبصار والحركة والنطق، وهو الأمر الذي يسهل عملية التعلم والفهم والاستيعاب. والحقيقة، ان الاداء الفعال للنشاطات البدنية والعقلية والاجتماعية، سيؤدي إلى شعوره بالكفاءة والاقتدار ، ومن ثم شعوره بالارتياح جراء مجاراة الآخرين في هذه النشاطات أو التفوق عليهم من خلالها. وعلى النقيض من ذلك، سيشعر التلميذ بالخيبة والفشل والاحباط في حال كونه غير سليم من الناحية البدنية أو العقلية، وذلك لعدم تمكنه من اداء النشاطات الدراسية والبدنية والاجتماعية المطلوبة؛ ولأنه لا يتمكن من مجاراة غيره في هذه النشاطات، ستزداد معاناته النفسية بمرور الوقت، وقد يفضي ذلك إلى عدم المواظبة في الدراسة، على ان التدهور الحاصل في أحواله الأسرية قد يعجل في ترك الدراسة.

7- لقد وجد أن النسق القيمي الوافد يشيع بدرجة لافتة للانتباه لدى التلميذ المتسرب من الدراسة(20). وإذا نحن تفحصنا هذا النسق، نجد أنه يؤكد الكسب السريع والتحايل على الآخرين وعدم جدوى الدراسة وإدعاء البطولة وتغليب المنفعة المادية عند التعامل مع الآخرين؛ ولعل دخول العمل مبكراً، قد أفضى إلى اكتساب هذا النسق من القيم.

الهوامش:

(1) سعد فتح اللّه وآخرون، الحق في التعليم وظاهرة تسرب الأطفال من المدارس في العراق، العمل والمجتمع، العددان1–2 (2007)، ص180.
(2) المصدر نفسه، ص180.
(3) المصدر نفسه، ص180.
(4) المصدر نفسه، ص179.
(5) محمود شمال حسن، الأطفال والأزمات: الآثار النفسية الناجمة عن تعرض الأطفال إلى الأزمة الاقتصادية، الثقافة الجديدة، العدد 328(2008)، ص78–79.
(6) محمود شمال حسن، المجتمع المنجز: دراسة لتهيئة المجتمع العربي للإنجاز (القاهرة: دار الآفاق العربية، 2006)، ص160.
(7) عبد الباسط عبد المعطي، بعض المتغيرات الاجتماعية المؤثرة في العلاقة بين التعلم والتنمية البشرية في الوطن العربي، ورقة قدمت إلى : التنمية البشرية في الوطن العربي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية واللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الاسكوا) وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995)، ص315.
(8) عبد الرزاق الفارس، الحكومة والفقراء والإنفاق العام: دراسة لظاهرة عجز الموازنة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997)، ص177.
H. Bee , The developing child (Boston: Allyn and Bacon, 2000), P.48
(9) شبيب ذياب ، عمالة الأطفال في الجنوب اللبناني. في: ندوة سوء معاملة الأطفال واستغلالهم غير المشروع (الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، 2001)، ص93.
خديجة حسن جاسم المشهداني، عمل الأطفال في الشوارع: دراسة ميدانية في مدينة بغداد (جامعة بغداد، اطروحة دكتوراه، 2004)، ص99.
يزيد عيسى السورطي، السلطوية في التربية العربية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، 2009)، ص119.
(10) علي بو عناقة، الأحياء غير المخططة وانعكاساتها النفسية– الاجتماعية على الشباب: دراسة ميدانية مقارنة في مدينة جزائرية. المستقبل العربي، السنة 13، العدد145 (آذار/مارس، 1991)، ص102.
(11) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، اثر سياسات الاقتصاد الكلي والسياسات الاجتماعية على الفقر: حالة الأردن ومصر والجمهورية اليمنية (نيويورك: الأمم المتحدة، 1997)، ص94.
(12) عبد الرزاق الفارس، الحكومة والفقراء والإنفاق العام: دراسة لظاهرة عجز الموازنة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، ص82.
(13) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، أثر سياسات الاقتصاد الكلي والسياسات الاجتماعية على الفقر: حالة الأردن ومصر والجمهورية اليمنية، ص98.
(14) المصدر نفسه، ص97.
(15) المصدر نفسه، ص97.
(16) محمود شمال حسن، سايكولوجية الفرد في المجتمع: مدخل (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١)، ص363–364.
(17)
L. G. Howton ,Evaluting Juvenile delinquency research , in: B. Rosenberg and etal, Mass society in crisis: social problems and social pathology,2nd ed(New York :The macMillan company, 1971), P.293.
محمد عارف، الجريمة في المجتمع: نقد منهجي لتفسير السلوك الإجرامي. (القاهرة: مكتبة الانجلو، 1975)، ص591.
عبد العزيز برودون، إنحراف الأحداث في المدينة الجزائرية: دراسة تحليلية لمظاهر السلوك الانحرافي في الوسط الحضري، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد2، العدد7 (خريف،2002)، ص191.
(18) عدنان حسين خضير، علاقة القبول الاجتماعي ببعض المتغيرات المدرسية لطلبة الدراسة الثانوية (جامعة بغداد، رسالة ماجستير، 1982)، ص73–75.
D. G. cornel, Highability students who are popular with their peeprs, Gifted child quarterly, vol.43, No.4, 1990, P.155-160.
(19)عباس علوان داود، مخاوف المراهقين في مرحلة الدراسة المتوسطة في مدينة بغداد (جامعة بغداد، رسالة ماجستير، 1982)، ص58–60.
خلدون نجيب الزبيدي، المخاوف المدرسية ومصادرها لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية في مدينة بغداد (جامعة بغداد، رسالة ماجستير، 1982)، ص94.
(20) سونيا هانت وجينيفر هيلتن، نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية، ترجمة قيس النوري (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988)، ص 189.

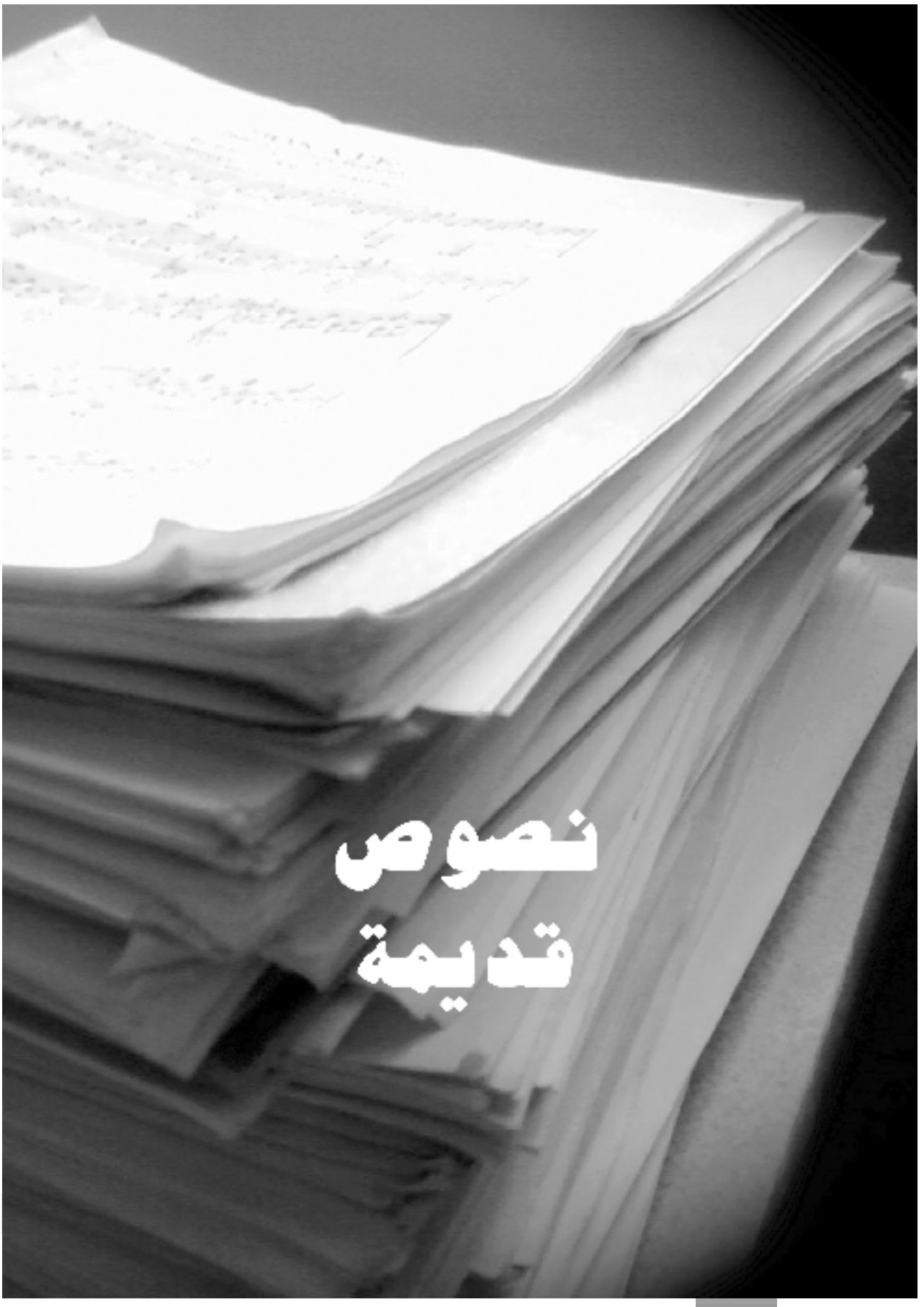
نصوص
قديمة

محمود أمين العالم (18 فبراير/ شباط 1922 - 10 يناير/ كانون الثاني 2009) مثقف لامع ومفكر ماركسي أصيل وأحد أقطاب حركة اليسار والديمقراطية في مصر والعالم العربي، قضى ما يقارب الستة عقود من المعارك السياسية والثقافية والفكرية حتى اكتوت كفاه بالجمر الذي ظل يقبض عليه طوال حياته، في وقت كان فيه القابضون على الجمر بين المثقفين قلة يرفضون أن يكونوا –على حد تعبير العالم - شعراء بلاط ووعّاظ سلاطين وأدوات تبرير وتمرير لسياسات النظم العربية القائمة؛ فيتمسكون بمبادئهم، وينخرطون، بمستويات مختلفة، في النضال بالفكر والإبداع من أجل تغيير الأوضاع المتردّية.

لقد عرفنا الراحل الكبير محمود أمين العالم مفكرا أصيلا يعرف صنعته فلا يرتكن الى " المسلمات " والأجوبة الجاهزة، بل كان على الدوام - كمفكر وكفيلسوف - يعيش قلق الأفكار ويطرح الأسئلة باحثا عن المزيد من المعرفة. وقد كان لعادة البحث الدائمة عند (العالم) لاكتشاف مناطق جديدة من المعرفة، في مختلف الحقول التي مرّ عليها، أن قدّم مساهمات نظرية جدية في الفلسفة والفكر والسياسة والنقد الأدبي.

لقد ظل محمود أمين العالم منذ أواسط الخمسينيات من القرن العشرين، عندما كتب هو ورفيق عمره الدكتور عبد العظيم أنيس " في الثقافة المصرية "، حتى رحيله في 2009 يخوض معاركه الفكرية والفلسفية والأدبية دون كلل ولم يتعب من التفكير والاجتهاد في كل الميادين التي خاض غمار معاركه عليها. لقد أدرك (العالم)، ومنذ وقت طويل، كما أشار الى ذلك وبصواب المفكر الفلسطيني الدكتور ماهر الشريف: " أن الثقافة بُعدٌ من أبعاد السلطة، وأن للمثقف، بوصفه حاملاً ومنتجاً للمعرفة، دوراً يلعبه في عملية التغيير، لكنه أدرك، في الوقت نفسه، أن النضال الثقافي وحده لن يحقق التغيير، فانجذب إلى السياسة، معتبراً أن المشاركة في العمل السياسي الثوري المنظّم، هي أرقى مشاركة للمثقف في تحقيق التغيير الثوري المنشود ".

لقد عاش الأستاذ محمود أمين العالم حياة خصبة دفاعا عن القضية الكبيرة للكادحين وبسطاء الناس، دفاعا عن الفكر الحر النقدي وعن ماركسية أصيلة عميقة بروحها المادية وجدليتها وتاريخيتها بعيدة عن الوصفات الجاهزة .. لذا كانت حياته على امتدادها الواسع درسا كبيرا لكي يعيشها المفكر والمناضل والإنسان حياته كما يجب ان تعاش. ومن المؤكد ان النص الذي نقدمه هنا والموسوم: اشكالية العلاقة بين المثقفين والسلطة، اضافة الى نصوص كثيرة كتبها، يبقي (العالم) حيا ودائم الحضور بيننا. ورغم مرور عدة عقود على صدور هذا النص إلا انه ما زال يتمتع براهنيته وحيوية اطروحاته لأنه يجيب عن اسئلة كثيرة نعيش حمأة البحث عن اجوبة معللة وليس معلبة.

(الثقافة الجديدة)

إشكالية العلاقة بين المثقفين والسلطة ❖

محمود أمين العالم

مدخل عام

مـا أكثر مـا تعالج قضيـة العلاقـة بين المثقفين والسـلطة معـالجـة تبسيطية. فـالمثقفون يـتقلصون في نمـوذج لمثقف فرد مطلق يقف في مواجهة سلـطة مطلقة. وبين هـذا المثقف الفـرد والسلطة تقـوم علاقة محددة. فـالمثقف إزاء هذه السلطة قد يكون " نـاقـداً أو مبـرراً أو متفـرجـاً "(1). وقـد يكون داخل السلطة أو خارجها، وقد يكون مع السلطة أو ضدها. وعلى هـذا فالعلاقة بين المثقف والسلطة لا تخـرج عن أن تكون عـلاقة ثـنائية سـواء كانـت استبعـادية أو توفيقية.

والواقع أن العلاقة بين المثقفين والسلطة أكثر تعقيدا من هذه الثنائية التبسيطية. بل لعل هـذه العلاقـة أن تختلف بـاختلاف الملابسـات الاجتمـاعية والتـاريخيـة التي تـتحقق فيهـا، كمـا يختلـف ذلك الوعـي بها باختلاف هذه الملابسات واختلاف المواقف منها.

في أوائل عـــام1967 زار مـصـــر الفيلسـوف الفـرنسي جـان بـول سـارتـر وألقى في جامعـة القاهرة محـاضرة حول" دور المثقف في المجـتمع المعـاصـر ". ولقـد اقـتصر سارتـر في محاضرته علـى تحديد دور المـثقف في المجـتمعـات الأوروبيـة الـرأسمـاليـة وعـرّف المثقف بـأنه " العـالم الذي يخرج باهتمامه وعمله من حدود علمه المتخصـص الى آفـاق المصـالح الانسـانية المـشتركة ". وفي تعـريفه هذا للمثقف، وفي محاضرته بشكل عام، وضـع سارتر المثقف في تعارض مع السلطة بشكل مطلق. ولقد اختلفتُ مع محـاضـرة سـارتـر في مقـال نشرته (2) آنـذاك فرقتُ فيه بين مـستويات ومواقف مـختلفة للمثقفـين وأشكال وطبائع مـختلفة للسلطة، وأشرتُ في هذا المقال الى أن السـلطـة ليسـت هي مجـرد الجهـاز المـركزي بل هي كـذلك الهيـاكل السيـاسية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والتعليميـة الى غيـر ذلك، وأن مـوقف المثقفـين سواء داخل جهـاز الـدولـة أو خـارج هـذا الجهـاز إنمـا يخـتلف بـاخـتـلاف طبيعـة هـذا الجهـاز

وطبيعة سياساته من حيث أنه جهاز رجعي أو تقدمي، وأن موقف المثقفين لا يتحدد فحسب بالتأييد أو بالرفض للسلطة على اطلاقها وإنما يتحدد أساساً بمدى مشاركة المثقفين مشاركة فعلية عملية في تكريس سياسات هذه السلطة أو تغييرها تغييراً جذرياً.

وكما كانت محاضرة سارتر تعبيراً عن موقف أغلبية المثقفين في البلاد الأوروبية الرأسمالية آنذاك، فإني أكاد أتلمس في كلماتي القديمة تضاريس تلك المرحلة من تاريخ مصر في الخمسينيات والستينيات عندما كانت ثورة 23 تموز (يوليو) في السلطة بقيادة جمال عبد الناصر وكانت تلتف حولها الجماهير الشعبية للأمة العربية جمعاء، بل الأغلبية الساحقة للمثقفين العرب بمستوياتهم واتجاهاتهم المختلفة.

حقا، لقد عانت ثورة تموز (يوليو) في بدايتها إثر انسحاب بعض المثقفين عنها، وسلبيتهم إزاءها بل صدامهم معها نتيجة لبعض توجهاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية آنذاك.

وفي كتاب " أزمة المثقفين"، يعرض الأستاذ محمد حسنين هيكل لعناصر هذه الأزمة ويركزها في أمور ثلاثة هي:

1- المطالبة بعودة الجيش الى الثكنات.

2- المطالبة بالديمقراطية وعودة الأحزاب.

3- المفاضلة بين أهل الثقة وأهل الخبرة "وذلك نتيجة لتعيين بعض العسكريين في عدد من الشركات والهيئات والمؤسسات في وظائف يبدو أنها فنية بحتة لا تحتمل غير المتخصصين في أعمالها"(3).

على أن القضية آنذاك لم تكن في تقديري هي أزمة علاقة بين المثقفين على اطلاقهم والسلطة الجديدة كجهاز سياسي عسكري أو أزمة مفاضلة بين أهل الثقة وأهل الخبرة. بل كانت الأزمة ذات أبعاد سياسية واجتماعية وايديولوجية أساساً. فلا شك في أن ثورة تموز (يوليو) وغيرها من الثورات العربية الأخرى التي قامت قبل قيامها أو بعد قيامها، قد شارك في قيامها وفي قيادتها طلائع من المثقفين ذوي التوجه التقدمي والقومي العام. حقا، أن الطابع العسكري قد غلب على هذه الثورات، ألا أن هذا الطابع العسكري لايخفي الوجوه الثقافية البارزة التي شاركت في التخطيط وفي قيادة هذه الثورات، هذا، فضلا عن أن ضباط الجيش أنفسهم يعدون من الفئات الثقافية بالمفهوم العام للمثقفين كما سنعرض لذلك في ما بعد. والواقع أن ثورة تموز(يوليو) لم تنجح في تحقيق بعض أهدافها إلا بفضل المشاركة الفعالة لفئات المثقفين في مختلف مستويات العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والاعلامي والثقافي عامة.

ففي خطة التنمية الاقتصادية الأولى مثلاً اشترك في وضعها ألف وخمسمائة من كبار المتخصصين، وقام على تنفيذها عشرات الآلاف من المثقفين الذين يجتمع فيهم أهل الثقة بأهل الخبرة (4). ولهذا، فإن النواقص والسلبيات في ثورة تموز (يوليو)، لا ترجع في الحقيقة الى أزمة المفاضلة بين أهل الثقة وأهل الخبرة، أو الى أزمة التعارض والمصادمة بين المثقفين

والثورة كما يقال، أو إلى سلبية المثقفين إزاء الثورة، و إنما ترجع الى الطبيعة الطبقية للثورة وإلى ايديولوجيتها التوفيقية وإلى نوعية المثقفين الذين استعانت بهم الثورة لتحقيق أهدافها. لقد كانت الثورة تنادي بالتغيير الاجتماعي والاشتراكية، وتستعين بمثقفين معادين لشعارات التغيير الاجتماعي وللإشتراكية ولمشروعاتها عامة أو على الأقل غير مدركين وغير واعين حتى بحقائق وآليات التغيير الاجتماعي الذي تسعى الثورة الى تحقيقه، في الوقت الذي كانت فيه تغيّب في السجون لفترات طويلة المثقفين الاشتراكيين الحقيقيين أو تعمل على تهميشهم إجتماعياً أو تسعى إلى استيعابهم داخل ايديولوجيتها الخاصة.

لم تكن القضية إذن في الخمسينيات والستينيات هي أزمة العلاقة بين المثقفين والثورة أو بين المثقفين والسلطة، بل كانت خلافاً حول سياسات وايديولوجيات داخل الثورة وخارجها تتعلق بالديمقراطية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسة الخارجية، فضلاً عن مناهج وأساليب وأسس تحقيق الوحدة العربية.

ولهذا فإن المقال الذي كتبته عام 1967 رداً على سارتر كان تعبيراً عن هذه الخبرة الواقعية الحية، أكثر منه تعبيراً عن إشكالية موضوعة بين المثقفين والسلطة.

على أننا في هذه السنوات الأخيرة، نجد هذه القضية تبرز من جديد في صورة إشكالية بل مأساوية حادة، وتتسع فيها المسافة بين طرفيها حتى تكاد تصل إلى ما يشبه الثنائية المطلقة.

ولقد استطعت أن أحصي خلال السنوات الأخيرة خمس ندوات غير ندوتنا هذه، فضلاً عن مقالات متناثرة، يدور محورها حول العلاقة بين المثقفين والسلطة. وفي تقديري أن هذا الاهتمام البالغ بهذه القضية، والطابع الاشكالي الحاد لطرحها إنما هو تعبير عما يعانيه واقعنا العربي الراهن في هذه السنوات الأخيرة من أزمة بنيوية في مجمل أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تزداد كل يوم تخلفاً وتمزقاً استبداداً وتبعية. وقد لا يسمح المجال بتفصيل حول هذه الأزمة وأسبابها وآفاقها، ولكني حسبي أن ألخص هذه الأزمة بفقرة واحدة من تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان الذي صدر مؤخراً.

تقول هذه الفقرة " إن الرأي العام العربي يدرك ان الهزائم والانتكاسات التي حاقت بوطنه الكبير في السنوات الأخيرة ليست قدراً محتوماً. وليست دلالة على عجز شعوب أمته، وانما هي بسبب عجز الأنظمة. وان هذه الشعوب قد سجلت في الماضي القريب انتصارات باهرة، وقدمت أعز التضحيات. وإن أهم أسباب الأزمة الحاضرة هي التغييب القسري للجماهير العربية عن المشاركة في تقرير مصيرها والاسهام في صياغة حاضرها ومستقبلها، والدفاع عن أوطانها، وان هذا التغييب يبدأ بمصادرة الحريات الأساسية للجماهير وينتهي بالانتهاك الفاضح لحقوق الانسان الفرد"(5).

إن خلاصة هذه الصورة التي تقدمها هذه الفقرة من تقرير" المنظمة العربية لحقوق الانسان" هي أن الأنظمة العربية

عاجزة، والجماهير العربية مغيّبة. وبصرف النظر عن حقيقة موقف الأنظمة هل هي عاجزة أم متواطئة، فلا شك في أن هناك تخلفاً في جانب الأنظمة، وتغييباً في جانب الجماهير. وفي هذه الصورة المأساوية كان من الطبيعي أن تبرز اشكالية العلاقة بين المثقفين (الذين هم طلائع الوعي الاجتماعي على اختلاف انتساباتهم واتجاهاتهم) وبين الأنظمة الحاكمة، وأن تنعقد الندوات وتكتب المقالات وترتفع التساؤلات القلقة حول المثقفين وموقعهم ودورهم ومسؤوليتهم في مواجهة هذه الأوضاع.

ولا أتردد في أن أقول بصراحة واجبة أن بعض الكتابات وبعض المداخلات في هذه الندوات، ما كانت –موضوعيا على الأقل –تنتهي إلى تحديد معالم الخروج من محنة هذه الأوضاع ، بقدر ما كانت تغيب حقائق وآليات هذه المحنة، كما كانت تغيب المنهج الموضوعي لمعالجتها، وبالتالي كانت تكرسها تكريسا. وليس هذا بالأمر الغريب الشاذ. فالثقافة بُعد من أبعاد هذه " الأوضاع –المحنة" نفسها، وبعض المثقفين أنفسهم هم بعض أجهزة إعادة انتاج هذه" الأوضاع –المحنة". وبتعبير آخر أكثر عمومية وأكثر موضوعية، إن الثقافة بُعد من أبعاد السلطة، كل سلطة ، ولهذا فإن القول –وهنا ندخل في موضوعنا – بالثنائية الضدية الاستبعادية أو الثنائية التوفيقية بين المثقفين والسلطة لا يفضي إلى تغييب حقيقة العلاقة بين المثقفين والسلطة فحسب، بل يفضي كذلك إلى طمس طبيعة الثقافة وطبيعة السلطة على السواء. فلا سلطة بغير ثقافة، ولا ثقافة لا تنتسب إلى سلطة ما سائدة، أو سلطة أخرى تسعى لأن تسود.

ولهذا فليس صحيحا ما يذهب اليه بعض الكتاب من أن المثقف والسلطة ينتسبان إلى حقلين دلاليين مختلفين، وأن العلاقة الوحيدة بينهما هي علاقة الصراع (6).

حقا، هناك تمايز دلالي بين الثقافة والسلطة، ولكن هناك تداخل وظيفي عضوي بين الدلالتين كذلك.

ولو عدنا إلى الجذور الاشتقاقية لكلمات السلطة والحكم والثقافة، في (لسان العرب) وفي بعض المعاجم العربية الاخرى لوجدنا هذا التشابك والتداخل بين الدلالتين.

فكلمة السلطة إلى جانب ما تحمله من معنى القهر والغلبة، تعني كذلك الحجة والبرهان. والرجل السليط هو الفصيح حديد اللسان. ومع كلمتي الحكم والحكومة اللتين تعبران عن السيطرة نجد كلمة الحكمة التي تعني العلم والتفقه ومعرفة أفضل الأشياء. أما كلمة الثقافة فنجدها سواء في اللغة العربية أو مختلف اللغات الأوروبية تجمع بين الدلالتين المعنوية والعلمية. فالزراعة هي مصدرها في اللغات ذات الجذر اللاتيني، والتصويب والتسوية والتحديد هي مصدرها في اللغة العربية. فثقف الشيء يعني اقامة المعوج فيه، مثل تثقيف الرمح، وثاقفه تعني جالده بالسيف إلى غير ذلك.

حقاً إننا لا ينبغي أن نغالي في استخلاص نتائج فكرية من هذا التداخل الدلالي في معنى المفردات، ولكننا سنجد

هذا التداخل الدلالي نفسه بين الممارسة والفكر، بين السلطة والمعرفة، بين الدولة والثقافة طوال التاريخ البشري وخاصة مع نشأة الطبقات الاجتماعية وقيام مؤسسة الدولة. سنجد هذا التداخل الدلالي والوظيفي منذ الملوك السحرة وسلطة الكهنة، ودور البيروقراطيين ومهندسي المشروعات الكبرى في الدولة القديمة حتى رجال الدين وصانعي القرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ومخططيه ومنفذيه ومروجيه الايديولوجيين في الدولة الحديثة. وقد يبرز هذا التداخل الدلالي والوظيفي بصورة أكثر وضوحاً عندما نضرب أمثلة بعض الحكام الحكماء او الحكام المثقفين، وما أكثر الأمثلة على ذلك في التاريخ القديم والتاريخ الحديث: أخناتون، علي بن أبي طالب، المأمون، ابن تومرت، روبسبيير، لينين، ماوتسي تونغ، نهرو، عبد الناصر، سنغور، ديغول... إلى العشرات من أمثالهم. إلا أن التمثل بهذه الأسماء قد يفضي بنا الى نتيجة مغلوطة، لأنه قد يوحي بأن للثقافة دلالة فردية أو نخبوية علوية ويخفي بهذا دلالتها الطبقية في بنية السلطة نفسها.

ولهذا قد يكون من المفيد متابعة – الرحلة العريقة المستمرة المتطورة لمؤسسة السلطة –الثقافة لنتبين هذه العلاقة العضوية الحميمة بين السلطة والثقافة وما تتخذه من أشكال ومظاهر مختلفة عبر الملابسات التاريخية الاجتماعية المختلفة. ولكن المجال لا يسمح بهذا، وحسبنا أن نتوقف عند تحديد مفهوم المثقف ومفهوم السلطة، وتحديد طبيعة ما بينهما من تداخل دلالي ووظيفي رغم ما بينهما من تمايز.

من هو المثقف؟

إن أي محاولة لتعريف المثقف ستغوص في غابة من عشرات التعريفات التي يصدر كل منها عن موقف فكري معين. فهناك من يعرّف المثقف بأنه الحاصل على الشهادة العليا الجامعية، وهناك من يعرّفه بأنه المتخصص في شؤون الثقافة، والذي يتعامل مع الأفكار المجردة التي يضع اعتباراتها فوق مختلف الاعتبارات الاجتماعية اليومية، أو بأنه المفكر المرتبط بقضايا عامة أكبر من حدود تخصصه، أو هو صاحب الرؤية النقدية للمجتمع، أو هو العالم القلق، أو هو المبدع في مجال الآداب والفنون والعلوم والفكر، أو هو المتعلم ذو الطموح السياسي أو هو واحد من صفوة أو نخبة متعلمة ذات فاعلية على المستوى الاجتماعي إلى غير ذلك وهي تعريفات تقصر المثقف على مستوى ثقافي معين أو مستوى اجتماعي معين . وقد يكون أبسط تعريف هو ذلك الذي يميز بين العمل الذهني والعمل اليدوي . وهو في الحقيقة كذلك تعريف غير دقيق على اطلاقه. فكل عمل يدوي مهما كانت بساطته الآلية يحتوي بالضرورة على قدر من الجهد الذهني. وفي تقديري أن أصدق تعريف وأدقه هو ذلك الذي يقول به غرامشي وهو أن (7) كل انسان مثقف وان لم تكن الثقافة مهنة له. ذلك أن لكل انسان رؤية معينة للعالم، وخطاً للسلوك الأخلاقي والاجتماعي، ومستوى معيناً من المعرفة

والانتاج الفكري. كل انسان مثقف إذن وإن اختلفت مستويات ووظائف ودلالات ثقافته. وهكذا يتسع مفهوم المثقف ليشمل المفكرين والعلماء والكتاب والمبدعين والفنيين ورجال الدين والأطباء والمهندسين والمديرين ورجال القانون والأطباء والموظفين والموجهين الاعلاميين والصحفيين ورجال الأعمال والطلبة. بل يتسع كذلك لقوى الانتاج اليدوي من عمال وفلاحين. وبهذا المعنى الواسع للمثقف ينقسم المثقفون الى مثقف عام ومثقف متخصص، ولا يشكل المثقفون طبقة اجتماعية محددة، بل ينتسبون إلى مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، من الطبقة الارستقراطية الى البرجوازية والفئات البينية المتوسطة حتى الطبقة العاملة. فلكل طبقة وفئة من هؤلاء مثقفوها المعبرون عنها سواء بالانتساب الاجتماعي المباشر، أو بالانتماء الفكري. وهناك بحسب تعبير غرامشي المثقف العضوي للطبقة البورجوازية وهناك المثقف العضوي للطبقة العاملة، وهناك المثقفون المعبرون عن مختلف الفئات الاجتماعية الاخرى. ولعل فئة الفلاحين أن تكون الفئة الاجتماعية الوحيدة كما يذهب (8) غرامشي التي ليس لها مثقفوها المعبرون عنها، وإن يكن العديد من المثقفين من ذوي أصول فلاحية.

وهناك من الباحثين من يذهب إلى أن المثقفين ينتسبون عامة إلى الفئات الاجتماعية الوسطى، ويتحلون لهذا بسمة اجتماعية موحدة. وقد يبدو هذا صحيحا وخاصة في مجتمعاتنا العربية ومجتمعات البلاد النامية عامة التي برزت فيها وتكاثرت واتسعت الفئات الاجتماعية الوسطى بعد حصولها على الاستقلال ونتيجة للتوسع في التعليم تلبية للاحتياجات الاجتماعية الجديدة. إلا أنه في اطار هذه الفئات الوسطى سنجد كذلك الانتماءات والانتسابات الفكرية المختلفة التي لا تجعل من المثقفين طبقة متجانسة من حيث المصالح وبالتالي من حيث الافكار.

وهناك من الباحثين من يذهب إلى اعتبار المثقفين الطبقة الاجتماعية المالكة، لامتلاكهم لرأس مال ثقافي يؤهلهم للحصول على الجانب الأكبر من فائض القيمة على المستوى الاجتماعي العام، ويتيح لهم وضعاً متميزاً في السلطة، فاللامساواة في المعرفة تؤدي إلى اللامساواة الاجتماعية وبالتالي فالأكثر معرفة هو الأكثر سلطة. والواقع أنه إذا صح أن اللامساواة في المعرفة تؤدي إلى اللامساواة الاجتماعية، فإن المعرفة أو رأس المال الثقافي وحده لا يعني السلطة، رغم أهميته في بنية السلطة كما سوف نرى .

وهناك من الباحثين من يذهب إلى أن المثقفين كيان اجتماعي غير طبقي، أي يكاد يكون كياناً قومياً فوق الطبقات (9)، وإن كان يقصر هذا الحكم على المثقفين المصريين أساساً. والواقع أن مصدر هذا التعريف الفضفاض هو قصره مفهوم المثقفين على المشتغلين بشؤون الثقافة العامة دون المشتغلين بالثقافة التقنية. ولكن حتى في اطار هذا المفهوم الضيق للمثقفين فما أكثر التمايزات الطبقية بينهم.

ان المثقفين ليسوا طبقة بثقافتهم وليسوا فوق الطبقات أو عبرها بهذه الثقافة، وانما يتنوع ويختلف انتسابهم كشرائح وفئات اجتماعية الى هذه الطبقة أو تلك بطبيعة موقعهم وموقفهم من نظام الانتاج السائد. فالطبقة بحسب تعريف لينين لها تتحدد بمعايير أربعة هي موقع المجموعة الاجتماعية في نظام الانتاج الاجتماعي المحدد تاريخيا، وعلاقة هذه المجموعة بوسائل الانتاج في اطار التعبير القانوني عنها ودورها في التنظيم الاجتماعي للعمل وحجم الدخل وأسلوب الحصول عليه. ولا يمكن تحديد الطبقة تحديدا كاملاً بغير اجتماع هذه المعايير الأربعة (10).

وعلى هذا فالمثقفون من حيث أنهم مثقفون ليسوا طبقة ولا من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية أو من الناحية الايديولوجية، وإنما يمثلون فئات وشرائح طبقية مختلفة. وتتحدد انتساباتهم الطبقية بحسب موقعهم وموقفهم من نظام الانتاج في ضوء هذه المعايير الأربعة. إن لكل طبقة اجتماعية مثقفيها الذين ينشأون بنشأتها (11)، إلا ان الانتساب الطبقي للمثقفين لا يكون بالضرورة مرتبطا بنشأتهم الطبقية، وإنما بانتمائهم الايديولوجي أساساً. ولهذا قد يكون من التعسف الاعتماد على معايير الانتساب الطبقي وحده في تحديد الموقف الطبقي للمثقفين. وهنا تثار إشكالية الوجود والوعي في الطبيعة الطبقية للمثقفين. فقد يتطابق الوجود والوعي الطبقيان وقد يتعارضان. ولهذا تتحدد طبقية المثقفين بالموقف الذي يتخذونه من الصراع الطبقي الدائر في المجتمع عامة وفي مجال الثقافة والايديولوجية خاصة.

وقد يكون من المفيد في هذا الموضع من معالجاتنا لموضوع الثقافة والمثقفين أن نحدد الفرق بين الثقافة والايديولوجيا. فالثقافة في تقديري ليست مرادفة للأيديولوجيا. وقد يكون مفهومها أكبر من مفهوم الايديولوجيا. إن الثقافة تعني أولاً المعرفة بالمعنى الشامل للمعرفة، أي الامتلاك النظري أو التقني أو الوجداني لحقائق الواقع الطبيعي والاجتماعي والانساني عامة، وما يتضمنه هذا الامتلاك من انتاج وابداع كذلك في المجال النظري أو التقني أو الوجداني، أياً كان مستوى هذا الامتلاك وهذا الانتاج والابداع. على ان هذا الامتلاك والانتاج المعرفي يتعرضان دائماً في الممارسة الاجتماعية الى توجيه وتوظيف مصلحي طبقي. وهذا ما يحوله من مجال المعرفة الى مجال الايديولوجية. فالايديولوجية هي نسق من الأفكار والقيم والسلوك المعبرة عن مصالح طبقة من الطبقات الاجتماعية. .

وبرغم التمايز بين المعرفة والايديولوجية، فما أعمق التداخل بينهما. فتطور المفاهيم والمنجزات المعرفية عامة، سواء على مستوى العلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو الابداع التقني أو الأدبي والفني والفكري، مشروط بالتطور في الأوضاع والعلاقات الاجتماعية، وإن يكن في الوقت نفسه عاملاً من عوامل تطوير هذه الاوضاع والعلاقات نفسها.

وفي أسس اشد المعارف العلمية دقة وموضوعية قد نجد عناصر ايديولوجية

يسعى العلم دائما في تطوره الى التخلص منها أو تحديدها حسابيا على الأقل(12). والايديولوجية بدورها لا تحقق مصداقيتها أو فاعليتها المعنوية بغير الاستناد الى أساس معرفي، وذلك بتوظيفها الحقائق والمنجزات المعرفية توظيفا يضمن لها المصداقية والمشروعية. ولهذا ما أكثر المعارك الايديولوجية المحتدمة حول تفسير بعض نتائج العلوم الطبيعية (13) وما أكثر ما تؤدلج المعارف العلمية لخدمة أهداف مصلحية. هذا فضلا عن استخدام النتائج التكنولوجية للعلوم لخدمة أهداف ايديولوجية ومصلحية مختلفة، كاستخدام القنابل الذرية والنووية والاذاعة والتليفزيون ووسائل الاتصال وأجهزة التحكم السيبرنطيقي والمعلوماتية وعلم الجينات إلى غير ذلك.

ورغم هذا كله، يظل للثقافة جانبها المعرفي الخالص رغم طغيان الجانب الايديولوجي عليه. ولكن ما أكثر ما يكون لهذا الجانب المعرفي الخالص كذلك فاعلية ايديولوجيا بشكل مباشر أو غير مباشر.

فغاليلو لم يتعرض للمساءلة والمحاكمة لمجرد قوله بدوران الأرض حول الشمس ولخروجه على نسق فكري لعلاقات بنية فلكية مستقرة تتبناها الكنيسة، وانما لأنه بهذا النسق الفلكي الجديد الذي يقول به يخلخل نسق البنية الاجتماعية الطبقية السائدة آنذاك! ولقد عبر برتولد بريشت تعبيراً عن هذه الحقيقة في المشهد العاشر من مسرحيته " حياة غاليلية" (14).

ولهذا فإن الانتاج والابداع الفكري والعلمي والتقني والمنجزات المعرفية عامة، تتضمن بالضرورة إمكانات تغييرية بل تثويرية، لأنها اضافات إلى قوى الانتاج الاجتماعي والبشري بشكل عام التي تسهم بتطورها وتقدمها في تحقيق التفجيرات الاجتماعية التقدمية.

ولكن يبقى السؤال: من يسيطر على هذه المنجزات المعرفية، ولمصلحة من توجه وتوظف؟ فما أكثر ما تستخدم اليوم المنجزات التكنولوجية العظيمة لتحقيق السيطرة الامبريالية السياسية والاقتصادية والعسكرية والاعلامية والثقافية على العالم. ولعل هذا مايسم الثقافة والمثقفين عامة بالطابع الاشكالي الناجم عن هذا الازدواج بين المعرفة والايديولوجيا. وهنا تبرز قضية السلطة وعلاقتها بالمعرفة والثقافة بشكل عام.

فما هي السلطة وأعني بها بالتحديد السلطة السياسية أو الدولة وما علاقتها بالثقافة والمثقفين ؟

جدل السياسي والثقافي:

لا شك في مجال تحليل تفصيلي لمفهوم الدولة أو السلطة السياسية. وحسبنا أن نعرض لجانبها الذي يتعلق بموضوعنا العام وهو العلاقة بينها وبين الثقافة والمثقفين أو بتعبير آخر العلاقة بين ما هو سياسي وما هو ثقافي في بنية الدولة أو السلطة عامة.

إن الدولة هي مؤسسة سياسية معبرة عن علاقات الانتاج السائدة في المجتمع. ولهذا فهي مؤسسة طبقية أي تعبر عن سيادة طبقة بعينها أو سيادة تحالف طبقي بعينه. والدولة، وإن تكن تعبر عن طبقة

بعينها أو تحالف طبقي بعينه وعن مصالح هذه الطبقة أو التحالف الطبقي الحاكم، فإنها تسعى إلى ممارسة سلطتها باعتبارها التعبير السياسي الرسمي عن المصالح العامة للمجتمع كله بمختلف طبقاته وفئاته. إنها التعبير السياسي الرسمي عن المجتمع المدني عامة. ولهذا فهي تمارس سلطتها بوسيلتين أساسيتين: الأولى هي القمع. فالدولة في جوهرها سلطة قمعية، ولكنها لا تستطيع بالقمع وحده أن تحتفظ بسيادتها وسلطتها وأن تحقق مشروعاتها، وان تحصل على مشروعيتها أو على الاتفاق العام حولها الذي هو شرط ضروري لتحقيق توازن عام في المجتمع رغم ما يحتدم فيه من تناقضات وصراعات. ولهذا تلجأ إلى وسيلة ثانية هي الايديولوجيا تحقيقاً لهذه المشروعية أو الاتفاق العام أو التوازن الاجتماعي." وكل دولة لا تملك أدلوجة– على حد تعبير عبد اللّه العروي (15) – تضمن درجة مناسبة من ولاء وإجماع مواطنيها، لا محالة مهزومة".

وفي تحليل ابن خلدون لشروط قيام الدولة نجد هذا التشديد كذلك على جانبي القمع والايديولوجيا، الذي يعبر عنه ابن خلدون بالعصبية والدعوة. فالدعوة (16) الدينية من غير عصبية لا تتم كما يقول ابن خلدون. والحديث الشريف يقول:" ما بعث اللّه نبيا إلا في منعة من قومه". كما ان العصبية قد تكفي لتأسيس المُلك ولكنها لا تكفي وحدها لاستتباب المُلك واستدامته وقوته، ولهذا لا بد لها كما يذهب إبن خلدون من سياسة عقلية أو سياسة دينية (17).

ولعلنا نجد هذا التحديد لجانبي القمع والايديولجيا في بنية السلطة على مستوى رفيع من التدقيق النظري في تفرقة (التوسير) المشهورة بين سلطة الدولة القمعية وأجهزة الدولة الايديولوجية (18).

بالقمع والايديولوجيا إذن تتكامل للدولة قدرتها على إستقرار سلطتها وتوفير مشروعيتها وتحقيق مشروعاتها. وبهذا لا تكون الايديولوجيا مجرد أداة من أدوات الدولة، أو السلطة، بل تكون جزءاً عضوياً من بنيتها نفسها. ففي بنية الدولة أو السلطة تترابط وتتداخل وتتآزر الأجهزة القمعية والأجهزة الايديولوجية مع مجمل العملية الانتاجية الاجتماعية ليتحقق بهذا الترابط والتداخل والتآزر اعادة انتاج علاقات الانتاج السائدة، أي تكريس الطبقة أو تحالف الطبقات المالكة الحاكمة. وعندما نذكر الأجهزة الايديولوجية فلسنا نقصرها على تلك الأجهزة التي حددها (ألتوسير) وهي (19) الدينية والمدرسية والعائلية والتشريعية والسياسية والنقابية والاعلامية والثقافية بالمعنى التقليدي للثقافة من أدب وفن ورياضة وغير ذلك. وإنما تمتد بمفهوم الايديولوجيا بحسب المفهوم الذي حددناه من قبل للمثقفين ليشمل مختلف مجالات الانتاج والابداع المعرفي والتقني والعملي والوجداني على السواء. وهكذا تتخلل الايديولوجيا مختلف مجالات التخطيط والعمل والادوات والتوجيه والاعداد والتنفيذ في بنية الدولة كمؤسسة تهيمن على مشروع كبير هو المجتمع، ويتم انتاج هذه الايديولوجيا

وتبنيها واستيعابها وتوظيفها توظيفاً عاماً عن طريق العاملين في مختلف هذه المجالات على اختلاف مستوياتها المعرفية والوظيفية.

وبرغم الدور الكبير الفاعل الذي تلعبه المعرفة –الايديولوجيا ويلعبه المثقفون عامة الحاملون لهذه المعرفة –الايديولوجيا في ادارة الدولة وتوجيه المجتمع كله وتوحيده تحت سيطرتها، وبالتالي المساهمة في إعادة انتاجها، إلا أن المثقفين من حيث أنهم مثقفون ليسوا هم القوة المسيطرة المهيمنة في بنية الدولة كما يزعم بعض الباحثين (20). إن أساس السيطرة والهيمنة في بنية الدولة هو القوة المالكة لوسائل الانتاج. إن الذي يملك هو وحده الذي يحكم ويتحكم في التحليل الأخير (21). وهذا ما يقيم بين ما هو سياسي وما هو ثقافي داخل بنية الدولة وفي المجتمع عامة إشكالية حادة. أقول إشكالية ولا أقول ثنائية. فهناك فارق دقيق ومهم بين الأمرين.

إن الدولة تدرك إنه لا سلطة سياسية لها، ولا مشروعية ولا أخلاقية ولا اخضاع للمجتمع المدني ولا تكريس لسيطرتها وامتلاكها وسائل الانتاج بغير امتلاكها السلطة الثقافية، أي المعرفة – الايديولوجيا (ولهذا تسعى دائما الى انشاء المعابد والكنائس والمساجد (22) ودور البحث العلمي والتعليم (23) ووسائل الاعلام الجماهيري والأجهزة الثقافية المختلفة، وتحرص دائما على تنشئة قوى المعرفة المعنوية والفنية والتقنية والادارية وتجنيدها واستيعابها وتوجيهها لتكريس سلطتها وإعادة انتاج علاقات الانتاج القائمة السائدة. إلا أنه برغم هذا كله فإن السلطة السياسية لها الأولوية (24) والهيمنة على جميع تجليات المعرفة –الايديولوجيا، وذلك قيام هذه السلطة السياسية أساساً على قاعدة محددة هي الملكية لوسائل الانتاج في المجتمع. ولهذا فجوهر التناقض والثنائية ليس بين السياسي كسياسي والثقافي كثقافي، وانما بين المالكين وغير المالكين وإن اتخذ هذا مظهر التناقض والثنائية بين السياسي والثقافي.

والمثقفون بينهم مَنْ هم من المالكين وبينهم مَنْ هم من غير المالكين. ولهذا فالتناقض الأساسي والثنائية الحادة لا تقوم بين السلطة من حيث إنها سلطة سياسية مهيمنة، والمثقفين من حيث أنهم مثقفون، وإنما يقوم التناقض وتقوم الثنائية أساساً بين ثقافتين وايديولوجيتين أي بين موقفين وموقعين طبقيين. ومن ثم فليس ثمة ثنائية بين المثقفين والسلطة، وان قامت بينهما كما سبق ان أشرت علاقة اشكالية، يمكن تحديدها في النقاط الآتية :

أولا: إن العديد من المثقفين داخل السلطة –المجتمع عامة –يدركون أنهم جزء من هذه السلطة –المجتمع، وانهم يسهمون بإنتاجهم وعملهم بمختلف أشكاله ومستوياته في تكريس وإعادة إنتاج هذه السلطة – المجتمع . إلا أن الأغلبية منهم تعي كذلك بدرجات متفاوتة من الوعي – الذاتي أو الموضوعي، المنظم التلقائي – بأنهم موضع استغلال واستبداد من جانب هذه السلطة – المجتمع، التي يكرسونها، وإنهم في

مستويات دنيا من السلم الاجتماعي رغم ما يقدمونه من انتاج.

ثانيا: إن العديد من المثقفين يعانون في كثير من الأحيان وبدرجات متفاوتة كذلك التناقض بين معارفهم وممارساتهم العلمية والتقنية والادارية، هذا التوظيف الذي يرفضونه إخلاقياً أو فكرياً بدرجات متفاوتة كذلك. (وما أكثر الأمثلة على ذلك، لعل أبرزها علماء الطبيعة الذين يشاركون في صناعة القنبلة الذرية، ويرفضون ما يرتبط بها من سياسات عدوانية وتدميرية، أو أطباء السجون الذين يطلب منهم المشاركة في عمليات تعذيب سجناء الرأي، أو المدرسون وخاصة في مدارس ما قبل الجامعة، بل الجامعيون أحياناً، الذين تفرض عليهم برامج تعليمية تتعارض مع ما يعرفونه من حقائق اجتماعية – وتاريخية أو العسكريون والديبلوماسيون الذين يفرض عليهم خوض معارك أو الرضوخ لمعاهدات صلح لا يوافقون عليها ...الخ.

ثالثا: في الوقت الذي تسعى فيه السلطة السياسية إلى تنمية المعرفة النظرية والعلمية والتقنية عامة لتدعيم مكانتها وتحقيق مشروعاتها، فإنها تدرك في بعض الأحيان ان تنمية هذه المعرفة من ناحية أخرى في هذا الفرع من المعرفة أو ذاك ليس لها أهمية في تنمية مصالحها الطبقية الخاصة، وقد تعي كذلك أن تنمية هذه المعرفة سوف تضاعف من قوى الانتاج بما لا يتفق مع علاقات الانتاج القائمة. ولهذا تسعى السلطة في هذه الحالة الى إهدار جوانب معينة من الخبرات العلمية والمعرفية وتهميش حامليها من المثقفين وتحويلهم الى موظفين بيروقراطيين. وقد تبدو امتدادا لهذه السياسة ظاهرة تنمية وتشجيع الاتجاهات اللاعقلانية في البلاد في الوقت الذي تحتاج فيه هذه البلاد الى المزيد من العقلانية والى ترسيخها في تنظيم مختلف مؤسساتها الوليدة. بل قد يبدو التقاعس في كثير من هذه البلاد عن حل قضية الأمية حلا جذرياً، وتستطيع الثقافة العامة – وتحويل المثقفين عامة الى موظفين مكتبيين بيروقراطيين وتشجيع مظاهر الابتذال والنظرة البرجماتية النفعية الفردية – أن تكون امتداداً كذلك لهذه السياسة التهميشية للثقافة والمثقفين.

رابعا: داخل بنية الدولة الواحدة هناك اختلافات عديدة في المنهج وأسلوب العمل وطبيعة الرؤيا بين أصحاب النظرة الآنية الجزئية المتطلعة الى المكاسب السريعة، وبين أصحاب النظرة الشاملة والكلية، بين أصحاب المنافع المباشرة، وأصحاب الأهداف البعيدة المدروسة، بين السياسيين العمليين الذين يتعاملون بالمناورة وبين الخبراء والعلماء المدققين، بين أصحاب الثقافة العامة وأصحاب الثقافة المتخصصة، بين أصحاب النزعة الفردية الاستعلائية الاستبدادية وأصحاب النزعة الليبرالية إلى غير ذلك.

خامسا: برغم الايديولوجيا الواحدة المعبرة عن مصالح الطبقة أو الطبقات الحاكمة، فإنه داخل بنية الدولة، العديد من التعريفات الايديولوجية المختلفة النابعة من تعدد الفئات الاجتماعية داخل التحالف الطبقي الحاكم، والنابعة كذلك من اختلاف

الـوظـائف والخبـرات والممـارسـات والمستويات الثقافية أو الاجتماعية في السلم السلطوي، وأحيانا كذلك نتيجة للاختلاف النسبي في المواقف من بعض القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونتيجة للاختلافات في مصدر الثقافات، كأنه يكون مصدرا غريباً خالصاً ، محلياً وطنياً أو مصدراً تراثياً تقليدياً.

سادسا: برغم المظهر الليبرالي في الممارسات السياسية والاجتماعية في بعض البلاد النامية عامة والعربية خاصة فإن الطابع الجوهري الغالب هو انعدام الديمقراطية واهدار الحقوق الأساسية للإنسان وسيادة القوانين الاستثنائية الباطشة وانعدام الحوار الاجتماعي وعدم احترام التعددية الفكرية والسياسية بالمعنى الحقيقي لها، والانفراد في إصدار القرارات من أعلى السلم السلطوي دون مشاركة شعبية ديمقراطية مما يفضي الى تجميد النشاط الفكري وعزلة وسلبية المثقفين المتخصصين بوجه خاص. ولا تعبر هذه الصورة عن الوضع الاجتماعي العام فحسب، وإنما تعبر كذلك عن آليات العمل وطبيعة العلاقات داخل أبنية السلطة نفسها، وعن العلاقة بين هذه البنية والمجتمع عامة.

هذه في تقديري بعض المظاهر المعبرة عما نسميه بإشكالية العلاقة بين المثقفين والسلطة، بين الثقافي والسياسي. على أن هذه الظواهر ليست تعبيراً عن تناقض حاد أو ثنائية استبعادية بين المثقفين والسلطة. ذلك أنها إشكاليات قائمة داخل كتلة تاريخية –اجتماعية واحدة على حد تعبير غرامشي، تكشف عن مدى ما يحتدم داخل هذه الكتلة الواحدة من اختلافات وصراعات وثغرات. ولا شك في أهمية هذه الاشكالية وجدية هذه الظواهر المعبرة عنها، الأمر الذي يحتم العناية بها والاستفادة منها في تنمية وتطوير وانضاج الصراع الاجتماعي عامة. إلا أنها لا تعبر –كما أشرنا –عن ثنائية استبعادية بين المثقفين والسلطة. وعندما يركز بعض الكتاب والباحثين على هذه الظاهر ويقتصرون عليها ويتخذونها أساسا للقول –بالثنائية بين المثقفين والسلطة ، فإنهم بهذا إنما يسهمون في إخفاء حقيقة المثقفين وحقيقة السلطة وحقيقة الصراع الاجتماعي عامة. ولهذا تأتي مقترحاتهم بشأن هذه الثنائية المزعومة بين المثقفين والسلطة دعوة الى ملء الفجوة أو تجسير العلاقة بينهما، أي الدعوة التوفيقية بين المثقفين والسلطة .

والواقع أن التناقض الحاد والثنائية الاستبعادية لا يقومان –كما سبق أن أشرنا –بين المثقفين كمثقفين، والسلطة كسلطة، وإنما يقومان أساساً بين الحاكمين المالكين والمحكومين غير المالكين. ومن المثقفين من هم في زمرة الحاكمين المالكين ومنهم من هم في زمرة المحكومين غير المالكين سواء كان ذلك انتساباً طبقياً فعلياً أو انتماء ايديولوجياً. أو بتعبير آخر إن الثنائية تقوم أساساً بين سلطة ومثقفيها، سلطة قائمة بالفعل، وسلطة ومثقفيها، سلطة ما تزال بالقوة أي إمكانية مناضلة. وهكذا نعود مرة أخرى إلى

القضية الجوهرية في هذا الموضوع وهي قضية الصراع الطبقي في مجال الثقافة (المعرفة –الايديولوجيا).

والحق أن هذا الصراع لا يتمثل في جيشين يواجه كل منهما الآخر عند حد فاصل بينهما. قد يكون من الجائز أن نقرر هذا نظرياً على نحو تجريدي خالص. أما في الواقع الملموس الحي فما أشد التداخل عمليا وفكريا عبر هذا الخط الفاصل. وفي ضوء تعريفنا السابق للمثقفين نستطيع القول بأن الغالبية العظمى من المثقفين داخل بنية الكتلة التاريخية – الاجتماعية المرتبطة بالسلطة، سواء كانوا عاملين داخل أجهزة الدولة نفسها، أو كانوا خارجها (25). ولا يوجد من المثقفين خارج السلطة أو خارج كتلتها التاريخية اللهم إلا هؤلاء الذين يتناقضون تناقضا فكرياً معها ويناضلون نضالاً سياسياً من أجل تغييرها تغييراً جذرياً، سواء كانوا عاملين داخل أجهزة الدولة نفسها أو كانوا خارجها، فالوجود داخل السلطة أو خارجيا يتحدد بالموقف الفكري والسياسي أي يتحدد بحالة الوعي وليس بحالة الوجود .

وعلى هذا، فإن الصراع بين الجيشين الطبقي الايديولوجية لا يدور في شكل مواجهة مباشرة، وإنما في قلب الجيشين كذلك. ففي قلب جهاز الدولة المعبر عن الطبقة أو الطبقات الحاكمة المالكة، تدور ما تشبه الحرب الأهلية الصامتة بين فئات اجتماعية مختلفة وتيارات فكرية مختلفة بعضها فروع من تيار رئيسي سائد، وبعضها الآخر فروع من تيار مناقض لايديولوجية الطبقة الحاكمة ولكنه منعكس داخلها ومؤثر فيها من خارجها.

وفي هذه الحرب الأهلية الايديولوجية داخل بنية الدولة، هناك امكانيات لقيام تحالفات موضوعية متنوعة بين القوى التي تعبر عن الظواهر الاشكالية داخل البنية نفسها، وبين القوى المتناقضة تناقضا جذريا مع هذه البنية والتي هي امتداد داخل هذه البنية نفسها لقوى جديدة خارجها تناضل من أجل إقامة سلطة جديدة. على ان هذه الحرب الايديولوجية الدائرة داخل قلعة الدولة، لن تستطيع – كما يزعم بعض الباحثين –تغيير وتدمير سلطة الايديولوجية الرسمية من داخلها. فمهما استقل بعض أساتذة الجامعات أو طلبة الدراسات العليا مثلاً بايديولوجيا خاصة بهم مناقضة جذرياً لايديولوجيا الطبقة أو السلطة السائدة، وراحوا يروجون لها داخل الجامعات وخارجها، فلن يستطيعوا بهذا وحده – مع أهميته وفاعليته –هزيمة الايديولوجية المهيمنة.

ولعل مصير حركات الدارسين للعلوم الاجتماعية والطلبة عامة في سنوات 1964 و 1968 في أمريكا وأوروبا أن تكون درساً بليغاً في هذا الشأن. وكذلك الأمر بالنسبة لنمو دور التكنوقراط والخبراء الفنيين والمديرين عامة داخل الأجهزة المختلفة للدولة. فمهما تصاعدت الأهمية البالغة لدورهم داخل هذه الأجهزة، ومهما تعارضت خبراتهم المعرفية ومواقفهم الايديولوجية بشكل أو بآخر، بمستوى أو بآخر مع الممارسات السلطوية السائدة، سواء في المجال السياسي أو

الاقتصادي أو الاجتماعي أو الايديولوجي عامة، فلن يتمكنوا كذلك وحدهم من تحقيق تغيير ايديولوجي جذري في بنية الدولة ولهذا فالقول بثورة المديرين أو بسلطة التقنيين ينطوي على رؤيا محدودة شكلية لآليات التغيير الاجتماعي. وكذلك الأمر بالنسبة لمختلف القوى الثقافية المتخصصة من مفكرين وعلماء ومبدعين إلى غير ذلك. إنهم قوى تنويرية بغير شك، ولكنهم وحدهم لن يستطيعوا أن يكونوا قوى تغييرية. وأقصى ما يمكن أن تحققه هذه القوى المعارضة داخل بنية الدولة – المجتمع، هو إحداث بعض التغييرات والتجديدات الاصلاحية.

ولكن لا سبيل إلى تغيير جذري داخل البنية الايديولوجية السائدة للسلطة إلا بمساندة وتوجيه السلطة الايديولوجية الصاعدة المناقضة لهذه السلطة السائدة، أي هذه الكتلة التاريخية الجديدة وقواها السياسية الفاعلة التي تنمو في مواجهة السلطة السائدة وفي استقلال وتمايز بنيوي وآيديولوجي عنها وإن تواجدت داخلها فضلاً عن الارتباط خارجها بحركة جماهيرية منظمة وواعية ونشطة. على أن قوى هذه السلطة الايديولوجية المناقضة للأيديولوجية السلطوية السائدة أو هذه الكتلة التاريخية الاجتماعية الصاعدة نفسها ، معرضة كذلك لاختراقات وتأثيرات ايديولوجية معاكسة تهدف إلى خلخلة وحدتها وإضعاف تحالفاتها وتزييف وتشويه مفاهيمها وعرقلة حركتها وفاعليتها ومحاولة استيعابها وأسرها ايديولوجياً في قلعة السلطة القائمة المهيمنة.

هذه هي الخريطة المتداخلة المتعددة المستويات لبعض مظاهر الصراع الطبقي في مجال الثقافة (المعرفة –الايديولوجية)، الذي يدور أساساً على قاعدة الملكية، وليس على مجرد التعارض والثنائية بين المثقفين والسلطة.

ومن هنا كذلك يبرز معنى الثورة الثقافية كعملية ضرورية حاسمة في كل ثورة اجتماعية حقيقية. إنها التغيير الجذري للأبنية الثقافية المتخلفة السائدة في السلطة والمجتمع، من مفاهيم ومعارف ومناهج وقيم وأذواق وأشكال سلوك وعادات، وبغير هذا التغيير فلا حياة ولا مستقبل لأي ثورة اجتماعية حقيقية في أي مجال من مجالاتها وممارساتها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية .

تجسير أم تكسير أم تغيير؟

إلا ان الثورة الثقافية مهمة اجتماعية شاملة مرتبطة بالسلطة الثورية. إنها التجذير الحقيقي للسلطة الثورية الجديدة، ولكنها لا تتحقق بدونها. فلا ثورة ثقافية بدون سلطة ثورية. ولهذا ما أكثر ما ميزتُ في دراسات سابقة بين الثورة الثقافية والثقافة الثورية. فإذا كانت الثورة الثقافية لا تتحقق بدون سلطة ثورية، فإن الثقافة الثورية هي التمهيد الضروري لتحقيق السلطة الثورية، وبالتالي للثورة الثقافية.

وفي مثل ملابساتنا وأوضاعنا العربية الراهنة، فإنه من المثالية بل من الغفلة أن نسعى لتحقيق ثورة ثقافية وأقصى ما نتطلع إليه هو تنشيط وتنمية الثقافة الثورية

والتقدمية بل العقلانية والعلمية عامة. فكلمة الثورة قد أخذت تغيب عن حياتنا لا في علاقتها بالثقافة فحسب، وأخذت تحتل مكانها كلمات ومفاهيم اخرى مغايرة ومعاكسة مثل التصالح والتطبيع والعلاقات الخاصة مع اسرائيل، ومثل المفاهيم الاستسلامية والامتثالية والنفعية واللاعقلانية والانفتاح والتوفيقية والمثالية والهروبية والاستهلاكية إلى غير ذلك.

وقد لا يكون المجال متسعاً لتحليل بعض المفاهيم والمواقف الايديولوجية في حياتنا الثقافية الراهنة. وحسبنا أن نعرض لموقفين فحسب من هذه المواقف لارتباطها ارتباطاً مباشراً بموضوعنا.

فهناك أولاً الدعوة التي أخذت ترتفع هذه السنوات الأخيرة، والتي أشرنا إليها إشارة عابرة من قبل، هذه الدعوة التي يحمل لواءها سعد الدين ابراهيم والتي تدعو بل تعمل كذلك على تجسير الفجوة بين المثقف والأمير ، أو بين المفكرين العرب وصانعي القرارات (26). وتستند هذه الدعوة في الحقيقة إلى بعض المقولات التي تكتفي بمناقشة اثنتين منها هما أبرزها. تذهب المقولة الأولى الى ان السياق العربي الراهن تتركز سلطة القرار فيه (في المسائل الكبرى) في يد شخص واحد هو الملك أو الرئيس أو الحاكم. وهذا صحيح بغير شك في أغلب النظم العربية ولكن من حيث المظهر. الا ان القرار في الحقيقة وإن صدر عن فرد بل وإن استند كذلك الى نخبة من الخبراء المتخصصين، فهو من الناحية الموضوعية ليس تعبيرا عن إرادة ومصلحة هذا الفرد وحده، أو عن حكمة وثقافة هؤلاء الخبراء المتخصصين فحسب، بل هو عن ارادات ومصالح اجتماعية طبقية أكبر تتركز في هذا الفرد أو هؤلاء الخبراء ويضعها هذا الفرد وهؤلاء الخبراء في اعتبارهم عند اتخاذ القرار. هذا بالطبع لا ينفي امكانية قصور التقدير أو التعسف أو الخطأ الذاتي أو الموضوعي في إصدار هذا القرار أو ذاك، او تعارض مع هذه الفئة الاجتماعية أو تلك من الفئات المالكة الحاكمة. انني أتحدث عن القانون الاجتماعي العام الذي يستبطن اصدار القرار في المسائل الكبرى. فالتصالح مع اسرائيل مثلاً لم يكن مجرد قرار بادر باتخاذه فرد هو أنور السادات، أو نتيجة استشارية لنخبة من الخبراء والمتخصصين تعبيراً لمصلحته الشخصية فحسب، وإنما كان تعبيراً عن تغيير في البنية السياسية والاقتصادية والايديولوجية في السلطة –والمجتمع. ولهذا فمن التبسيطية أن يتقلص اصدار القرار في المسائل الكبرى في فرد أو نخبة (27).

أما المقولة الثانية، فهي تقليصه كذلك للمثقفين في المفكرين وحدهم وتقليصه للسلطة في الحاكم، ثم تمييزه بين المفكر والأمير (أو الحاكم) تمييزاً يقتصر على منهج معالجة الأمور، ضارباً عرض الحائط أي اختلاف مصلحي طبقي أو آيديولوجي بينهما، فالحاكم في رأيه يتعامل مع النسبي والجزئي والملموس والممكن، على حين أن المفكر يتعامل مع العام والكلي وما ينبغي أن يكون.

وهكذا نتبين التبسيطية والتسطيحية في

تقديم كل من الأمير والمفكر مما يساعد على تقديم حل مباشر لأزمة الثنائية بينهما وهذا الحل هو تجسير ما بينهما من فجوة وتحقيق التلاقي الوظيفي بينهما، الذي يرشد سلوك الحاكم بحكمة المفكر .

ويطرح سعد الدين ابراهيم لهذا ثلاثة جسور: الأول جسر ذهبي. والثاني جسر فضي والثالث جسر خشبي. الجسر الخشبي هو الحد الأدنى الممكن في الملابسات العربية الحالية الذي يتيح ازالة الصراع أو الثنائية القائمة بين المفكر والحاكم. ولنكتف بقراءة دور المفكر بإقامة هذا الجسر الخشبي. وتمثل هذا الدور في الآتي:

(1) بلورة السياسة دون تحديد الأهداف الذي يظل من حق الحاكم وحده.

(2) ترشيد القرارات التنفيذية من حيث التوقيت والاخراج والاتساق مع قرارات أخرى سابقة أو محتملة وتحسب التداعيات المحتملة.

(3) إضفاء نوع من الشرعية على السياسات والقرارات التي يستقر عليها الحاكم لتسهيل قبولها جماهيريا وذلك بتفسيرها وتبريرها للرأي العام على أساس انها صنعت بأفضل الوسائل العلمية الموضوعية.

وهكذا نلاحظ التبريرية لمشيئة الحاكم باستخدام المعرفة العلمية نفسها. وتأكيداً لهذا الموقف التبريري (أو الترشيدي لو أردنا ان نتجنب الحكم الايديولوجي) يتساءل د.سعد الدين إبراهيم –ماذا يفعل المفكر اذا اختلف مع ما يطلبه منه الحاكم. ويرد الدكتور سعد الدين :" فليعتذر عن ذلك بأدب ودون شوشرة اعلامية".

وهكذا لا يكتفي فحسب بموقف التبرير وإنما يدعو كذلك إلى تجنب موقف النقد والاختلاف الصريح..إنه جسر سري إذن داخل سلاملك أو حراملك قصر المفكر والأمير.

على أن بعض الباحثين ترميما لهذا الجسر بين المثقفين والسلطة –يدعون الى استكماله بجسر آخر بين المثقفين والجماهير، كإنما هم غافلون عن أن هذا الجسر المطلوب إقامته بين المثقفين والسلطة إنما هو نفسه الجسر الذي ستسير فوقه السلطة للسيطرة على الجماهير.

ويعترض بعض الباحثين العرب على هذا التجسير، ويرون أن الأمر ليس في حاجة الى دعوة إلى هذا التجسير، فالجسور القائمة بالفعل بين المثقفين والسلطة، وهي ليست جسورا ذهبية أو فضية أو خشبية، بل هي جسور بلورية، أي انها جسور لا ترى. " ولهذا فالمطلوب ليس المزيد من الجسور وإنما التقليل منها " (28). التقليل منها أو كسرها؟! نعم، هناك من المثقفين من يقفون موقفاً على النقيض تماماً من موقف التجسير، إذ نراهم يطالبون بتكسير العلاقة بين المثقفين والسلطة لا تجسيرها. واذا كانت الدعوة إلى التجسير هي دعوة توفيقية تبريرية، فإن الدعوة الى التكسير برغم ما تتضمنه من روح نقدية غاضبة، فهي دعوة مثالية. نجد هذه الدعوة في كلمة لأمين عز الدين (29) يشكو فيها من أن الخبراء العرب يقدمون العديد من الحلول الرشيدة لمختلف

المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المتراكمة " والتي لا تكاد تمس من قريب أو بعيد أسس المجتمع الراهن أو تهدد كيانه " ورغم هذا فإن هذه الجهود تواجه دائما بالرفض الرسمي وهو ليس رفضاً صريحاً بل هو " رفض غامض خبيث ". وينتقد أمين عز الدين المواقف الانسحابية أو التوفيقية لبعض الخبراء إزاء هذا الرفض الرسمي ويرى أن الموقف الصحيح هو أن يعلن الخبراء العرب رفض المشاركة في أي مؤتمر ما لم تعلن الحكومات التزامها بتنفيذ الحلول، وإدانة موقف الحكومات، وخلق تيار للخبرة العربية المتحررة داخل كل قطر عربي وعلى المستوى القومي يتجه بالحلول إلى الجماهير. ومع أهمية الدعوة الأخيرة هذه، التي تحتاج بغير شك إلى أن تتشكل في مؤسسات مستقلة، فإن الدعوة بشكل عام لا تمس جوهر البنية السلطوية القائمة.

وفي امتداد لهذه الدعوة وإن يكون على مستوى أكثر موضوعية وأشد عمقاً وحسماً من الناحية الايديولوجية نموذج المثقف الجديد الذي يعلن عبد اللطيف اللعبي عن وجوده بشكل ما زال جنينياً، ويكاد يجد فيه المستقبل –الأمل. وهو " مثقف قطع علاقته مع جميع السلط... ويقوم بالاضطلاع الأمين بعمله كمثقف... عمله لا مرئي وصامت بالضرورة ولكن هذا العمل يبقى رغم هذا محاولة جريئة لمقاربة الحاضر والماضي ورهاناً على المستقبل ... وهكذا ربما لأول مرة يستطيع الابداع الفني والنظرية أن ينطلق من اشكالية الخاصة وأن يعيد الارتباط الواقع العاري والعميق دون أن يعبر صراط السلطة وكواليسها (30). وبرغم هذه القطيعة الكاملة بين المثقف والسلطة، يحرص عبد اللطيف اللعبي على عدم الخلط بين هذه القطيعة وبين علاقة المثقف بالسياسة." إننا نرفض الفصل المتعسف بين السياسي والثقافي. ولكننا حريصون على بيان خطورة عدم التمييز بينهما. المهم قدرة المثقف على الاحتفاظ بالتوازن الصحيح والاحتفاظ بمهمته التي تكمن في تعريفه الواقع ونقد الأفكار والممارسات التي تحتجز حرية الكلام والذهاب والاياب بين الممارسة والنظرية " (31).

ولا شك في أن هذا النموذج للمثقف الذي يقدمه عبد اللطيف اللعبي يكاد يقتصر على المثقف المفكر والمبدع، وعلى دوره الابداعي النقدي . وبرغم الأهمية البالغة لهذا الدور، فإنه يكاد يغلب عليه الطابع الفردي مما يكاد يجعله مستهدفا للاتهام بالانعزالية والنخبوية كما يؤكد هذا عبد اللطيف اللعبي نفسه.

ولا تبدو العلاقة بين المثقف والسياسة التي يحرص عليها عبد اللطيف اللعبي إلا في اطار الدور الابداعي النقدي وحده، مما يؤكد هذا الطابع الفردي الانعزالي حتى في مجال الممارسة .

ولا شك في أن من الضروري التمييز بين السياسي والثقافي نتيجة لغلبة الطابع الايديولوجي العملي على السياسي ،وغلبة الطابع المعرفي النظري على الثقافي.

ولكن هل يصل هذا التمييز الى حد الفصل بينهما في مجال الممارسة حماية للطبيعة الخاصة بالثقافي؟ وهل يمكن أن

يتحقق هـذا، أو تتحقق هـذه القطيعـة بين المثقف والسلطة في إطار المفهوم الواسع للمثقف الـذي سبق أن عـرضنـا له؟ وهل بالتجسير أو التكسير أو القطيعة يمكن أن نصحح العلاقة بين الثقافي والسياسي؟ بين المثقفين والسلطة، وأن يلعب المثقفون بهذا دوراً إيجابياً فعالاً في تغيير الأوضاع المتردية الراهنة التي تعانيها بلادنا العربية؟!

الحق انه لا ثنائية بين المثقفين والسلطة، بحيث تقوم الدعوة الى تجسير الفجوة بينهما أو إلى توسيعها وتعميقها. إن أغلبية المثقفين العرب أصبحوا اليوم موضوعياً –بوعي أو بغير وعي – شعراء بلاط (32) ووعاظ سلاطين وأدوات تبرير وترشيد لسياسات وأوضاع النظم العربية القائمة، وإضفاء مشروعية زائفة عليها، سواء كانوا داخل بنية السلطة أو خارجها. وفي ظل هذه الأوضاع المتردية، والأزمة المتحكمة لهذه النظم التي أخذت تفقد مصداقيتها وتتزايد تبعيتها للتقسيم الدولي للعمل، كما يزداد تواطؤها السياسي والعسكري والثقافي فضلاً عن الاقتصادي مع المشروع والإستراتيجية الاسرائيلية الأمريكية، أصبحت هذه النظم تحتاج أكثر فأكثر الى اخضاع الجانب الثقافي المعرفي للجانب السياسي الايديولوجي، وتسطيح المثقفين داخل السلطة وخارجها وتحويل الفنيين منهم الى أدوات بيروقراطية أو مجرد تقنيين مفرغين من الرؤية الاجتماعية الشاملة، والوعي السياسي الموضوعي، معزولين عن الفعل السياسي التغييري التجديدي، فضلا عن محاولة خنق العقلانية وروح النقد، والطاقات العلمية والإبداعية عامة.

وتلعب عوائد النفط دوراً كبيراً في تجنيد المثقفين واستيعابهم واستنفاد طاقاتهم تكريسا لهذه الأنظمة وإخفائها وتغييبها حقائق هذه الأوضاع. والمؤسف ان هذا لا تقوم به الأنظمة العربية فحسب، بل تمارسه كذلك بنشاط كبير – في ظل هذه الأنظمة– مختلف القوى الامبريالية العالمية وخاصة الأميركية باسم مكاتب الخبرة ومراكز الأبحاث والمعونات والبعثات العلمية.

والقلة من المثقفين العرب هم القابضون على الجمر، تمسكاً بوعيهم ومعارفهم العلمية ومبادئهم الوطنية والقومية والثورية، والمنخرطون بمستويات متفاوتة وفي مواقع مختلفة في النضال بالفكر والابداع والعمل العلمي من أجل تغيير هذه الأوضاع المتردية. على انه ليس بالنضال الثقافي وحده، أو نشر الثقافة الثورية وحدها –على الأهمية البالغة لذلك، يتحقق التغيير المنشود. وليس المثقفون وحدهم كمثقفين هم القوة (33) الاجتماعية القادرة على تحقيق هذا التغيير بل لا حماية ولا تطوير للثقافة كثقافة، بالعمل الثقافي وحده.

وإذا كان الثقافي يعاني من وطأة واستبداد السياسي المهيمن الراهن. فلا خلاص للثقافي ولا تحرير له إلا ببديل سياسي يحمل رؤيا ثورية للسلطة والمجتمع. ولهذا فلا سبيل للمثقفين كي يقوموا بدور ايجابي فعال في التغيير المنشود، بغير الانخراط في النضال

السياسي، بغير الانغراس في رحم المجتمع المدني وتجسيد المثقف الجماعي " على حد تعبير محمد برادة (34)، أي بغير الارتباط بقضايا الجماهير وحركتها والالتزام بالعمل التنظيمي السياسي . إن التنظيم السياسي هو المثقف الجماعي بحق كما يذهب إلى ذلك غرامشي. إن المشاركة في العمل السياسي (35) الثوري المنظم هو أرقى مشاركة للمثقف في تحقيق التغيير الاجتماعي المنشود. إن انخراط المثقف في العمل السياسي المباشر قد يسقطه أحياناً في الايديولوجيا العملية، في الشعارية والتسييس المسطح والتكتيكات الآنية. وهي إشكالية واردة دائماً ولا حل لها إلا بالوعي بها وبالنضال للسيطرة عليها والتخلص منها.

إن السياسة الجادة تحتاج للثقافة الجادة والثقافة الجادة لا حياة ولا تطوير لها بغير سياسة جادة.

على ان الانخراط في العمل السياسي الحزبي ليس شرطا لمشاركة المثقفين مشاركة فعالة في التغيير بل هناك مستويات مختلفة للمشاركة، مثل تغذية روح النقد وممارسته بشجاعة، وإشاعة العقلانية في المجتمع، وتنمية الانتاج المعرفي العلمي، والإبداعي والتصدي بحسم للأفكار الرجعية واللاعقلانية وإنشاء المؤسسات الفئوية والثقافية المختلفة المستقلة عن نفوذ وهيمنة السلطات والهيئات الأجنبية والنضال من أجل إرساء قواعد الديمقراطية وحماية حقوق الانسان الأساسية، والحرص على المشروعية العقلانية في ممارسة السلطة لوظائفها ومهامها، فضلا عن الارتباط بحركة الجماهير والتعرف الى همومها وخبراتها. إن مشاركة المثقفين في النضال لتحقيق هذه الأهداف والواجبات المختلفة هي إسهام جليل بغير شك في تنمية النضال وصولاً إلى الاهداف الثورية المنشودة. إلا أن العمل السياسي المنظم سيظل دائما هو الضمان الأساسي لتوحيد هذه الجهود المختلفة، والقوة الدافعة الموجهة لها في الطريق الصحيح.

إن الاسئلة العملية الكبيرة التي يحتدم بها الواقع لا يمكن حلها حلاً كاملاً في مجال الوعي (36) وحده، أو حلاً جزئياً متناثرا هنا وهناك، بل لا بد من حل عملي شامل لها في مجال الحياة الواقعية نفسها. هذا هو معنى العمل السياسي كضرورة حاسمة للتغيير والتجديد الثقافي المعرفي الاجتماعي عامة.

الهوامش:

(1) عنوان مقال للدكتور سيد ياسين. انظر مجلة قضايا عربية. فبراير 1980.
(2) محمود أمين العالم: المثقفون والسلطة. مجلة المصور (10 مارس1967)
كتاب " معارك فكرية" . دار الهلال . الطبعة الثانية – 1970– ص 295–304.
(3) محمد حسنين هيكل. أزمة المثقفين. القاهرة، ص 14 –15.
(4) المرجع والموضع نفسه.
(5) تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان عن حالة حقوق الانسان في الوطن العربي – القاهرة 1987، ص 18.
(6) حمزة مصطفى، المثقف والسلطة، مجلة المنار، مايو 1987، باريس. وان عاد بعد ذلك في مقاله إلى ابراز التداخل بين الدلالتين.
(7) A.Gramsci: Gramisci dans le Texte; Edition Social; p602,(1975)
(8) المرجع السابق، ص 599.
(9) أحمد صادق سعد: ندوة الانتلجنسيا العربية: القاهرة:28–31 مارس 1987(بحث: اشكالية التوصيف الاجتماعي للمثقف المصري).
ولعل هذا المفهوم حول المثقف المصري عبر الطبقي يلتقي مع مفهوم عبد اللّه العروي عن المثقفين في كتابه " ثقافتنا على ضوء التاريخ – الدار البيضاء – 1984". نقرأ هذه الفقرة" ان المثقفين العرب يكونون جماعة مستقلة نسبياً عن المجتمع وموحدة لأنها تحمل ثقافة مشتركة مجردة من عوامل التميز المحلية والزمنية. ويرى وضوح هذا في المؤتمرات العربية الراهنة حيث تلغى الميزات فتنفصل بالضرورة المشكلات الثقافية عن جذورها الاجتماعية" صفحة 174.
(10) التغير الاجتماعي والبنية الاجتماعية مقال في مجلة الدراسة الاجتماعية – عدد (1986) 2 دار الثقافة الجديدة – القاهرة .
(11) غرامشي : المرجع السابق ذكره ، صفحة 597.
(12) مثل مفاهيم الزمان والمكان والأثير في فيزياء نيوتن مثلاً التي تمتليْ بدلالات تشبيهية انسانية ولاهوتية. (راجع في هذا الفصل من كتاب (فلسفة المصادفة) محمود أمين العالم، دار المعارف)1990.
(13) مثل الاختلاف الايديولوجي في تفسير مبدأ "عدم التحديد" في الفيزياء المعاصرة (المرجع السابق).
(14) في المشهد العاشر من مسرحية "جاليليه" تعرض الجوقة لأغنية جديدة منتشرة عنوانها "النظام الرهيب والأفكار المخيفة الخاصة بالسنيور جاليلو جاليليه عالم الطبيعة ". ويقول منشد الجوقة في بعض المقاطع:

لما انتهى الرب القدير من خلق الدنيا
على الشمس نادى وإليها أصدر أمرا
بأن ترسل ضوءها حولنا وهي تدور
وهكذا جعل منها خادماً مطيعاً

*****

وهكذا بدأت تدور الكائنات الصغيرة حول الكبيرة
في السماء كما في الأرض
فحول البابا يدور الكرادلة
وحول الكرادلة يدور الأساقفة
وحول الأساقفة يدور الأمناء
وحول الأمناء يدور الآباء
وحول الآباء يدور الصناع

وحول الصناع يدور الخدم
وحول الخدم يدور الكلام والدواجن والشحاذون
هذا أيها السادة الطيبون هو النظام
النظام الالهي العظيم
*****
ولكن ماذا حدث بعد ذلك أيها السادة الطيبون
... جاء الدكتور جاليلو
فألقى بعيداً بالكتاب المقدس ثم صوب منظاره
وألقى على الكون العظيم نظرة
وللشمس قال: إبقي في مكانك
سيدير الإله الخالق
كل شيء على خلاف ما فعل
آه...أيتها السيدة ! حول خادمتك
ستدورين منذ الآن
الخ ... الخ
راجع حياة" جاليليه" ترجمة بكر الشرقاوي. دار الفارابي 1981 – صفحة 137 –138 .
(15) عبد اللّه العروي : مفهوم الدولة – ص 148 – الدار البيضاء – 1981 .
(16) ابن خلدون: المقدمة، ص 638 – الجزء الثاني – تحقيق د. علي عبد الواحد وافي . الطبعة الثانية – لجنة البيان العربي – 1966 .
(17) المرجع السابق : صفحة 687.
(18)Louis Altusser; Positions Editions social,80-83,1976
(19) المرجع السابق ، ص 83.
(20) J.Belkhir Les Intellectuels et le Pouvoir Ed. Anthropos,P,190,1981
(21) رغم تولي بعض المثقفين المتخصصين مراكز قيادية في المجتمع وكانت لهم نسبة عالية في الوزارات في تاريخ مصر في ما قبل ثورة 1952، فإن السلطة الفعلية كانت دائما لكبار ملاك الأراضي.
راجع: محمد اسماعيل علي : دور المثقفين في التنمية السياسية. جزء أول (صفحة 174 وما بعدها) القاهرة 1985.
(22) كان الأزهر مقراً للعديد من مهام السلطة حيث كان مركزاً رئيسياً للإعلام تتلى فيه الأوامر والمنشورات الرسمية. كما كان مقراً لعدد من دواوين الحكم. فالقاضي وعامل الخراج يمارسان وظائفهما في ذلك المسجد عن كتاب " الأزهر جامعاً وجامعة " لعبد العزيز الشناوي نقلا عن كتاب "دور المثقفين في التنمية السياسية" السابق ذكره ص71 – 72. وما زال الأزهر مصدراً رئيساً من الفتاوى التي تصبغ المشروعية الدينية على كثير من السياسات الرسمية.
(23) " نابليون هو منظم التعليم الثانوي والعالي في فرنسا ومؤسس البكالوريا ومنشئ المدارس العلمية العليا. كان التعليم فيه تحت مسؤولية الكنيسة فجعله تابعاً للدولة... واضح ان التعليم النابليوني مرتبط بالجيش والبيروقراطية والاقتصاد اذ يمد كل هذه الهيئات بالمهندسين والحقوقيين والمحاسبين والعمال المدربين" عبد اللّه العروي – مفهوم الدولة – المرجع السابق ذكره – صفحة 70.
(24) قد نختلف كثيراً مع ميشيل فوكو في مفهوم السلطة وطبيعة العلاقة بينهما وبين المعرفة، ولكن تبقى في كتاباته كثير من النقاط والملاحظات والاستنتاجات المهمة حول هذه العلاقة. راجع في هذا خاصة كتابه Volante Savoirوكتابه Surveiller وكتاب المفكر الفرنسي M.Foucault عن G.Deleuse.Les Editions de Minuit , 1986

(25)لعل هذا هو المعنى الذي قصده نادر الفرجاني بقوله" كل المثقفين خاضعون داخل السلطة بالمعنى العام" والذي قصده كذلك طاهر لبيب بقوله" أغلبية أهل المعرفة لا يمكن أن يكونوا إلا داخل سلطة يولدون في مؤسساتها ويتعيشون منها ويموتون فيها. هم فكرياً وايديولوجياً في ثقافة السلطة يمارسون سلطة ثقافية " وهو المعنى كذلك الذي قصده غسان سلامة بقوله" أصبح هناك صعوبة لأن تكون مثقفاً خارج الأطراف السياسية القائمة" . مجلة المستقبل العربي – مايو 1983. راجع ندوة: المثقفون والسلطة. مجلة المستقبل العربي، أبريل 1985 – بيروت ، وندوة " المثقف العربي ودوره وعلاقته بالسلطة والمجتمع" حلقة الرباط الدراسية (٤–٥ مايو 1985).

(26) سعد الدين إبراهيم تجسير الفجوة بين صانعي القرارات والمفكرين العرب، منتدى الفكر العربي . عمان – الاردن – ورقة عمل مقدمة للإجتماع السنوي الأول للهيئة العامة للمنتدى بتاريخ 23 نيسان 1984 .

(27) صدرت القوانين الأساسية التي جسدت سياسة الانفتاح الاقتصادي في مصر التي مثلت تحولاً خطيراً في سياسة مصر الاقتصادية عن مجلس الوزراء، وكان لأنور السادات والمجموعة الاقتصادية في مجلس الوزراء دور كبير في إصدارها. ولعب الشعب، كما لعبت الأحزاب دوراً محدوداً في ذلك. أما الدور البارز في اصدارها والترحيب بها فكان دور جماعة أصحاب المصالح (جمعية رجال الأعمال وغيرها) والقوى الخارجية. راجع في ذلك: أماني قنديل: صنع السياسات العامة في مصر : 1974 – 1981 ، رسالة مخطوطة.

(28) الطاهر لبيب: ندوة المستقبل والسلطة. مجلة المستقبل العربي – أبريل 1985 .

(29) أمين عز الدين: هل يتمرد الخبراء العرب، مجلة المستقبل العربي سبتمبر 1983. ولعل غسان سلامة يلتقي مع هذا الرأي في قوله " أفضل دور للمثقف من السلطة الآن أن يدير للسلطة قفاه ويوجه خطابه للناس وليس للسلطة". مجلة المستقبل العربي مايو 1983.

(30) عبد اللطيف اللعبي: المثقف العربي وإشكالية السلطة – مجلة الطريق اللبنانية – صفحة 90 – فبراير 1984.

(31) المرجع السابق، ص 90–91 .

(32) غسان سلامة: المرجع السابق . مجلة المستقبل العربي – مايو 1983.

(33) ولعلي أختلف في هذا اختلافا جذريا مع د. نديم البيطار الذي ينسب الثورات أساساً الى المثقفين عامة، ويرى أن كل ثورات القرن العشرين نفسها لم تكن ثورات بروليتارية بل ثورات قادها ونظمها مثقفون يعتمدون على الجماهير ويتحالفون معها. وقد رد حليم بركات على هذا رداً بليغاً . ففي رأيه" أن المثقفين لا يمكن أن يحققوا الثورة والمجتمع الثوري بالنيابة عن الطبقات الكادحة وبمعزل عنها ودون مشاركتها". ويذكر أن هذا هو أحد الأخطار الفادحة لما يسميه بالاشتراكية العربية. راجع ندوة الانتلجنسيا العربية المذكورة سابقا .

(34) محمد برادة: المثقف والسلطة – المستقبل العربي – أبريل 1985.

(35) حمود العودي: المثقفون في البلاد النامية: عالم الكتب . يتخذ الأستاذ العودي في كتابه هذا الانتماء للعمل السياسي المنظم وممارسته من خلال الأحزاب السياسية المحظورة وغير المحظورة كمقياس لثورية المثقفين، بل لمجرد ثقافتهم وخاصة في الخبرة اليمنية. ولكن هذا المقياس قد لا يجوز تعميمه حرفيا على المثقفين عامة في مختلف البلدان النامية.

(36) وحتى يتجلى هذا الوعي في صورة نقد لا يمس جذور هذه الأسئلة العملية، ولعل هذا ما عناه " معاوية" في قوله المشهور" انني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا ".

* النص متاح على الرابط الآتي : http://al-taleaa.net/pdf/a9102011.pdf

نصوص مترجمة

اليسار الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية❖ دروس سياسية من تجربة "ويسكونسن" و" أوهايو" وحركة "لنحتل الوول ستريت"

بقلم: جون نيكولز
ترجمة: رشيد غويلب

جون نيكولز: صحفي، وكاتب، ومن أوائل المدونين السياسيين الأمريكان، وناشط يساري. له العديد من الكتب والبحوث ويعمل مراسلا لعدد من الصحف. حاصل على شهادة الماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا، ولد في اطراف ولاية "ويسكونسن"، ويعيش الآن في مدينة "ماديسون" إحدى مدن الولاية.

"ويسكونسن" و"أوهايو" و حركة "لنحتل الوول ستريت" عناوين، في الولايات المتحدة الأمريكية، لشيء ما يحدث في اليسار. يمكن من خلال قراءته تسجيل تغيير نحو الأفضل. ولكن هذا التغيير لن يؤدي بالضرورة إلى تجديد السياسة اليسارية –أو الى تعريف جديد للسياسة الامريكية ، ويجعلك تشعر، بطريقة أو بأخرى، بأنه سيجعلها انسانية او مناسبة، على عكس ما نعرفه عنها من العقود الماضية. ولا يزال اليسار القادم، والذي ينشأ تواً يعمل في تقدم. وهذا ليس بالأمر السهل في الولايات المتحدة. وهو ما تدلل عليه ايضا تطورات العام الماضي في ولاية ويسكونسن.

هناك مشاكل اقتصادية وسياسية عميقة الجذور، تعرقل تقدم عملنا وتعقده. ومن الافضل الاشارة اليها منذ البداية وعدم اغماض العين عنها او التقليل من شأنها، حتى لا يتمكن اليمين من لعب ورقته. فما الذي اعنيه بذلك؟

1- ان المطبخ السياسي في امريكا يكاد يكون دائما تالفا. ويعتمد المرشحون والأحزاب على "تبرعات" الاغنياء ومجموعات المصالح الاقتصادية، حيث تتدفق المليارات من الدولارات على الحملات الانتخابية التي لا نهاية لها. و في كثير من الأحيان يفوز السياسيون الذين يخضعون لمطالب الأموال الكبيرة –علما أن قوة المال هي التي منحت قبل مائة عام اسما لحملات الانتخاب

السياسي، وهي التي افشلتها. ان الحملات الانتخابية في امريكا هي في الجوهر حملات تسويق، ينبغي ان تؤثر في الرأي العام عبر التوظيف الهائل للراديو والتلفزيون، ورسائل الانترنيت والرسائل البريدية، ولذلك حتى الحركات التي تخلق قوة هائلة في الشارع تفشل في صناديق الاقتراع. والناخبون الذين يجب ان يصوتوا وفق مصالحهم، يمكن ان يكون لهم سلوك انتخابي معكوس، مخدوعون بالحملات الساخرة التي تتلاعب في اللاشعور بالجمهور وحتى تضللهم علنا.

المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي يهيمن عليها اليمين، جعلت عبر سلسلة من القرارات حديثة العهد، من اليسير للشركات تحديد محتوى الحملات الانتخابية. وفي نفس الوقت عقدت بشكل كبير امكانية مساهمة النقابات في الفعل السياسي. ومن المفارقات ان يحدث هذا في الوقت الذي بدأت فيه الحركة النقابية تجديد نفسها من داخلها بقوة، بفعل تأثير حركة "لنحتل"، تجد النقابات نفسها في مواجهة اعتى القيود القانونية والسياسية على انشطتها لم تشهده منذ عقد الثلاثينيات من القرن الماضي.

2- وإذا لم تكن قوة المال هي التي تحدد الطبيعة المحافظة للحملات الانتخابية الأمريكية فان الهياكل القائمة ستؤدي الى النتيجة ذاتها. سواء كان ذلك على المستوى الوطني أو على صعيد الولايات أو البلديات، في كل مكان، يستند قرار الاختيار الى مبدأ الأغلبية البسيطة، بين مرشحي الديمقراطيين والجمهوريين. وخلافا لما يجرى في معظم البلدان الأوروبية، حيث تسمح الهياكل السياسية على الأقل بقدر من التعددية الحزبية، فان الانتخابات الأمريكية تنحصر هيكليا وعمليا بين حزبين ، يقف الاول في اقصى اليمين ، ويقف الآخر في أحسن الأحوال في الوسط ، وكلا الحزبين خاضع لسلطة الاقتصاد، و يسيطران ماليا وإعلاميا على النقاش العام. وتوجد في الواقع احزاب اخرى بديلة مثل حزب الخضر الذي يدعو لمبادئه على جميع الاصعدة. وقد استطاع الخضر ومجموعات أخرى مثل (حزب الأسر العاملة) في نيويورك، وحزب (فيرمونت التقدمي) تحقيق بعض النجاحات. ولكن بسبب هيمنة الحزبين على العملية السياسية، والصورة المشوهة التي توفرها التغطية الإعلامية لها، فان من الصعب في الولايات المتحدة مقارنة بالبلدان الأخرى، تحويل النشاط السياسي إلى نجاح انتخابي، اي الانتقال من الشوارع إلى صناديق الاقتراع. و لا شيء يعمل على تعزيز الوضع الراهن واستدامته مثل البنية السياسية، التي تضيق الخناق على المناقشات، وخيارات القرار. وبهذه الطريقة تتم عرقلة ترجمة النشاط السياسي الى قوة انتخابية، إلا اذا تمكنت الحركات من اختراق الأحزاب الكبيرة، وتفوز –ربما بدور مهيمن – وتأثر على عملية الترشيحات. وهذا ما نجحت فيه (حفلات الشاي) اليمينية المحافظة، الى حد ما، داخل الحزب الجمهوري.

3- اما الإعلام الامريكي الذي ينبغي ان يلعب دور الموازن للسلطة السياسية وسلطة المال، فإنه ينشط في كثير من الاحيان ككاتب اختزال لدى السلطة. ولكونه في الغالب مملوكا للقطاع الخاص، ومحكوماً

بأهداف تجارية، فانه يميل دائما للقيام بدور المتحدث باسم المصالح الاقتصادية، ويعمل، في المناقشات الاقتصادية، على نشر الاراء المحافظة.

الوضع اليوم أسوأ من أي وقت مضى، على الاقل اذا تعلق الامر بالتلفزيون والراديو والمطبوعات، التي تنخفض ايراداتها بسبب انتشار الاعلام الرقمي، والضغط الكبير المسلط على هيئات التحرير، التي تختفي ببساطة في كثير من الأحيان. فقد أغلقت في السنوات الأخيرة الكثير من الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية ابوابها. وفي مدن كبيرة مثل "سياتل" و "دنفر" توجد الان صحيفة واحدة، وتخلت مؤخرا)نيو أورليانز(عن نسختها اليومية المطبوعة، والتوقعات في جميع انحاء البلاد متشابهة في سوئها.

اما البرامج الإخبارية في التلفزيون فهي قليلة الميل الى عرض أخبار حقيقية، مقارنة باهتمامها قبل كل شيء بأخبار الطقس والرياضة، وقضايا الحياة النمطية. والقنوات الاخبارية قلما تنقل الاخبار الاصلية، وتفضل بث التعليقات حولها. وصفحات الانترنيت التي يتوقع المرء من خلالها الحصول على الأخبار يجري تمويلها بطريقة سيئة، بحيث يقل عدد الصحفيين العاملين فيها. وفي هذه الحالة فأنها تفضل تكرار المناقشات حول ذات المواضيع، وتساهم بشكل قليل جداً في تعزيز وصول المعلومة. وإذا ما كان من رسالة للإعلام الامريكي فإنها تتلخص على الاقل في الاعلان عن المبادئ المطلقة لحرية السوق، أما بخصوص علامات الضعف الاقتصادي فلديها جواب واحد: هو ضبط الميزانية العامة من خلال التقليص الهائل للمعونات، والهجوم على واردات العاملين ودخولهم.

4- ان الولايات المتحدة الامريكية بلد كبير وعميق الانقسام. وادى نموذج تطور الضواحي الى ان القسم الاكبر من السكان يعيش اليوم في تجمعات محلية، لا تصلها بالكاد انماط التنظيم التقليدية، ويعيشون في مناطق تتميز الى حد ما بضعف النقابات والمشاركة المدنية. ويؤدي ذلك الى تضييق مساحة حركة اليسار. وفي حين يميل الحزب الديمقراطي، في سان فرانسيسكو وديترويت، الى اليسار، فانه يظهر محافظا بشكل استثنائي في بعض الولايات الجنوبية والغربية. ويتبنى حكام الولايات ورؤساء البلديات الديمقراطيون برامج تقشف، وتقليص المعونات، والهجوم على الخدمات العامة، بحماسة لا تقل عن نظرائهم الجمهوريين.

ويمكن للحركات المحلية والإقليمية ان تذهب في مناقشات معينة بعيدا نحو اليسار، ولكن الحركات التي تعمل على النطاق الوطني تواجه صعوبات استثنائية في تطوير قاطرة نشيطة الحركة. ويخلق التخويف صعوبات لربط الحركات بين منطقة وأخرى، أو بين ولاية وأخرى، ومما يجعل المهمة ليست سهلة هو عدم وجود تشكيلات سياسية واضحة المعالم، فضلا عن فقدان حزب يساري قوي يوفر الزخم المطلوب.

وعلى الرغم من كل هذه العقبات، هناك شيء ما يحدث في جبهة اليسار. وهناك حركة سياسية تنمو في اليسار، وهي ليست مقترحاً او املاً إستراتيجياً بل هي موجودة فعلا. وهذا ما اشرته الاحداث التاريخية في "ويسكونسن".

ويسكونسن: انتفاضة ضد الأوضاع السياسية الفاسدة

"ويسكونسن" الواقعة في شمال الولايات المتحدة الأمريكية ليست مجرد أي ولاية امريكية. لقد أثر المهاجرون الألمان والاسكندينافيون فيها تاريخيا بطريقة معينة. ففي هذه الولاية اختمرت الانتفاضة التي اندلعت علنا في عام 2011 . ويعود اندلاعها الى محاولة (سكوت ووكر) حاكم الولاية الجمهوري تغيير القوانين التي تحدد حقوق النقابات في القطاع العام، بهدف سلب حق النقابات في تمثيل اعضائها في المفاوضات الخاصة بتعديل الاجور. وذهبت خطة حاكم الولاية هذا بعيدا الى حد سلب حق النقابات في استحصال الاشتراكات من أعضائها وهو امر تمارسه منذ زمن طويل، وإجبارها على تجديد عضويتها سنويا. وباختصار حاول (ووكر) سرقة مهام النقابات في القطاع العام، وجعل تمثيلها لمصالح أعضائها غير ممكن، مثل المطالبة بالخدمات العامة الضرورية سواء كان ذلك في مواقع العمل، أو في الولاية، أو في السياسة الاتحادية.

لقد مارس (ووكر) اندفاعه هذا ليس في ولاية جنوبية، حيث تاريخ الفصل العنصري، ووضوح عدم المساواة الاقتصادية، والمشاعر المعادية للعمل النقابي المصحوب غالبا بالانشقاقات. لقد فعلها (ووكر) في "ويسكونسن" اي في ولاية معروفة بتاريخها التقدمي، في الولاية التي تأسست فيها عام 1932 أكبر نقابة لقطاع الخدمات العامة في الولايات المتحدة. وهي الولاية التي اعترفت، في عام 1959 لأول مرة رسميا، بحق التفاوض لتحديد اجور العاملين في قطاع الخدمات العامة.

وبسبب تاريخ "ويسكونسن" الفريد كان مفهوما على الفور ماذا يعني هجوم (ووكر) هذا على التنظيم النقابي: لو قدر له النجاح هنا، لامتد الهجوم الى قطاع الخدمات العامة في"ويسكونسن" لآخر زاوية في الولايات المتحدة- انه ليس هجوماً على النقابات فحسب، بل على الخدمات العامة ذاتها، وبشكل عام هو هجوم على الفهم القائل: ان هناك امورا يجب على البلديات، والولايات، معالجتها بشكل مشترك. وفي بلد لم يتحمل الى اليوم الجدل الكبير بين الاجتماعيين الديمقراطيين وأصوليي السوق، ناهيك عن الجدل حول الاشتراكية والرأسمالية، كان يمكن في النهاية ان يتجه اكثر فأكثر نحو اليمين، ويصبح فيه التفكير بشان تجديد نظامه السياسي أمرا غير محتمل.

ويمكن ان يكون انطلاق انتفاضة "ويسكونسن" نتيجة لقلق معين، ولكنها كانت منذ البداية اكثر من عصيان ضد سياسة بعينها او سياسي معين. لقد كانت وستظل انتفاضة ضد كذبة التقشف، وضد مجمل وضعنا السياسي الفاسد والمعقد. انها انتفاضة حققت أكبر تعبئة جماهيرية للدفاع عن حقوق العمال في التاريخ الأميركي الحديث. انه وعي طبقي متنوع، و قبل كل شيء تحول جذري ضد انحدار ليس ولاية بمفردها، بل أمة بكاملها الى هاوية السوق المطلقة، كما عكستها المسارات التي حددتها كذبة التقشف.

ان ما حدث في "ويسكونسن" وخارجها في عامي 2011 و2012 ، لم يكن في حساب حتى أكبر المتفائلين والمتفانين من

اليسار. وكان يمكن للكثير من التهيئة ان يضر بالانتفاضة، اذ ان ما جرى في "ويسكونسن" كان عفويا. لقد ترك المعلمون والطلاب الصفوف الدراسية، للسير اولا باتجاه "الكابيتول"– مقر السلطة التشريعية، ومن ثم احتلالها، ورفضت قيادة الشرطة تفريق المتظاهرين الذين وظفوا حرية التجمع لإنصاف حقوقهم بالضد من المظالم التي يتعرضون لها، وقبيل ذلك انسحب برلمانيو الحزب الديمقراطي من "الكابيتول" بشكل متردد، رافضين المشاركة في اقرار برنامج التقشف. والعدد الهائل من المتظاهرين الذي خرج الى شوارع عاصمة الولاية بلغ حوالي 150 الف شخص في مدينة يبلغ تعداد سكانها 200 ألف اضافة الى عشرات الآلاف في البلديات والمدن الصغيرة في طول الولاية وعرضها، واستمرار الاحتجاجات واحتلال الأماكن.. كل هذا كان أمرا غير مسبوق.

علامة تقدم فارقة

لقد تخلى في نهاية المطاف، قادة الحزب الديمقراطي على الصعيد الوطني، عن الحركة في "ويسكونسن"، ولم يستوعبوا في الواقع ان خصميهم – (راينس ريبوس) رئيس اللجنة الوطنية للجمهوريين، و(كارل روف) أحد سياسي البيت الأبيض في ادارة (بوش) الأبن، سينتهزان الفرصة لتجربة استراتيجيات للانتخابات الرئاسة والكونغرس المقبلة في تشرين الثاني عام 2012، وان من يريد منافستهما في الخريف القادم عليه ممارسة الشيء نفسه.

وإذا كانت القيادة العليا للديمقراطيين لم تفهم ما حدث في ولاية "ويسكونسن" وما هي الفرص المترتبة على الحدث، فان الحركة في "ويسكونسن " استخلصت الدروس المهمة من تلقاء نفسها.

الحركات الجماهيرية تتسع، وتنتفخ، وتتسرب مرة أخرى، والانتخابات تتمخض عن انتصارات وخسائر – مثل الفشل المأساوي للحركة الانتخابية في "ويسكونسن"، التي حاولت ازاحة حاكم الولاية اليميني البغيض من منصبه. ولكن أهمية ما حدث في ولاية "ويسكونسن" وأمريكا، في شباط 2011 ، عندما انطلقت التظاهرة الأولى في الشوارع، لا يمكن تقييمه على مدى نجاح حملة واحدة، أو على نتائج انتخابات واحدة.

لقد حدث تغيير أساسي، حيث انبثقت حركة سياسية تعتمد سياسة التعبئة الجماهيرية التي كانت غائبة عن المشهد السياسي الأمريكي لفترة طويلة، في وقت و صلت فيه هيمنة الشركات، والتلاعب في وسائل الاعلام الى مديات غير مسبوقة.

ولم تكن هزيمة ساحقة بالكامل تلك التي تعرضت لها مبادرة الحركة الانتخابية في "ويسكونسن"، لأنها تمكنت من كسر الاغلبية الجمهورية في مجلس شيوخ ولاية. وفي الوقت نفسه صوت أكثر من 47 في المائة لإزاحة "نجم روك" اليميني من منصبه، على الرغم من ان اعادة انتخابه، دعمت من الحزب الجمهوري، والحركة المحافظة، ونسبة الواحد في المئة سيئة السمعة من الملياردية وأصحاب الملايين، معتبرين اياها اولوية وطنية. وبالنسبة للذين يرون في الديمقراطية سباقاً رياضياً يشاهدونه حتى نهاية يوم الانتخابات كان مجرد تذكر نتائج الانتخابات في"ويسكونسن" حالة تقشعر

لها الأبدان. ولكن للذي يملك وضوحا بشأن الطريق الذي قطعته "ويسكونسن"، وولايات اتحادية أخرى مثل ولاية "أوهايو"، منذ 2011، حيث تمت اعادة حق المشاركة الجماعية في المفاوضات بواسطة الاستفتاء العام، سيقيم انتخابات "ويسكونسن" باعتبارها علامة تقدم فارقة. وحتى قبل عامين لا أكثر، كانت في الانتخابات النصفية اليد الطولى للجمهوريين في كل مكان.

عند تقييم نتائج انتخابات "ويسكونسن" 47 – 53 في المائة، علينا ملاحظة ان الأموال التي وظفت في حملة (ووكر) الانتخابية تجاوزت ثمانية أضعاف ما وظفه منافسه الديمقراطي، ووقوف ملياردية الولاية الاتحادية بواسطة مبادرة "مستقلة" وراء (ووكر) وضعت تحت تصرفها عشرات الملايين من الدولارات. ولهذا يجب ان تفهم القوى التقدمية في امريكا نتائج الانتخابات على انها تحذير، ربما يمتد عالميا، لان الولايات المتحدة معروفة بتصدير أمراضها السياسية.

حملات المال في مواجهة الشعب المنظم

لقد طور استراتيجيو الجناح اليميني المتشدد في السياسة الأمريكية طريقة متطورة لكيفية توظيف المال في السياسة، لم تستخدم في السابق في أي مكان. وطبقوا هذه الطريقة في "ويسكونسن"، واستطاعوا فرض انفسهم من خلالها، على الرغم من وجود جدل وخلاف عميقين بشأن الفضيحة التي احاطت بحاكم الولاية. وسيكون من المختزل الافتراض بأن نظاما جديدا للحصول على مبالغ ضخمة، سيهزم بالضرورة من الآن فصاعدا الشعب المنظم.

ومن يصل الى هذه القناعة، يغفل ان الذين شاركوا في تنظيم الحركة للإطاحة بالاستبدادي (ووكر)، من العمال، والفلاحين، والطلبة، والنشطاء الاجتماعيين في "ويسكونسن" قد جربوا أيضا، وأخطأوا في نشاطهم التعبوي. ومع ذلك استوعبوا، كيف ينبغي هزيمة اتجاه السياسة الأمريكية، اكثر من السياسيين المحترفين. ويكمن خطأهم الصعب، على وجه التحديد، في انهم تركوا قيادة الصراع على الكثير من الأصعدة لممثلي الديمقراطيين، الذين ليس لديهم فكرة عن كيفية تنظيم حملة تستند الى حركة أو الى تعبئة الشعب وتنظيمه. وعلى الرغم من كل شيء تميزت الحركة في "ويسكونسن"، في نواح عديدة، بتحقيق نجاحات ملحوظة.

ولنتذكر ان بعضا من التظاهرات الجماهيرية الكبيرة، في التاريخ الحديث للحركة العمالية، هي التي استفزت هجوم (ووكر) على الحقوق النقابية في شباط 2011. وهذه الحركة الاحتجاجية هي التي استبقت ظاهرة "لنحتل"، عندما احتلت "الكابيتول" في "ويسكونسن" طيلة ثلاثة أسابيع، وصاغت الشعار الموجود لآن في كل مكان: "ألقوا اللوم على "الوول ستريت" –وليس على العمال، ويجب محاسبة المسؤولين عن الأسواق المالية، وليس العمال. ان حركة الاحتجاج المتنامية في جميع انحاء العالم ضد سياسة التقشف ألهمت التظاهرات في "ويسكونسن"، وبدورها أوصلت الحركة شعاعها الى العالم ايضا.

ولم يتخل حاكم الولاية في اي لحظة عن أجندته المبنية على سياسة "فرّق تسد ". ولم ينحصر هجومه على نقابة الخدمات العامة

وحدها، بل تعداها الى قطاع الخدمات العامة، والمؤسسات التعليمية عموما. وبهذا انتشر الانطباع في "ويسكونسن"، أن هناك وسيلة وحيدة لإيقافه، ألا وهي عزله من منصبة بالاستفادة من حق "اعادة الانتخاب" الذي يمكن الناخبين من مواجهة الانتهاكات، من خلال فرض انتخابات جديدة، اذا استطاعوا جمع العدد المطلوب من التواقيع المؤيدة لهم.

كان تنظيم انتخابات جديدة في "ويسكونسن" هو الثالث في تاريخ الولايات المتحدة، بشأن منصب حاكم ولاية اتحادية. وكان اليمين هو المبادر في المرتين السابقتين، معتمدا على الدعم الكبير من الدوائر الاقتصادية. وفي "ويسكونسن" كان الأمر مختلفا تماما. هنا كانت الحركة العمالية وحلفاؤها هم من فرضوا اعادة التصويت، معتمدين على القواعد الشعبية في كل بلدية، وكل قرية، وكل مدينة في الولاية الاتحادية، والتي جمعت 900 ألف توقيع (أكثر من 40 في المائة من مجموع المشاركين في الانتخابات السابقة التي جاءت بحاكم الولاية).

وكان رد فعل (ووكر) الطيران الى ولايات "تكساس" و"فلوريدا" و"كاليفورنيا" والبدء بجمع التبرعات لحملته الانتخابية، وتمكن في النهاية من الحصول أكثر من 35 مليون دولار امريكي. ولم يستطع أحد في تاريخ "ويسكونسن" من جمع هكذا مبلغ للوصول الى منصب ما في هذه الولاية. وأتت هذه المبالغ في غالبيتها، أكثر من 70 في المائة من خارج الولاية. لقد وظفت هذه الأموال بشكل جيد، وبواسطتها تم إيصال رسالة ينبع مضمونها من الخيال، والتلاعب، وقلب الحقائق: فالأعلى اصبح أسفل، واليمين غدا يساراً، وسياسة (ووكر) الاقتصادية (التي انتجت في الولاية أسوأ معدلات البطالة) اصبحت "فعالة".

عهد الأموال الهائلة الجديد

لم تكن سياسة (ووكر) هي التي أثرت، بل كانت دعايته الانتخابية ذات تأثير كبير، وهي التي ادت الى رفع معطيات استطلاع الرأي، في حين انشغل الديمقراطيون وحلفاؤهم في الصراع على تحديد التحديات. وهذا الصعود الفلكي لـ (ووكر) أفزع قيادة الحزب الديمقراطي في واشنطن، وجعلها تتردد بشان ثمن حجم مشاركتها في النزاع الدائر في الولاية.

الجانب الآخر لم يكن شديد الحساسية. ومن المعروف ان (راينس ريبوس)، رئيس اللجنة الوطنية للجمهورين، ينحدر من ولاية "ويسكونسن"، وكان مشاركا دائما في كل ما حدث، والشيء نفسه ينطبق على الداعمين الرئيسين لحزبه. ولعب الوضع القانوني في الولاية دورا حاسما، لأنه اباح لـ (ووكر)، قبيل الإعلان الرسمي لإعادة الانتخابات جمع كميات غير محدودة من الأموال. لقد تلقى "صكوك" تجاوزت قيمتها 500 ألف دولار. والملياردرية الذين لم يدفعوا في خزائنه الانتخابية مباشرة، دعموه من خلال تمويل مبادرات "مستقلة". ويمكن هنا الاشارة الى (جو ريكيتس) الثري الخرافي وتاجر الأسهم على شبكة الانترنيت والذي ضبط أثناء التحضير لحملة حبلى بالعنصرية ضد الرئيس (أوباما)، كان مبادرا للدفاع بحماسة عن (ووكر)، ومهاجمة منافسه الديمقراطي (توم باريت) .

لقد كان هناك الكثير من التكهنات حول ما إذا كانت الأمور تسير بشكل مختلف في ولاية "ويسكونسن"، لو ان (أوباما)، وقيادة الحزب الديمقراطي على الصعيد الوطني، والقوى الداعمة له قد رموا بكل ثقلهم لصالح (لتوم باريت). ولكن هذا التكهن لا يمس جوهر المسألة، لأن تمكن الجمهوريين وحلفائهم من جمع الأموال بكميات غير محدودة، و امتلاكهم الحرية في استخدامها، هو عامل جديد، وليس فقط في ولاية "ويسكونسن"، بل في السياسة الأمريكية بشكل عام. ويمكن لهذا العامل ان يكون حاسما، اذا لم يستوعب الديمقراطيون والتقدميون بسرعة ما حدث. كان يجب عليهم ان يرموا بثقلهم في "ويسكونسن"، ليس فقط للتغلب على (ووكر) بل كان عليهم تكوين صورة حول مآل السياسة قي الولايات المتحدة في ظل ظروف عهد الاموال الهائلة الجديد.

هل انتهى زمن السياسة الانتخابية التقدمية؟

ان الخطر الكبير يكمن في ان يستخلص اليسار وباستمرار الدروس، حتى وان تعلق الامر هذه المرة بهزيمة انتخابية وبفارق ضئيل. ولا تكمن العبرة في اكتشاف الديمقراطيين والنقابات الوسيلة التي تمكنهم من اللحاق بالركب المالي للجمهوريين والشركات الكبرى، لأن ذلك، وبكل بساطة، غير ممكن، وأن الخبرة المتمخضة عن تجربة "ويسكونسن" تقول انه ليس بالضرورة ان زمن السياسة الانتخابية في امريكا قد انتهى. وتعلمنا "ويسكونسن"، ان ألأموال الكبيرة تلعب حقا دورا اكبر في السياسة الأمريكية، ربما أكبر من أي وقت مضى، بحيث تدعم مرشحاً مأزوماً مثل (سكود ووكر) وتحوله الى منتصر. وهذه رسالة تدخل كالموسيقى في آذان الجمهوريين الذين غالبا ما يكون مرشحوهم شخصيات رديئة. ولكن لا يجب ان تكون هذه الرسالة هي الكلمة الأخيرة. وكما يقول (كيسلر فريد)، عضو مجلس النواب الامريكي عن ولاية "ويسكونسن". والمشارك منذ نصف قرن في الحملات الانتخابية "لا يجب ان يمتلك التقدميون اموالاً طائلة كالتي تتوفر للمحافظين لكي يفوزوا في الانتخابات"، ويضيف " ولكن عليهم ان يجيدوا توظيف الأموال التي تتوفر لديهم، ليصلوا الى التأثير الذي تصنعه الأموال الكبيرة، ويمكن تحقيق ذلك بواسطة أساليب نضالية تتجاوز الحملات الانتخابية الروتينية". في "ويسكونسن" خلق الديمقراطيون صعوبات لأنفسهم عبر تصريحاتهم خلال الحملة الانتخابية ومحاولاتهم احتواء جذرية محتجي "الكابيتول" في اطار مسارات السياسة التقليدية، وهو ما لم يأت ثماره. ان التخفيف، لعدة اشهر من قوة الموضوعات المهمة، التي صاغتها الحركة الاحتجاجية ومارست على أساسها التعبئة لإعادة الانتخاب، والتي شملت السياسة التعليمية، والنظام الانتخابي، قد افقدها ذروتها. ووضعت مسألة قانون العمل، التي كانت تعد القضية المركزية للحركة الاحتجاجية، جانبا. وبالنتيجة صوت ثلث الناخبين أو أكثر، والذين ادعوا انهم ينحدرون من عوائل نقابية لصالح (ووكر)، كما ان نقابات القطاع الخاص لم تجهد نفسها في تعبئة قواعدها، إلا في الاسبوع الذي سبق

الانتخابات في 5 حزيران 2012، وهو ما كان عليها منذ البداية فعله.

وكانت هناك مشاكل أيضا لدى الطامحين لسحب الثقة بشأن النجاح في تحديد اتجاه الحملة. واستند (ووكر) في المقام الأول لفترة طويلة الى الإعلانات مدفوعة الثمن، والظهور المستمر في قناته التلفزيونية المفضلة "فوكس" للأخبار وتكرار حجته القائلة بان اعادة الانتخابات ليست سوى تحد يتماشى مع هوى السياسة الحزبية، وهدر للأموال. وتمكن من خلال توظيف هذه التهمة من إضعاف الدعوة المستندة الى ارادة الشعب والمبنية على ممارسة الديمقراطية المباشرة.

ما الذي كان يمكن أن يفعله الديمقراطيون والنقابات بشكل مختلف؟ لقد كان باستطاعتهم، على سبيل المثال توظيف وسائلهم الدعائية بشكل أكثر حكمة. لقد تم صرف الملايين على دعاية تلفزيونية موجهة ضد شخص حاكم الولاية، على الرغم من ان شعبيته كانت هابطة، ووجود تحقيق جنائي ضد العاملين معه وداعميه، الذين كانوا تحت ضغط وسائل الإعلام. وكان بالإمكان توظيف جزء من الاموال بوقت مبكر للتعريف بمحتوى الحملة الانتخابية، والتركيز على حق النقابات في المشاركة بالمفاوضات الجماعية، ودعم مبادرة سحب الثقة.

"يجب توظيف الأموال في المكان الصحيح"

الديمقراطيون في أميركا هم أيضا، على غرار العديد من نظرائهم من يسار الوسط في أوروبا، غير بارعين، خصوصا في التعبير عن الفحوى الصحيحة للمناقشات العامة، وبلا شك كانت "ويسكونسن" مثال على هذا الضعف. يقول (ستيف كوبل) احد مساعدي مرشح الرئاسة الأسود (جيسي جاكسون): " عندما ينفق المرء في المراحل المبكرة من الحملة الانتخابية اموالا أقل يكون عليه من السهل التعامل مع المراحل المتأخرة منها". لو استثمر المرء بوقت مبكر للتعريف بمحتوى الحملة، لتمكن من الحصول على أقصى استفادة من الموارد المتاحة، وأصبح قادرا على ادارة الحملة، حتى وان توفرت لديه اموال أقل من منافسه، وتسري هذه القاعدة على النقابات، والمبادرات التقدمية.

ومن المهم ان يتعلم التقدميون من تجربة "ويسكونسن"، لأن المحافظين تعلموا بلا شك درسهم، وكيف يمكن استخدام اموال كبيرة للتغلب على حركات جماهيرية. وما لا ينبغي ان يستنتجه التقدميون من تجربة "ويسكونسن" هو الافتراض بان الحركات الجماهيرية غير قادرة على الانتصار على الاموال الضخمة.

لقد استثمرت النقابات وحلفاؤها في تعبئة الناخبين في المدن الصغيرة في ولاية "ويسكونسن"، مثل" ميلووكي" و"وراسين"، وخاصة في اوساط الناخبين الأمريكيين- الأفارقة. وساعد ذلك على زيادة إقبال الناخبين على المشاركة بشكل كبير، الى درجة جلب المزيد من العاملين خلال يوم التصويت من مناطق أخرى، لتغطية مراكز التصويت في دوائر الأمريكيين- الأفارقة الانتخابية، ولضمان حسن سير العملية الانتخابية.

ويقول (غوين مور) العضو الديمقراطي

في مجلس النواب عن ولاية "ويسكونسن": " لا يجوز للمرء انفاق جميع الاموال التي لديه على الدعاية التلفزيونية، ويجب عليه انفاقها محليا" ويضيف: " هذا في الواقع أهم شيء يمكننا أن نتعلمه من تجربة الولاية. لقد كانت الاموال المستثمرة محليا هي التي جلبت هذا العدد الكبير من ناخبي الديمقراطيين الى صناديق الاقتراع. حتى لو لم تكن كافية تماما، ويجب ان يكون ذلك واضحا، ان هذا يمثل المنطلق والأرضية، لكي نستطيع الانتصار في المرة القادمة ".

ولا شك ستكون هناك انتخابات قادمة، ليس في "ويسكونسن" فقط، وإنما على الصعيد الوطني. لقد كان النضال من أجل إزاحة (ووكر) من منصبه توسعا ضروريا ودامغا للحركة الجماهيرية في شوارع "ماديسون" وغيرها من مدن الولاية على الصعيد الانتخابي. وان عدم تحقيق النجاح يمثل خيبة أمل شديدة، ولكنه مع ذلك لا يمكن ان يكون الكلمة الأخيرة.

و لن يتوقف الجمهوريون، في "يسكونسن"، وفي كل مكان آخر في أمريكا، عن تبني ونشر برامجهم الخاصة بالتقشف. ويجب على القوى التقدمية التعلم بشكل أفضل للتعامل معهم، سواء في شوارع المدن، أم عبر صناديق الاقتراع.

دعونا نستمع لـ (له فوليت) احد الطلائع التقدمية في "يسكونسن" في مطلع القرن العشرين، الذي اضطر الى القبول بالكثير من الهزائم قبل ان يحقق نصره الأول على البارونات- اللصوص في زمنه. لقد استوعب جوهر المسألة في السابق، وكما هي اليوم، ولهذا قال: "نحن نستوعب الأمور ببطء فقط، والديمقراطية هي أسلوب حياة، تتضمن نضالا مستمرا"، ويضيف: "وعندما يواجه، الذين يحبون الديمقراطية من كل جيل، كل ضغوط اعدائهم بكل ما أوتوا من قوة، يمكن تحقيق فكرة الحكومة التمثيلية تدريجيا". وسيكون من الخطأ ان نفترض ان (له فوليت) يعني فقط الجانب الانتخابي من السياسة.

الولايات المتحدة تحتاج اليسار كله

قبل مائة عام كان واضحا بالنسبة لدعاة التقدم الراديكاليين في أمريكا، ان مراكز الانتخاب لا يمكن ان تكون منطلقا أو هدفا للسياسة. و يجب على التقدميين في عصرنا ان يستوعبوا هذا أيضا. لقد حان الوقت لوضع حد للمناقشات القديمة، التي وضعت التنظيم في مواجهة النجاح الانتخابي، الشوارع ضد صناديق الاقتراع، العمل البرلماني في مواجهة النشاط خارجه. إن أميركا تحتاج إلى اليسار كله، اليسار الذي يمتلك القدرة السياسية في كل مرحلة وعلى جميع المستويات. واليسار المقبل يمكن وينبغي أن يكون مبدعا بنفس القدر الذي كانت عليه تلك الحركات والبرامج الراديكالية التي تغلبت على الملكية، والرق، والفاشية، واضطهاد المرأة، وكذلك تدمير، وإهمال الموارد الطبيعية، وأعلنت عليها الحرب. ولكن الإبداع وحده لن يكون كافيا، على الرغم من أننا نعيش في زمن يمكن ان يكون فيه الاجماع والالتفاف حول الفكرة الجيدة سريعين وواسعين، عبر "تويتر" و"الفيسبوك"، على سبيل المثال لا الحصر. ونفس الشيء ينطبق أيضا على المخاوف والأكاذيب وسلطة وسائل الإعلام

الجماهيرية لا تزال تدعو للأسى، لأنها تصب أكثر في مصلحة الذين يثيرون المخاوف و ينشرون الأكاذيب، ولهذا تكون الأولويات القصوى لكل حركة، تطوير وتوسيع مهارات اليسار في الاتصال والتواصل.

والأمر الحاسم يعتمد على القدرة في استغلال الامكانيات التي تتيحها وسائل الاعلام الجديدة وتكنولوجيا المعلومات الى اقصى حد. وان التعبئة في "ويسكونسن"، وحركة "لنحتل الوول ستريت" غير ممكنة بدون "تويتر"، و"الفيسبوك"، واليوتوب، وهذه هي البداية فقط. وعلى اليسار المقبل ابتكار وسائل الإعلام الخاصة به، واستيعاب ضرورة الاستثمار القوي في صياغة ونشر حججه الهجومية، كما هو الحال مع العمل التنظيمي. وسوف لا يكفي طرق أبواب العاملين، ففي نهاية المطاف يتعرض هؤلاء سبعة ايام في الأسبوع وعلى مدار الساعة، من خلال وسائل الاعلام الى وابل من الوعظ بضرورة شد الاحزمة على البطون والاستعداد للتضحية. وان ما يحتاجه العاملون هو وسائل اعلام متحمسة وقادرة على التعبئة، وتسعى للحوار معهم، بلغتهم وتقدم الاجابات عن كل ما يشغل بالهم.

التعبئة الجماهيرية والعصيان المدني

ان المطالبات بإصلاح وسائل الإعلام يجب أن تكون مصحوبة بالمطالبات بإصلاح النظام الانتخابي. ويجب على الولايات المتحدة ترويض قوة المال، و هذا سيتحقق، عندما يستوعب اليسار الجديد ويقول: ان النضال من أجل طرد الصيارفة من معابد السلطة، أهم من أي نجاح انتخابي. ويجب ان يختفي في آن واحد مع الصيارفة والنظام والهياكل السياسية الفاسدة، التي تقف في طريق سياسة أفضل: سياسة تبنى على التعددية الحزبية، وتبدأ باعتماد نهج الاقتراب من ارادة الشعب قدر الامكان. وهكذا حملة من اجل تغيير اساسي لا يمكن حصرها بالجانب الانتخابي، بل يجب ان تتضمن بالضرورة أشكالا من التعبئة الجماهيرية والعصيان المدني، وتأخذ من كافة تجارب حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة، وحركات العدالة من جنوب أفريقيا مرورا بالهند إلى بورما.

ونحن الامريكان لن ننجح، اذا ما نظرنا، الى الداخل فقط. وهذا الامر لم يعد يجدي نفعا ابدا. ويجب علينا ان نتعلم التعامل بجدية، والاستفادة من تجارب البلدان الأخرى. ويستطيع الامريكان التعلم بعض الاشياء كذلك من المانيا، على الرغم من امكانية تجنب الكثير من سياساتها، لأن وسائل الإعلام والخريطة السياسية هناك، أكثر تنوعا مما هو موجود في الولايات المتحدة. ان تبادل التجارب، الأفكار والاستراتيجيات مهم. وان تصور السياسة في قنوات الاحزاب القائمة من خلال الانتخابات فقط، قد يبدو بسيطا، وأحيانا مريحا، ولكن اليسار القادم في الولايات المتحدة يجب ان يستوعب أفضل ما في اليسار العالمي، ويشترك مع افضله على النطاق العالمي، في احلامه الكبيرة.

لقد ساعد (توماس باين) في عمله "الحس السليم" قبل ما يقرب من قرنين ونصف على اندلاع شرارة الثورة الأمريكية، ولم يسع لتقلد احد المناصب في

الولايات المتحدة، على الرغم من ان وجود الاخيرة، جاء، ضمن عوامل أخرى، بفضل عمله. ولم يعمل (باين) نفسه في الأحزاب السياسية أو الحركات المعروفة، لا في مسقط رأسه إنكلترا، ولا حتى في البلدان التي اختارها أمريكا وفرنسا، ولا في أي مكان آخر رفع فيه "المواطن العالمي" الفخور صوته. لقد كتب (باين) في عام 1787: "حزب لا يعرف سوى تحريك المزاج، ولا يعرف علامة فارقة غير النصر. ويغمض عينيه امام الحقيقة، ويتصلب عندما يتعلق بالقناعة الصادقة".

إن التاريخ يعطي (باين) الحق، فاليوم كما في السابق، معظم الاحزاب في ايامنا مخيبة للآمال، كما كانت خلال سنوات الثورة التي بشر بها (باين) ولكن الحركات تختلف عن الاحزاب انها حاملة راية المبادئ. وفي كل الاحوال يجب ان لا يكون غرض الحركة التحول الى حزب، بل أكثر من هذا عليها ممارسة الولاء للمبادئ السياسية عمليا. والأحزاب التي لا تنبثق من حركات ستكون عديمة الفائدة. وعدم الفائدة هذا يسرق من الحركات شعورها بمضمونها، ويعيقها عن تطوير الطاقة الكامنة فيها. ولهذا يجب ان تجدد الحركات الاحزاب القديمة، أو تخلق أحزابا جديدة، لا لكي تؤكد النصر في الانتخابات، بل لتفوز بالمستقبل. ولا يجوز للحركات الخضوع للأحزاب. ويمكن للتطور منذ عصر (باين) وحتى الآن أن يخبرنا بأن الحركات تستطيع معاصرة الأحزاب وتستطيع تحديد الطريق. ولكن اذا جعلت الحركات النجاح في الانتخابات سبباً لوجودها، ولن يكون لها تأثير ابعد من يوم الانتخاب. وسوف تنظر للانتخابات على انها الطريق المستقيم، وعلى انها الغاية بذاتها، وليس كمنطلق لبداية الطريق.

ولن يكون نقل سياسة الحركة من الشوارع الى صناديق الاقتراع سهلا، لأنه يتطلب اصلاحات هيكلية اساسية، وحتى تعديلات دستورية، والوصول الى ذلك يحتاج الى سنوات عديدة من النشاط المدني الجذري. وقد استغرق نقل حركة الحقوق في سنوات الخمسينيات والستينيات من شوارع الجنوب الى أروقة السلطة سنوات عديدة، ولم يكن بالأمر السهل مطلقا. ويكمن الدرس الأهم في انتفاضة "ويسكونسن" انها انطلقت من خارج اللعبة الانتخابية وحققت أكبر نجاحاتها في تلك المرحلة، ولكن عندما دخلت ساحة الصراع الانتخابي وجدت الحركة نفسها فجأة في مواجهة جميع امراض النظام الخرب. ورغم كل الصعاب، فإنها تمكنت من تحقيق انتصارات، وخاصة في تمكنها من كسر الاغلبية الجمهورية في مجلس شيوخ" ويسكونسن"، ولكنها تعرضت أيضا لهزائم. و يمكن للمرء ان يتعلم من هذه التجربة، بل ينبغي عليه ذلك.

يجب ان يكون اليسار حاضرا في الشارع، وفي صناديق الاقتراع

يعرف (باراك اوباما)، وهو احد المستفيدين من الخطوات التقدمية التي حققتها الحركة المدنية، ان الاصلاح السياسي يحتاج الى نفس طويل. لكن هذه المعرفة لا تجعل منه اصلاحيا متوهجا، في اطار تقاليد الرؤساء الاصلاحيين مثل الرئيس (إبراهام لينكولن)، (تيدي روزفلت)

و(فرانكلين روزفلت). إن (أوباما) خطيب رائع، ولكنه كسياسي يبالغ في حذره. وفي حالة اعادة انتخابه، لن يكون رجل التغيير الجذري. وسيكون على الاكثر مديرا لسياسة تقشف معتدلة، ولكن ليس لسياسة الإصلاح التي نحتاجها. ولهذا سيكون انتصار (أوباما) الانتخابي، وسيثبت ان عودته الى البيت الابيض كانت وعاء اجوف. (أعيد انتخاب الرئيس في 2012-11-07 المترجم) هناك بالتأكيد حجج وجيهة تقول: إن رئاسة (أوباما) ستكون أفضل بالنسبة لأمريكا و للعالم، من رئاسة (ميت رومني). ولكن القرار الفعلي حول مستقبل الولايات المتحدة، لن يكون لا في البيت الأبيض ولا في الكونغرس في واشنطن –مثلما هو محتمل ضعف قرار الانتخابات المصرية الأخيرة حول ماهية مستقبل الناس على ضفاف النيل.

ان على اليسار الأمريكي القادم ان يكون حاضرا في الشوارع، وكذلك في صناديق الاقتراع. ولا يجوز له قبول السياسة الانتخابية الضيقة السائدة اليوم، ولا أشكال الاتصال المعمول بها في وسائل الاعلام الجماهيرية، بل يجب عليه ان يجد طريقه الخاص، ويمارس اللعبة وفق قواعده الخاصة. ويجب عليه تحديد أجندته وبناء وسائل الإعلام الخاصة به، لجعل هذه الأجندة في متناول العامة، وللترويج لها. ويحتاج اليسار مهاجمة التوازنات والممارسات العملية التي تضع العقبات في طريق الديمقراطية. وأن يثق بأن كل ما حدث في ولاية "ويسكونسن"، وحركة "لنحتل الوول ستريت" كان البداية فقط ، وإنها الأكبر والأفضل من جميع ما كنا نعرفه من قبل.

ويجب على هذا اليسار الجديد، أن لا يكون منغلقا، بل في تضامن مع حلفائه في شتى أنحاء العالم، الذين يؤمنون في تجديد ما صاغه ألأمريكي (باين)، في اللحظة الثورية الأولى بالكلمات الآتية: " لدينا كل الفرص، وكل ما يشجعنا على اقرار أنبل وأنقى دستور على وجه البسيطة، وفي متناول يدنا اطلاق بداية جديدة للعالم".

---

* مقالة نشرت في عدد آب/ 2012 من مجلة (أوراق السياسة الالمانية والعالمية) التي تصدر في العاصمة الألمانية برلين.

حـــــــــــوارات

حوار مع الباحث الدكتور ثامر عباس

" الفكر الماركسي مبني على وحدة العلاقة العضوية بين النظرية والممارسة"

حـــاوره : سعـــدون هلـيل

ثامر عباس مفكر نهضوي، يتمتع برؤية خاصة تتطابق مع واقعنا، ويترك بصماته للأجيال القادمة لما له من بواطن معرفية، ذو تشخيصات لحقب التاريخ العراقي من تغييرات سياسية وثقافية واجتماعية وانزياحات قيمية. تثير كتابات الباحث على الدوام جدالات ساخنة بسبب فهمه الواقع العربي والعراقي خاصة . احتوت كتاباته على الهوية العراقية وطبيعتها ومهمة المثقف العراقي واتجاهاتها ، وبهذا الخصوص أصدر كتباً كثيرة منها (الهوية الملتبسة، الشخصية العراقية واشكالية الوعي بالذات) (الوعي الديمقراطي دروس أولية) (أقنعة وأساطير - مقاربات في السوسيولوجية العراقية) (تقديس الزعامة في ظاهرة الكارزما السياسية). و أغلب ما طرحه في هذه الكتب يسلط الضوء فيه على اشكالية الديمقراطية والمساواة والحرية والتسامح.

❖ كيف تفسرون العلاقة بين الميتودولوجيا والفلسفة الماركسية وثقافة البراكسيس؟

– غالبا ما اقترن الفكر الماركسي بالطابع الإجرائي/العملي في مجمل القضايا التي اهتم بها والمسائل التي تصدى لها. ولعل ما كتبه (ماركس) في الموضوعة السابعة عن (فيورباخ) يؤكد هذا المنحى ويؤيد ذلك المسلك، معتبرا أن معرفة ما إذا كان التفكير الإنساني له حقيقة واقعية ليست مطلقا قضية نظرية، إنما هي قضية عملية؛ ففي النشاط العملي ينبغي على الإنسان أن يثبت الحقيقة، أي واقعية وقوة تفكيره ووجود هذا التفكير في عالمنا هذا. والنقاش حول واقعية أو عدم واقعية التفكير المنعزل عن النشاط العملي إنما هو قضية كلامية بحتة ". ولهذا فقد امتاز هذا الفكر بخاصية ميتودولوجية (منهجية –

المحرر) قوامها؛ التحليل التاريخي الملموس لكل العلاقات والمعطيات (= البنى التحتية)، والنقد الابستمولوجي المعقلن لكل النظريات والفكريات (= البنى الفوقية) . بمعنى أن كل ظاهرة اجتماعية وكل واقعة تاريخية وكل فاعلية إنسانية لا بد -لكي يؤتي الاستقصاء عن طبيعتها أكله -أن يستدل على أصولها البنيوية (عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية) وخلفيات رمزية (عوامل ثقافية ونفسية وقيمية). بحيث تأتي الاستنتاجات المصاغة عنها مقاربة -ولا نقول مطابقة -للواقع الذي تنبثق منه وتشتبك معه وترتد عليه وتؤثر فيه . ولذلك لم يقتصر نشاطه فقط -كما قد يتوهم البعض من أتباعه أو يشاع بغير وجه حق بين نقاده -على أطروحات (الديالكتيك) المتضمنة في وحدة وتناقض الأضداد، المستلهمة من معمار الفلسفة الهيجيلة في طورها العقلاني -عندما أقامه على رجليه بعد أن كان واقفا على رأسه - فحسب، وإنما طفق يجوب كل ما يرتبط بالإنسان من تطلعات، والمجتمع من علاقات، والفكر من خلفيات، والتاريخ من سياقات، والعالم من خيارات، والوجود من تصورات . كاشفا- على نحو واضح وصريح - تيارات القوى العميقة التي تمور في كينونة تلك الظواهر من جهة، ومستخلصا- بصورة واقعية وموضوعية - النوابض الخفية التي تتحكم في ماهية تلك الوقائع من جهة أخرى. ولعل هذا الانهمام المتعلق بمتابعة انعكاس الفكر على أرض الواقع بكل تمظهراته وبالعكس، وذلك الانهماك المرتبط بتقصي أصداء النظرية في رحاب الممارسة بكل تجلياتها وبالعكس، نابع من رهانه المطلق على تأصيل و تفعيل مفهوم (البراكسيس) بكل أبعاده السوسيولوجية ومستوياته الابستمولوجية وتقاطعاته الميتودولوجية. وعلى الرغم من التأكيد المستمر والإلحاح المتكرر من لدن الغالبية العظمى من الفلاسفة والمفكرين الماركسيين على حقيقة أن الفكر الماركسي مبني على وحدة العلاقة العضوية بين النظرية والممارسة، ومقدود من سبيكة الترابط الجدلي بين الفكر والواقع، إلاّ انه نادرا ما تم إظهار -وهو ما يشكل مأخذا معرفيا وتفريطا بنيويا بحق الفكر الماركسي - حرص والتزام مؤسسي الماركسية (ماركس وأنجلس)، بإعطاء الأولوية للواقع على الفكر، ومنح الأسبقية للممارسة على النظرية، في حال اقتضت الضرورة واستوجب الخيار. ولهذا يكتب ماركس في مخطوطات 1844 ما نصه " لم يعد المطلوب قياس الواقع على الفكرة، بل تفسير الفكرة على الواقع ". ويضيف شذرة أخرى في المكان ذاته فيقول: " إن نقد الواقع هو ما يجب أن يمارس في المقام الأول، وفي الواقع نفسه يكمن منبع الحركة الثورية التي يجب على العالم أن يعيها ".

❖ ان مفهوم البراكسيس أو فلسفة الممارسة كيف ترى العلاقة بين الأصالة والمعاصرة ؟

- بحسب الخاصية النوعية للمنهجية الماركسية؛ ليست هناك ظاهرة في الطبيعة أو واقعة في الاجتماع أو خاطرة في الفكر، مستثناة من الخضوع لأولويات التغيير في البنى وديناميات التطور في الماهيات. وإنما لا بد أن تكون مشروطة بانفتاح آفاقها لاستقبال كل ما من شأنه إضفاء الجدة والحداثة على وظائفها، مثلما لا مناص من

أن تكون ملزمة بتوسيع تخومها لاستدماج كل ما من شأنه إرساء القدرة والفاعلية على أدوارها. ولما كانت اللسانيات/ اللغات هي أشبه ما تكون بالكائن الحيّ، الذي يستمد مقومات صيرورته من معطيات محيطه الايكولوجي والسوسيولوجي، فإنها والحالة هذه تعد من أكثر التمظهرات الاجتماعية استجابة لعوامل التغيير وأشدها تأثراً بمقومات التطور، للحدّ الذي إن كل ما يمكن أن يطرأ على أنماط النشاط الاجتماعي من تبدل والممارسة الإنسانية من تحول، لا بد - إن عاجلاً أو آجلاً - أن ينداح صداه داخل أروقة تلك اللغة؛ إما لجهة اغناء مضامينها الإيحائية واكتناز مدلولاتها الخطابية، أو لجهة امحاء مفرداتها التعبيرية وإفناء أروماتها المعجمية. حتى إن فيلسوفا فرنسيا معاصرا (إميل بنيفينست) اعتبر " إن اللغة هي التي تكوّن النظام الاجتماعي (أو تشكله) لا العكس ". وعلى هذا الأساس فانه كلما كانت المفاهيم والمصطلحات والمقولات الخاصة في مجال معين من مجالات التفاعل الاجتماعي والتواصل الإنساني؛ شغالة في بنية الوعي ونمط المعرفة ونسق الثقافة، كانت مترعة بالمعاني ومفعمة بالدلالات، ومن ثم قابلة لاستيعاب وتمثل ما قد يستجد في حقل الأول من تصورات، وميدان الثانية من نظريات، ومضمار الثالثة من تيارات. هذا في حين تنقلب الآية ويحصل العكس عندما تستبعد تلك المفاهيم من حقل التداول المعرفي، ويستغنى عن تلك المصطلحات في سياق التثاقف الحضاري، إذ أنه سرعان ما يغشاها الضعف ويعتريها الضمور ويطالها الاندثار.

❖ هل تعتقد ان وظيفة استاذ الفلسفة هي الوظيفة نفسها؟

- ان فيلسوف الجينولوجيا الفرنسي (ميشيل فوكو) على كامل الحق حين يجزم بأن " ليس للغة أبدا أي مكان سوى التطور، ولا قيمة أخرى إلاّ فيه ". ولعل مفهوم (البراكسيس) لا يشذ عن هذه القاعدة ولا يخرج عن إطار هذا التحليل، لا سيما ان ستار الإهمال قد أسدل عليه منذ أن رحل الفيلسوف الايطالي (غرامشي)، الذي استعاد منطوقه واستخلص معناه واستلهم دلالته من ترسانة المعجم الماركسي باكرا، ليس فقط من باب التورية على من تآمر عليه من جواسيس عقيدته وحراس سجنه -كما حاول أحد الماركسيين اليوغسلاف تسويق هذه الفكرة، من خلال الإشارة إلى " إن إطلاقه على الماركسية اسم فلسفة البراكسيس، ليس سوى تسمية ظرفية أملتها الظروف الخارجية والطارئة، لا تسمية تدل على الخصائص العميقة لفكر ماركس " فحسب، وإنما من منطلق كونه عنصراً أصيلاً لا دخيلاً -وهو الأهم من وجهة نظرنا المتواضعة -في بنية الفكر الماركسي. وذلك على الرغم من الإحجام الغريب عن طرحه في الخطابات أو الإعراض عن تبنيه في الطروحات، خلافا للعديد من المفاهيم الاقتصادية والمصطلحات الاجتماعية والمقولات الفلسفية المتداولة، سواء في إطار الاحتجاج الفلسفي أو في مضمار الاحتجاج السياسي، بحيث أمسى بالتقادم غريباً عن أصوله الميتودولوجية وطارئاً على بيئته الابستمولوجية. لا سيما ان فترة استحداث مفهومه وصك ملفوظه تمتد إلى النصف الأول من القرن التاسع

عشر، حين كان محط تحليل وتأويل العديد من الفلاسفة الألمان المتأثرين بحلقة اليسار الهيجلي، (فون سيسكوفسكي، موزيس هيّس، أرنولد روغه). وبصرف النظر عن جدية ادعاء (كارل كوزيك) الذي زعم من خلاله أن مفهوم (البراكسيس)، الذي شاع في كتابات (غرامشي)، لا سيما خلال مرحلة ما يعرف بدفاتر السجن، " يفتقر إلى التوضيح، لأننا لا نعرف بالضبط ما هو المقصود بفلسفة البراكسيس هذه "، إلا أن ذلك لا يحول دون إزجائنا الثناء على سلامة فهمه واستقامة إدراكه، للماهية الفلسفية التي أسبغها على مفهوم البراكسيس، حين كتب يقول: " إن فلسفة البراكسيس تتجاوز مثنوية الفكر الديكارتي لأنها تتصور الوجود على انه صيرورة، أي تحقيق لوحدة الإنسان والعالم، ولأنها تجعل الذات المفكرة والمادة أو الامتداد تجريدين لهذا الواقع الأصلي. إن فلسفة البراكسيس تتخطى نواقص الفكر القديم، وتسبغ على الإبداع الإنساني طابعا أصيلا. وينشأ عن هذا أن حضور الإنسان للعالم ليس مقصورا على توضيح ما هو موجود من قبل ولا على فهمه، وإنما هو مشتمل أيضا على إبداع الجديد: فإن الجديد من حيث الكيف لا يظهر بفضل الإنسان.

❖ هل يمكن الفصل بين النظرية والتطبيق في المنهج الماركسي المعاصر؟

– إن فلسفة البراكسيس تتخطى التشويه الجانبي للفكر النازع إلى العلمية والتقنية، لأنها تتفهم العمل أو وحدة الإنسان والعالم، من جهة ما هي حقيقة خاضعة للصيرورة. وإذا كنا قد تواضعنا على اعتبار أن الفيلسوف (غرامشي) هو الأب الروحي لمفهوم البراكسيس، بدلا من نسبته إلى إسهامات تلك السلسلة الطويلة من الفلاسفة، الذين تطرقوا إليه واشتغلوا عليه بهذا القدر أو ذاك من قبل، فلأن صاحب (دفاتر السجن) نحى بالمفهوم منحى سوسيولوجياً وابستمولوجياً، بعدما كان يحتل واجهة التفكير الفلسفي والتنظير الإيديولوجي. ولهذا نجده يؤكد أن فلسفة الممارسة " تحررت (أو تحاول التحرر) من أية عناصر إيديولوجية متعصبة، أو أحادية النظرة . إنها وعي مفعم بالتناقضات يمكن الفيلسوف ذاته كفرد وكجماعة اجتماعية بأكملها من فهم هذه التناقضات، بل واعتبار نفسه أحد عواملها، والارتفاع بهذا الوعي إلى مستوى المبدأ، مبدأ للمعرفة ومن ثم للفعل. وهي ترفض مفهوم الإنسان بعامة، أيا كانت الصورة التي يقدم بها نفسه، وتلفظ أية مفاهيم (واحدية) دوجماتية وتنقضها باعتبارها تعبيرا عن مفهوم (الإنسانية بعامة) أو (الطبيعة البشرية) المتجسدة في كل إنسان ". ولأن الكتابات التقليدية اللاحقة عن الماركسية –اللينينية، أبقت المفهوم ضمن إطار المحايثة لصيغة الارتباط بين الفكر والواقع، أو أوحت باندغامه بين ثنايا التصور الرامي إلى توحيد النظرية بالممارسة، فقد كان من الأسهل –لأغراض تنظيمية وإيديولوجية – على الأحزاب الشيوعية بخاصة والحركات اليسارية بعامة، الاعتماد على خاصية (الحس المشترك) التي يمتاز بها الجمهور المستهدف، لتعبئته وتثقيفه حول البرامج الحزبية والأهداف السياسية، بدلا من مخاطبة وعيه بالمفاهيم المجردة والمصطلحات

المعقدة، التي لم يكن قد امتلك ناصيتها وتمرس عليها ضمن خطابه الثقافي. وهكذا فقد هجر واستبعد – منذ وقت مبكر – مفهوم البراكسيس عن غالبية النصوص الماركسية (لغموضه) وصعوبة استيعابه، لصالح صيغة الترابط بين الفكر والواقع أو وحدة النظرية والممارسة (لوضحها) وسهولة تقبلها، طالما أن معناهما في المصادر واحد وأن مدلولهما في المراجع مشترك. وعلى هذا الأساس نجد أن احد الماركسيين العرب يكتب موضحا ومقدما للمفهوم قائلا: " لعل أعظم خطأ يتعرض له الذين يأخذون بالماركسية هو الفصل بين الفكر والعمل أو بالأحرى الفصل بين النظرية والتطبيق (...) واقتران الفكر بالفعل أو ارتباط النظرية بالتطبيق أطلق عليه في لغة الفلسفة كلمة البراكسية ". وبعد أن يبحث في أصل الكلمة والمراحل التي قطعتها والمجالات التي تناولتها والصياغات التي اعترتها، يستأنف حديثه عن المفهوم ليضيف " ويقصد بالبراكسية في الفلسفة الحديثة، الفعل من أجل التغيير؛ ولها في الماركسية مفهوم ديالكتي يقصد به النشاط الفكري المقرون بالنشاط الفعلي الذي لا يراد به نفعا ذاتيا وإنما يراد به التغيير الاجتماعي ذا المردود".

❖ هل الحقيقة هي ذاتية بهذا القدر تتعلق بالفيلسوف كذات ؟

– إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مسألة النسبية التاريخية/المعرفية والتعددية الحضارية / الثقافية، ليس فقط بين الشعوب المتنوعة والمجتمعات المتباينة فحسب، بل حتى داخل الشعب الواحد لجهة انقسامه إلى الطبقات، والمجتمع الواحد لجهة انشطاره إلى مكونات، فان الميتودولوجية الماركسية تستلزم – كضرورة معرفية – مراعاة الاختلافات النوعية للإشكاليات المترتبة على مقاربة مفهوم البراكسيس لبنى تلك الشعوب والمجتمعات، ناهيك عن أنماط وعيها الجمعي وأنساق ثقافاتها الفرعية وتواضعات أعرافها القيمية. مسترشدين بمضمون رسالة انجلس إلى صديقه كونراد شميدت، التي قال فيها " ينبغي لنا أن ندرس التاريخ كله من جديد، ينبغي لنا أن نبحث بالتفصيل ظروف وجود التشكيلات الاجتماعية المختلفة، قبل أن نحاول أن نستخلص منها مفاهيم سياسية وحقوقية وجمالية وفلسفية ودينية وما إلى ذلك، مناسبة لها . وهنا تواجهنا معضلة استنباط الكيفيات التي من خلالها تفعّل ثقافة البراكسيس داخل المجتمعات التي ما زالت تعيش أجواء الذهنيات ما قبل العلمنة، مثلما لا تبرح تتعطى علاقات ما قبل الحداثة. الأمر الذي يتطلب إجراء مقارنة أولية بين سياق اشتغال (فلسفة) البراكسيس في بلدان العالم المتقدم من جهة، وتوظيف (ثقافة) البراكسيس في بلدان العالم الثالث من جهة أخرى. ففي الوقت الذي حاول بعض فلاسفة الغرب الماركسيين الولوج إلى رحاب فلسفة البراكسيس عبر مفهوم (التجاوز)، باعتبار أن أسس الفكر الماركسي تبلورت في أتون صراع فلسفي ومنهجي ضار ومكشوف، مع مجمل الأنظمة الفكرية والتيارات الفلسفية التي كانت فاعلة وناشطة في تلك الفترة، ما أتاح لها (أي الماركسية) استخلاص وتمثل زبدة ما أنتجه

الوعي الإنساني؛ من فكريات فلسفية معقلنة، ونظريات علمية متطورة، ومنهجيات نقدية متقدمة. بحيث بات من شبه المستحيل على مبدعي الميتودولوجية الماركسية، الاحتكام فقط إلى ما تبشر به الطروحات الفكرية مهما كانت ناضجة، أو الركون فحسب إلى ما تدعو إليه الصياغات النظرية مهما كانت محكمة، بل لا بد من اللجوء إلى الواقع الموضوعي لاختبار سلامتها، والانتحاء صوب الوقائع الاجتماعية لامتحان جدواها. معتبرين أن معيار صحة الأولى ومعقولية الثانية، إنما هما النشاط الاجتماعي المقرون بالممارسة والفاعلية الإنسانية المهورة بالتطبيق. ولهذا " فليس ينبغي للنظرية الجدلية التي تعنى بالواقع والحقيقة، أن تنفصل عن الممارسة العملية. وتقوم النظرية والممارسة على مفهوم أساسي هو مفهوم (التجاوز) الذي يوحد بينهما، بوصفه نظريا وعمليا في آن واحد، واقعيا وفكريا، محددا في التاريخ وفي نطاق الفاعلية الإنسانية ".

❖ هل تعني ربط الوجود بالذات المفكرة؟

– لم يبرح مفكرو بلدان العالم الثالث من الماركسيين، يتجاهلون –بل قل يجهلون – أهمية أن تعرض المفاهيم والمصطلحات والمقولات التي تحمل مضامين فلسفية وابستمولوجية وسوسيولوجية صيغت لزمان ومكان مختلفين، على محك التجربة الواقعية ومخاضات الواقع المعيش للمجتمعات المحلية، فضلا عن التعامل مع تلك المنتجات المفاهيمية من منطلق كونها استجابة لاحتياجات تلك التجربة وليس العكس، ومن منظور كونها تعبيراً تجريدياً لإرهاصات ذلك الواقع وليس العكس. بيد أن تشخيصنا هذه السلبيات وتأشيرنا تلك المآخذ، لا يعني أننا نهمل تداعيات الظروف الموضوعية التي أسهمت بحدوث مثل تلك السلبيات والمآخذ، وبالتالي تحميل وزرها وإلصاق مثالبها بأولئك الذين انتدبتهم المرحلة التاريخية والأوضاع الاجتماعية والشروط الثقافية، ليكونوا نواة وعيها الذاتي ومجسات استشعارها المعرفي. إذ أن أنماط الوعي وأنساق الثقافة وأنظمة الرموز لن تتخلص بسهولة – رغم خطورة دورها وجسامة وظيفتها –من تأثيرات البيئة الاجتماعية التي نشأت فيها، وإفرازات القيم الأخلاقية التي تغذت منها، وخلفيات الذاكرة التاريخية التي تربت عليها.

❖ حديثكم هذا يوحي بأن ثقافة البراكسيس هي الضرورة التاريخية والاضطرار السياسي والاجتماعي؟

– لا ريب في أن الفلسفة الماركسية عانت –كنظرية وكممارسة –كما لم تعان أية فلسفة أخرى نازعتها في الطموح ونافستها في التطلع، وذلك يحكم كونها رؤية تعبّر عن النضوج الفكري في مضمار الوعي، والنقد السياسي في ميدان الاجتماع، والتطلع الإنساني في حقل التاريخ، والنزوع العقلاني في إطار المعرفة. وهو الأمر الذي وضعها على مفترق جملة من المفارقات التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية، لا سيما في المجتمعات التي لم تتخط بعد طور الهامشية الحضارية، ولم تتجاوز بعد مرحلة الطفولة العلمية. فبحكم كون الماركسية

منهجاً نقدياً مؤنسناً؛ يشيع التفاؤلية في التقدم الاجتماعي، ويقرّ النسبية في التطور التاريخي، ويتبنى الدينامية في التلاقح الثقافي. فقد استطاعت هذه النظرية أن تستحوذ –بزمن قياسي – على اهتمام غالبية النخب الوطنية في المجتمعات النامية، ليس فقط من باب كونها النظرية الأشد ضراوة في مناهضة التشكيلة الرأسمالية، والأصلب عودا في مقارعة تداعياتها الاستعمارية فحسب، وإنما من منطلق كونها السبيل الأنجع في انتشال شعوب تلك البلدان من حضيض التخلف الذي ترسف في أغلاله، والطريق الأنسب في حملها على اكتشاف تاريخها المنسي، واستعادة هويتها المهدورة، واسترجاع كينونتها الإنسانية الموءودة. ناهيك بالطبع عن نظرتها العلمية إلى ظواهر الوجود، وطريقتها الواقعية في تعاطيها مع مظاهر الحياة، وموقفها الجدلي في تصديها لمشاكل المجتمع. ومن جملة تلك المفارقات أن مؤسسي الماركسية لم يضعا في جدول أعمالهما السياسية والفكرية تلك المجتمعات الموصوفة (ما قبل صناعية)، وبالتالي لم يعولا عليها بخصوص نشر أفكارهما الاشتراكية وتعزيز توجهاتهما الثورية. وهو الأمر الذي منح (لينين) أفضلية ملحوظة على سائر القادة الماركسيين المعاصرين له –بمن فيهم (غرامشي) الذي غيبه الموت باكرا كما أسلفنا – حيال تعاطيهم مع مكونات الفلسفة الماركسية، والذي استطاع أن يستخلص جوهر ميتودولوجيتها، من خلال تحويل تعاليم (البراكسيس) الماركسي من تفلسف نظري مجرد إلى تثقيف عملي ملموس، بحيث طوّر موقف الماركسية الكلاسيكية بصدد ملاءمتها وصلاحية تطبيقها حتى في المجتمعات (الزراعية) وشبه الإقطاعية، مستلهما ومستوحيا ما ورد على لسان (انجلس) من تلميحات وتوضيحات وطروحات فيقول: " كان أنجلس يقول في معرض حديثه عن نفسه وعن صديقه الشهير؛ إن مذهبهما ليس بمذهب جامد، إنما هو مرشد للعمل. إن هذه الصيغة الكلاسيكية تبين بقوة رائعة وبصورة أخاذة، هذا المظهر من الماركسية الذي يغيب عن البال في كثير من الأحيان. وإذ يغيب هذا المظهر عن بالنا، نجعل من الماركسية شيئا وحيد الطرف،عديم الشكل، شيئا جامدا لا حياة فيه، ونفرغ الماركسية من روحها الحيّة، وننسف أسسها النظرية الجوهرية –ونعني بها الديالكتيك، أي مذهب التطور التاريخي المتعدد الأشكال والحافل بالتناقضات –ونضعف صلتها بقضايا العصر العملية والدقيقة، التي من شأنها أن تتغير لدى كل منعطف جديد في التاريخ "، وهو الأمر الذي يفسّر لنا صعوبة إن لم يكن تعذر استيعاب كنه الماركسية دون ارتباطها بصيغتها المطورة (اللينينية) كما بات معروفا. ولكن بالمقابل وبسبب كل تلك المزايا والمناقب التي تميزت بها، فقد نالت الماركسية – مثلما نال أنصارها ومريدوها ومعتنقوها – من لدن الأنظمة السياسية (الوطنية) التي أبصرت النور في المجتمعات التي تحررت لتوها من الاستعمار، شتى ضروب القمع السياسي ومختلف صنوف الردع الفكري، وكل أنواع التشنيع الإيديولوجي، للحدّ الذي جرى فيه تكفير الأحزاب الشيوعية بموجب فتاوى دينية، وتخوين الشخصيات الماركسية

بموجب أوامر تعسفية. ولعل هذه الإشكاليات كانت في مقدمة العوامل التي أسبغت على الفكر الماركسي في المجتمعات المتخلفة، ليس فقط طابع السرية في التداول والتقية في التواصل فحسب، وإنما –وهنا يتركز محور موضوعنا –خصوصية الإفراط في التنظيرات الفكرية والتفريط في الممارسات العملية، حتى أمست العناصر الشيوعية خاصة والماركسية عامة، مضرباً للأمثال بخصوص باعها الطويل في الجدال الفكري والسجال الإيديولوجي من جهة، واتهامها، من جهة أخرى، بافتقارها إلى رصيد واقعي/إجرائي يثبت قدرتها الذاتية، على تطوير النظريات وتثوير المنهجيات وتنوير العقليات. فعلى قدر توفرهم (= الشيوعيين والماركسيين) على إمكانية أن يبزّوا خصومهم ومناوئيهم في شتى المجالات المعرفية والثقافية من جهة، إلا انه، من جهة أخرى، ليس بمقدورهم إثبات صحة آرائهم ومنطقية توقعاتهم على صعيد الواقع، أو ترجمة مواقفهم وتجسيد أفكارهم على مستوى الممارسة.

❖ هل تعتبر هؤلاء فلاسفة أم مفكرين أم ماذا ؟

– أنهم وان كانوا يبدون ضليعين في تدبيج الخطابات ونسج الطوباويات وعرض السرديات، إلاّ أنهم بالمقابل أثبتوا عجزهم عن تحرير الذهنيات من أوهامها الأصولية، وتطهير السياسات من أصنامها الإيديولوجية. ولعمري إن تشخيص هذه الظاهرة داخل أوساط الحركات اليسارية والأحزاب الشيوعية، متأت من حالة (الاضطرار السياسي) التي أجبروا على التعايش ضمن أجوائها الموبوءة ؛ بالمطاردات البوليسية والمداهمات الأمنية والتنكيلات العنفية. ولأنها لبثت تعمل تحت ظل أحكام قوانين الطوارئ، حيث الظروف شاذة والأوضاع استثنائية، فضلاً عن كونها محاطة بإجراءات صارمة من التكتم والسرية فقد تعذر –إن لم نقل استحال –وضعها المفاهيم النظرية والطروحات التجريدية موضع التطبيق العملي والممارسة الواقعية، بحيث يجري اختبار صحة التحليلات السوسيولوجية للمجتمع، وسلامة التأويلات الابستمولوجية للوعي، وملاءمة المقاربات المنهجية للواقع ليس بناء على أحكام مسبقة وتصورات مفترضة وتعليلات مفبركة، وإنما من منطلق ممارسات واقعية وتطبيقات عملية ومحاكمات عقلانية. ولهذا يؤكد الفيلسوف الماركسي (جورج لوكاش) بثاقب بصيرة فيقول " إن هدفنا بالأحرى محدد بمعتقد مفاده إن مذهب ومنهج ماركس يحملان بالنهاية المنهجية الصحيحة لمعرفة المجتمع والتاريخ. إن هذه المنهجية في جوهرها الأكثر التصاقا، هي تاريخية. وبديهي بالنتيجة انه يجب دائما تطبيقها على ذاتها، وتلكم هي أحدى النقاط الأساسية لهذه المحاولات. على إن هذا يقتضب بذات الحين أخذ موقف فعلي يهدف إلى محتوى المشاكل المعاصرة، لأنه، وبناء على مفهوم المنهجية الماركسية هذا، فان هدفنا الأسمى إنما هو معرفة الحاضر ". ومن منطلق هذه الحقائق التاريخية وتلك الوقائع الفكرية، فانه لم يعد أمام من يدعي انتسابه للفكر الماركسي في صيغته الأكثر نقدية، وتمثله للمنهجية الجدلية في تمظهرها الأكثر

دينـامية، أية أعـذار أو تبريرات يحاول التعكز عليها واللجوء إليها، لتسويغ حالات الانعزال الفكـري والتقوقع الإيديولـوجي والتخندق الفلسفي، التي قد يعتقد واهما أنها الضمانة الوحيدة والفعالة، للحفاظ على نقاء الفكر الذي يؤمن به من شوائب النظريات الحداثية وما بعد الحداثية، والحرص على بقاء التصور الذي يحمله عن الفلسفة التي يعتنقها مبرأً من انحراف المنهجيات العابرة والمابينية. ولعل من المناسب أن أنهي هذا الموضوع بجملة تكاد تلخص ما نرمي إليه قالها الفيلسوف الماركسي (هنري لوفيفر)، في معرض تأكيده أهمية ما تعنيه فلسفة البراكسيس بالنسبة للميتودولوجيا الماركسية على النحو الآتي: " عند ماركس، يتحرر الناس من الضياع من خلال منازعات واقعية عملية، فلا يكون التفكير النظري سوى وسيلة (أو عنصر أو مرحلة أو واسطة) لازمة وغير كافية في هذه المنازعات العديدة، ذات الأشكال المتنوعة. بل لا يعرّف الضياع تعريفا واضحا إلاّ إذا قيس بوسيلة التحرر منه، تلك الوسيلة العملية الفعالة. وشرّ ضياع هو التوقف الذي يمنع النمو ".

أدب
و
فن

تجربتي مع الثقافة والترجمة : نقاط تحول

أمجد حسين

في البدء لا بد من الاعتذار عن رجوعي المتكرر لكلمة ((أنا)) في هذا السرد ، بيد أن عذري قائم على أساس ألا مجال لفصل " الذات" عن " العام" في سياق كهذا . أنا من عائلة بغدادية متوسطة الحال اقتصاديا، أو منتمية إلى الطبقة الوسطى، غير أن السمة التي عرفت بها هي أنها عائلة ((قريئة)) (خصوصا قبل اجتياز التلفاز ووسائل الاتصال الأخرى). فكانت دارنا مليئة بالكتب المتنوعة التي لم يكن سيل تدفقها لينقطع، بما في ذلك المجلات الاسبوعية والشهرية مثل (الرسالة)،(الأديب)،(روزاليوسف)، (مسامرات الجيب)،(النفير) وغيرها، حتى صارت أشبه بمكتبة عامة يستعير منها الأقارب والجيران .

وفي هذا الجو شرعت منذ سن مبكرة بقراءة الروايات المشهورة يومذاك (أربعينيات القرن العشرين) مثل (الأميرة فوستا)، (باردليان)،(الفرسان الثلاثة)،(بائعة الخبز)، فضلا عن (آرسين لوبين) ومثيلاتها.

ثمة سمة عائلية أخرى: كان الفكر العلماني هو السائد. فمع أن والديّ كانا ملتزمين بالفرائض الدينية العامة، الا انهما لم يمارسا ضغطا على ابنائهما باتجاه الالتزام الديني المفرط. صحيح أن الوالدة كانت تصحبنا أحيانا لزيارة ضريح الامام موسى الكاظم، حيث كنا نقلد ما كان يفعله الكبار داخل الحضرة الا أن متعتنا(ونحن صغار) كانت في التوجه بعد الزيارة إلى سوق الكاظمية لتناول كبابها الشهير.

فضلا عن هوسنا بالقراءة، كان لنا ولع بالموسيقى عن طريق الراديو والغرامفون، بل أن أحد اخوتي، وكان موظفا في مديرية السكك الحديد، استعان بمدرس سويسري الجنسية (كان استاذا في معهد الفنون الجميلة) ليعلمه عزف الموسيقى الكلاسيكية على آلة الكمان. فكان المدرس يأتي إلى دارنا مرة في الاسبوع لذلك الغرض لقاء أجر كان يقضم جزءا لا يستهان به من راتب أخي. كما أن ولع أفراد العائلة بالموسيقى أدى إلى نشوء تكتلات متنافسة: الوالد يناصر المقام

العراقي ، وكتلة تتحالف مع أم كلثوم وعبد الوهاب، واخرى تجد مثلها الاعلى في اسمهان وفريد الأطرش، ثم ائتلف الجميع تحت راية (فيروز) دون التخلي عن الولاءات الأولى .

لعل الموقع الجغرافي للسكن كان ذا تأثير أيضا. فمن الكرادة الشرقية إلى العيواضية (العلوازية) إلى الأعظمية ثم إلى الشالجية (دور الضباط، أي كبار موظفي مديرية السكك). ففي العيواضية كنا نتطلع إلى دور كبار السياسيين على ضفة دجلة ونحظى برؤية الملك غازي متجولا بسيارته المكشوفة (دون ألا تلاحقه الشائعات بأنه كان يفعل ذلك تبخترا أمام أعين صبايا الحي!).

وفي الأعظمية (طيلة عقد الأربعينيات) حلت عائلة العقيد كامل شبيب في دار مجاورة لنا فتوثقت علاقة العائلتين حتى أن عائلته نقلت إلى دارنا (قبيل تنفيذ حكم الاعدام به) الكثير مما يخصه (مثل سيفه ونياشينه وبدلاته العسكرية) خوفا من مصادرة السلطات لها خصوصا وان جارنا الآخر كان مديرا للشرطة هو عطا عجاج.

نأتي الآن إلى نقطة التحول الفكري الأولى في حياتي: كنت طالبا في الصف الثالث المتوسط (التاسع حسب التسميات الأخرى) في ثانوية الأعظمية. كنت أصغر الطلاب سنا، وربما أكثرهم طاعة وأدبا. كان م.الجبوري مدرسا لمادة الدين. وذات يوم كان يشرح الاية القرآنية:" واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا". وآنذاك تحرك في داخلي فضول لاستيعاب المدلول المطلوب ، فرفعت اصبعي، فتساءل الأستاذ:" شكو؟".

قلت:" بس هذا حرام استاذ".

– "شنو؟!".

– "حرام... لأن هناك في الاساس نية نزال الهلاك بالقرية، فكانت الوسيلة هي نشر الفسق الذي مارسه امراؤها المعيّنون لهذا الغرض... اذن، ما ذنب أهل القرية الذي بُررَّ تدميرها عن بكرة أبيها؟".

لن أنسى، رغم مرور ما يزيد على ستين عاما، ردة فعل المدرس.. فقد تجمدت قسائم وجهه وصار فكاه يصطكان عصبا، ثم جاء صوته فحيحا:" اطلع... كافر... زنديق... اطلع برّه!" . وكانت تلك المرة الوحيدة التي طردت فيها من قاعة تدريس طيلة حياتي. وحينما غادرت الصف مذهولا طفقت دموعي تسيل، ثم بدأت مشاعري، شيئا فشيئا، تتحول من الألم والمذلة إلى الغضب الايجابي، واتخذت مع نفسي قرارا مفاده:" اسمع ياأمجد: اذا كان استاذك المتخصص لم يفلح ، فعليك أنت، وحدك، أن تبحث عن الحقيقة حتى تقتنع". وهذا ما شرعت بتطبيقه على امتداد حياتي.

بعد انهائي التعليم الثانوي (الفرع

الأدبي، الأقرب إلى اهتماماتي والأرحب مساحة في نظري يومذاك) بمعدل عال يؤهلني للدخول إلى كليات (الحقوق) و(التجارة) و(الآداب)، لكنني فضلت (دار المعلمين العالية) لسببين: سمعتها الثقافية الواسعة (في الأدب على وجه الخصوص)، ووجود عدد كبير من الاساتذة البريطانيين في قسم اللغة الانكليزية فيها، وهو القسم الذي كان يجتذبني أكثر من غيره.

في (الدار) انهمرت الثقافة (الأدبية في البدء، والعامة لاحقا) من روافد متعددة:

(1) اختصاص (اللغة الانكليزية وآدابها) الذي فتح لي أبواب الخبرة الأدبية الانكليزية (والامريكية) بلغتها الأصلية.

(2) إن هذا الفتح جاء على يد ناطقين أصليين للغة الانكليزية لم يبخلوا على طلبتهم في التمرين اليومي لممارسة هذه اللغة حديثا وكتابة، ولا في تفتح عقولنا (أو في الأقل عقول الراغبين) على ثقافات وأفكار وممارسات كانت بالنسبة الينا أرضا بكرا وأحيانا أرضا حراما.

(3) الجو الثقافي التقدمي اللبرالي (اليساري، أو الشيوعي كما كان ينعت يومذاك) في صفوف غالبية طلبة (الدار) وبعض من أساتذتها. فمن الشعراء الذين عاصرتهم، لميعة عباس عمارة، عبد الرزاق عبد الواحد، سعدي يوسف، كاظم نعمة التميمي، محمود عبد الوهاب، وعشرات غيرهم. ومع أن بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي كانوا قد تخرجوا قبل التحاقي بالكلية، الا أن عبق أشعارهم كان لايزال يملؤها.

في سنتي الأولى، بل في الأيام الأولى منها، حدث ماذكرني بمدرس مادة الدين في ثانوية الأعظمية. كانت ثمة مادة مفروضة على طلبة جميع الأقسام (الأدبية والعلمية) هي مادة (التأريخ الاسلامي). وكانت توقعاتنا منها سلبية على أساس اننا درسنا التأريخ الاسلامي بكل تفاصيله على امتداد سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط والاعدادي . أما كان ذلك كافيا؟ بيد أن المفاجأة تمثلت في حقيقة أن أستاذ المادة (الدكتور محمد الهاشمي) الذي أطل علينا في أولى المحاضرات كان يحمل في داخله (السلبيات) عينها، حين استهلها بقوله:" أعلم انكم غير مرتاحين لفرض هذه المادة عليكم. لكنني لن أعيد سرد التأريخ الذي تعرفونه فتأخذكم سنة من النوم اثناء محاضراتي ! لا. ستكون طريقتي كالآتي: سوف أطرح عليكم نقاطا تأريخية مثيرة للجدل، فيختار كل ثلاثة أو أربعة منكم نقطة، يراجعون المصادر بشأنها، ثم يخرجون باستنتاجات على هيئة تقرير يتلى أمام طلبة الصف وتجري مناقشته ".

وأتذكر من حزمة المسائل الخلافية التي طرحها علينا مايأتي:

(1) هل كانت للفتوحات الاسلامية (في

مجرى التطبيق العملي) أغراض اقتصادية نفعية، فضلا عن أغراضها الدينية المعلنة؟

(2) هل المسلمون الفاتحون هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية؟ واذا كان الجواب بالايجاب فما هي مسوغات حرقها؟ بداوة الغزاة وأميتهم، أم تطيرهم من الفكر غير الاسلامي؟

(3) الوحي: هل الآيات القرآنية أنزلت على النبي محمد بالصورة التي توارثناها؟ أم (كما يرى بعض المستشرقين) أن" الوحي" لم يكن سوى نتاج مجموعة عوامل أخرى، منها أن محمدا كان بطبيعته ميالا إلى العزلة في الصحراء، وان الثقافة الوحيدة المعروفة في مجتمعه يومذاك كانت ثقافة قصص التوراة والانجيل (التي حفل بها القرآن في ما بعد) حيث كان لليهود وجود مكثف خصوصا في الطائف ويثرب (علاوة على تأثره بالثقافة اليهودية / المسيحية المنتشرة في بلاد الشام حينما كان يحل فيها لأغراض تجارية)، فكانت نتيجة هذين العاملين أن محمدا، مع هبوب الريح وانبعاث أصوات من رمل الصحراء المستثار، كان (يتراءى) له انه كان يسمع (آيات)، فينطقها، ثم يمليها على (كتبة الوحي)؟

لن أخفي عليكم أن طرحا كهذا لم يقتصر على امتلاكه عنصر المفاجأة بل وجدته أشبه بالفنار الذي يرشد السفن إلى المسار الصحيح المفضي إلى الميناء المقصود– وهو العلم القائم على العقل والبحث، لا على القبول الأعمى بكل مايقال أو يروى (على طريقة استاذ الدين في ثانوية الأعظمية!). ومنذئذ تمسكت برأي المعتزلة القائل: (الشك مبدأ اليقين).

أذكر شيئا آخر. كان المستر زبدي (رئيس قسم اللغة الانكليزية يومذاك) يدرّسنا مادة (تأريخ الأدب الانكليزي) في السنة الأولى، وحينما تطرق حديثه لتعريف سمات جورج برنارد شو قال انه كان مؤمنا بالاشتراكية الفابية Fabian Socialism لكن المستر زبدي أقدم على اتيان حركة مسرحية حينما ذكر كلمة" الاشتراكية" (وكان ذلك في العام 1949–1950)، اذ توجه إلى باب الصف، ففتحه ثم مدّ رأسه خارجا ليتأكد من خلو الممر من (المتصنّتين)، ثم أغلقه. اذن، الاشتراكية من المحذورات أن لم تكن من المحرمات. لماذا؟ الجواب يستدعي فهم الاشتراكية ومبررات عدّها من (التابوات) يومذاك.

كان مرسم الكلية من ينابيع الثقافة، خصوصا اذا علمتم أن مسؤول المرسم كان جواد سليم، ومنه (ومن الرسامين الآخرين) نهلنا الشيء الكثير عن مدارس الرسم (الأكاديمية، الكلاسيكية، الانطباعية، السريالية، التجريدية، التكعيبية، الواقعية...الخ).

كما حظينا بالتعلم على أيدي قامات أكاديمية– ثقافية كبيرة، منهم جبرا إبراهيم

جبرا، ناصر الحاني، صفاء خلوصي، نوري جعفر، عبد العزيز البسام، عبد الكريم الدجيلي.

في قسم اللغة الانكليزية (وهو القسم الأنشط في الكلية) شكلّنا فريقا تحت اسم (جماعة الموسيقى Music Group) لتنفيذ برنامج اسبوعي يأتي بموجبه أحد موظفيه (المستر ايلاند) كل عصر ثلاثاء مصطحبا جهاز غرامفون كهربائيا ليسمعنا قطعة موسيقية كلاسيكية (سمفونية، كونشيرتو، افتتاحية، اوبرا...الخ) بعد أن يقدم نبذة عن القطعة ومؤلفها. وكان عميد الكلية، الدكتور عبد الحميد كاظم، المثقف المتنور والحداثي، قد وافق على تخصيص غرفة استراحة الطالبات لهذه الفعالية التي لم تجتذب طلبة القسم فقط بل صار يحضرها طلبة من أقسام أخرى ومن خلفيات ثقافية أكثر تواضعا.

وهنا يجدر ألا أغبن أهمية الأنشطة الثقافية إلتى أبدع فيها طلبة الأقسام الأخرى من خلال (اللجنة الثقافية) التي كان يرأسها الدكتور شريف عسيران، مثل المسابقات الشعرية والمسرحيات (كانت الممثلة زينب – واسمها فخرية عبد الكريم – طالبة، وعبد الواحد طه موظفا في الكلية) والمحاضرات (باهر فائق وفرقة المقام العراقي، مثلا)، واغتنام كل الفرص لبث الثقافة الجديدة (كتحويل مناسبة المولد النبوي إلى احتفالية ضمت لأول مرة – علاوة على محاضرة مختصرة للدكتور مصطفى جواد– أغاني ودبكات وزغاريد... الخ).

وأخيرا، لا بد من التنويه بالأثر الكبير الذي تركه في توجهاتنا الثقافية قرب الكلية الجغرافي من (معهد الفنون الجميلة) و– بوجه خاص– من (المعهد الثقافي البريطاني British Institute) بمكتبته العامرة وفعالياته المسرحية والموسيقية والفنون التشكيلية.

بعد تخرجي في العام 1953 (بمرتبة الشرف) عينت مدرسا في متوسطة المسيب (70 كم جنوب بغداد آنذاك). وفي المسيب التقيت مدرسا للغة العربية صار له شأن كبير في عالم الثقافة (والشعر خاصة) لا على مستوى العراق حسب، بل في أرجاء العالم العربي وماوراء حدوده: مظفر النواب، حيث تشاركنا السكن في دار واحدة وحب الطبيعة والثقافة بكل تنويعاتها. وفي تلك الفترة كان اهتمام مظفر بالرسم (خصوصا في ريف المسيب) أكثر من اهتمامه بنظم الشعر، علاوة على ولعه بالغناء والموسيقى عموما. ومن هنا نمت العلاقة الروحية بيننا إلى أنه فصل من الوظيفة لرفضه التوقيع على ما سميت (البراءة من الشيوعيين). أما نظمه الشعر بالعامية فلم أسمع منه على امتداد عام كامل من التساكن سوى بيت واحد يخاطب الأثرياء:

صيح لك ييزي قهر، ييزي ظلم
يا اللي بنيتو قصور أحلى من اللقم

وحينما حاججته مداعبا:" ألا تتمنى أن

يكون لك قصرا أحلى من اللقم؟"

أجابني:" بلى، ولكن ليس على حساب سكنة الصرائف".

في اوائل العام 1955 نقلت إلى بغداد، وخلال العامين 1956 و1957 شرعت أنشر عمودا (هو في الحقيقة أطول من عمود ولكن أقصر من مقالة) كل اسبوع في جريدة (البلاد) التي كان يديرها آنذاك ابنا روفائيل بطي (بديع وكمال) تحت عنوان (ينابيع الأحرف الزرقاء) أتناول فيه قضايا، أو خواطر، فكرية وثقافية واجتماعية (لاسياسية). والظاهر أن تلك الكتابات استرعت اهتمام بعض المثقفين، حتى جاءني ذات يوم (وكنت آنذاك مدرسا في ثانوية الأعظمية) أحد مدرسي اللغة الانكليزية (غانم حمدون) ليقول لي أن ثمة عددا من المثقفين يودون التعرف عليّ. وكان ماكان، اذ تعرفت على (ثم صادقت) مجموعة تملك ثقافة موسوعية هائلة، منهم: علي الشوك، غانم حمدون، نوري السعدي، جميل لويس، بديع عمر نظمي... وصرنا نلتقي مرة كل شهر في دار أحدهم بالتناوب حيث نستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية ونناقش قضايا فكرية (في معظمها غير سياسية) وبفضل تلك اللقاءات تعزز حافزي لمزيد من القراءة والتثقف.

نعود إلى (ينابيع الأحرف الزرقاء) التي جفت (أو طمرت) في وقت ما من العام ١٩٥٧، ففي ذلك دلالة سياسية. والخلاصة هي :

حدث ذات يوم أن اوشكت سيارة (جيب) عسكرية أن تصطدم بسيارتي صدمة قاتلة لولا انحرافي عنها بأعجوبة. وحينما أوقفت سيارتي وتوجهت إلى الجندي سائق (الجيب) لمعاتبته على قيادته الخرقاء، لم ينبس السائق بحرف. غير أن الضابط الجالس إلى جواره فتح فوهة فمه وأطلق عليّ بكل احتقار:" انقلع" عدة مرات ! طبعا، لم يكن من الحكمة أن ارد على الضابط الوقح، فعدت إلى سيارتي مثقلا بالأهانة، وتوجهت إلى وزارة الدفاع، سألت حرس البوابة عن الضابط المناوب (الخفر) في آمرية موقع بغداد، فأشاروا اليه جالسا في الحديقة الأمامية الكائنة وراء البوابة. سلمت عليه وعرفته بنفسي، شكوت له ماجرى، فكان متعاطفا وحاول تهدئتي، ونسيان ماحدث. شكرته، خرجت دون أن تهدأ مشاعري. وفي تلك الليلة كتبت خاطرة بعنوان (بلادي في الحلم) عبرت فيها عن تراكمات سلبية كان معظم المتسببين فيها من البزات الخاكية . في الخاطرة خاطبت هؤلاء (دون تحديد ملامحهم): أرض العراق أرضنا وستبقى كذلك، دجلة والفرات ماؤنا، وهواء العراق هواؤنا.. واذا كنتم اليوم قادرين على حرماننا، فانتم غير قادرين على منعنا من أن نحلم ببلادنا على النحو الذي نتوق اليه.

في موعد (ينابيع الأحرف الزرقاء) نشرت (بلادي في الحلم) ضمن الفقرات الأخرى . وفي الأسبوع التالي ذهبت إلى مكتب جريدة

(البلاد) لتسليم المادة التالية فاذا بأحد أبناء روفائيل بطي يفاجئني بخبر مفاده أن وزير الداخلية (سامي فتاح) استدعى ولدي بطي إلى مكتبه في الوزارة (حيث نشر على طاولته صفحة (الأحرف الزرقاء) مسورا (بلادي في الحلم) بخط أحمر ليطلب منهما تزويده بالأسم الحقيقي لأمجد حسين على أساس أن مضمون (بلادي في الحلم) مغلف ("أشبه بالشيخ محشي"، وعلى حد تعبيره) في حين أن هدفه كان التحريض ضد النظام . وبعد شيء من الدفاع عن مقصدي وكثير من الاعتذار للوزير استجابا لطلب الوزير بمنعي من الكتابة في جريدتهما. ومن المعروف يومذاك أن روفائيل بطي وأبناءه، وبالتالي جريدتهم، كانوا موضع رعاية الدكتور فاضل الجمالي ، مايفسر التساهل النسبي الذي أبداه وزير الداخلية ازاء صانع" الشيخ محشي"!

في أواخر العام 1957 حصلت على بعثة من وزارة المعارف لنيل شهادة الماجستير في اختصاص (اللغويات) اللسانيات التطبيقية Applied Linguistics من جامعة فرجينيا (في شارلتسفيل القريبة من العاصمة واشنطن). وصلتها في شباط 1958، وبعد انقضاء أول فصل دراسي لي فيها قابلت في واشنطن الدكتور ناصر الحاني (الملحق الثقافي يومذاك واستاذي السابق في دار المعلمين العالية) راجيا منه نقلي إلى جامعة أرقى. فطرح سؤالا عن السبب، فأشرت إلى درجاتي العالية في أول فصل دراسي لي في (فرجينيا) ما يجعلها (في نظري آنذاك) لا تشكل تحديا كافيا لي. نظر اليّ الدكتور ناصر وقال بلهجته العبوس المعهودة:" يعني تريد جامعة تكسّر راسك؟". قلت: " نعم".

وفعلا حصل لي على قبول في جامعة (ستانفورد) في كاليفورنيا. نزل عليّ الخبر نزول الصاعقة المصحوبة بمطر على أرض جدباء: مزيج من الفرح والخشية. كان اسم (ستانفورد) يتلألأ في سماء الجامعات الأمريكية، مكانة وعمقا وصعوبة.

شكلت (ستانفورد) نقطة تحول باتجاه الانطلاق نحو آفاق ثقافية، وبالتالي فكرية، أرحب. صعوبة الدراسة فيها ناشئة عن حرص ادارتها على ديمومة مستواها العالي. من ذلك أن السنة الأكاديمية مقسمة إلى ثلاثة فصول quarter system لا على أساس فصلين Semester system، أي أن على الطالب أن يدرس في ظرف ثمانية أشهر ما يزيد بنسبة 50٪ على ما يدرسه طالب في جامعة أخرى ضمن المدة عينها. ليس هذا حسب. كانت نوعية الاساتذة مذهلة، والنشاطات الثقافية راقية وحاشدة، اضافة إلى قربها من سان فرانسيسكو، عاصمة الثقافة على الشاطىء الغربي للولايات المتحدة حيث سيل المعارض والمسرحيات والحفلات الموسيقية ومحاضرات الشخصيات القادمة من جميع

أرجاء المعمورة لا ينقطع. وبالنسبة الي كانت تلك جنتي على الأرض، مع انها مع الأسف – لم تكن كذلك لبعض العراقيين.

أذكر لكم هذه القصة الطريفة: ذات يوم قرأت في الصحف أن معرضا يضم كماً كبيرا من لوحات (فان غوخ) جمعت من متاحف العالم سيقام في سان فرانسيسكو، فهاتفت صديقا عراقيا جامعيا يقيم في سان فرانسسكو نفسها، وأخبرته باعتزامي القدوم بسيارتي والمرور على شقته ليصحبني إلى المعرض. فكان جوابه:" دروح عمي... آني وفان غوخ كجا مرحبة؟ روح انت اتفرج ومن تخلّص تعال عندي: أبو عايدة (ناصر الحاني) دزلي بطل عرق وأم عماد دتطبخ باجة للعشا!" . الشخص نفسه كان قد أمضى ست سنوات في ستانفورد للحصول على الدكتوراه في اختصاص التربية، لكنه أخفق مرتين في اجتياز (الامتحان الشامل) الذي يسبق كتابة الرسالة (الأطروحة). وعشية المحاولة الثالثة بذلت جهدي لإقناعه بالتحضير الوافي قبل مقابلة لجنة (الشامل الشفهي). وحينما خرج سألته عن مجريات الامتحان، فكان جوابه:" يا معود، ذولة شادّين عداوة وياياه... تصور واحد منهم يسألني: "انت من بلد نفطي. اشرح العلاقة مابين النفط والتربية". أكو هيجي سؤال خبيث؟! اشجاب النفط عالتربية؟ أكيد هذا الأستاذ يهودي!".

وكان تعليقي المشحون غضبا:" ابن الأوادم... لولا نفط العراق هل كان بالامكان ابتعاثك إلى ستانفورد للدراسة؟".

درست مساقا (كورس) بعنوان (فلسفات اجتماعية) شمل أربع " فلسفات" كانت هي السائدة (من حيث أنصارها وتأثيرها العالمي) في الخمسينيات: الفاشية والشيوعية والكاثوليكية واللبرالية الديمقراطية (أو التجريبية experimen-talism) وكان استاذ المادة لدى شرحه كلا من هذه الفلسفات يتقمص، من باب الايضاح والشمول، شخصية المؤمن بتلك الفلسفة. ففي محاضراته عن (الفاشية) كان يؤدي ، هازلا تحية (هايل هتلر)، وفي (الشيوعية) يقدم اسم أي طالب بكلمة (رفيق) ...الخ . وكان المطلوب منا، نحن الطلبة، كتابة تقرير paper عن كل فلسفة يغطيها يحتوي آراءنا وشيئا من الابداع (لا الاقتصار على تكرار ماتلقيناه منه ومن المصادر). وكان واضحا أن الأستاذ (رغم موضوعيته في الطرح) لم يكن فاشيا أو شيوعيا أو كاثوليكيا. اذن ، لابد أن يكون (تجريبيا). ولهذا كانت مغامرتي كبيرة حينما انتقدت في تقريري عن (التجريبية) خلوها من مبحث (ماوراء الطبيعة metaphysics، أو الغيبيات) الذي لاتستقيم فلسفة بدونه (ايجابا كما تفعل الكاثوليكية أو سلبا كما تتناوله الشيوعية). بل انني تماديت فطبقت مباديء (التجريبية) على جانب الغيبيات وتوصلت إلى الاستنتاج الآتي: بما أن من

المستحيل (التجريب) على كينونة اللّه مثلا، اذن فهو (تجريبيا) غير موجود. سلمت تقريري إلى الأستاذ وكلّي خشية من ردة فعله. لكن العلماء الحقيقيين هم الأوسع أفقا من كل فئات البشر. فقد جاء تقييمه لتقريري عاليا (+A) وتعليقه بخط يده على هامش الفقرة الجريئة مبهجا للنفس ومحثّا على مواصلة النهج.

في جامعة ستانفورد معهد للأبحاث هو (معهد هوفر) متخصص بمواضيع (الحرب والسلام والحضارة). ومن ترددي على مكتبته علمت أنه يحوي وثائق نفيسة ونادرة (بما فيها ما تخص الشرق الأوسط) محفوظة في قبو سرداب basement المعهد لا يسمح لأحد بدخوله الا اذا كان طالبا منخرطا في أحد المساقات (الكورسات) التي يدرّسها(المعهد) تحديدا. وكانت تربطني بأحد أساتذة (المعهد)، (نيكولاس هير)، علاقة حوارية تتمحور في معظمها حول الأوضاع السياسية في الشرق العربي (أيلول 1958– آب1955). وكان واضحا، في خضم الخشية مما سمّي بـ (المد الأحمر) في العراق آنذاك، أنه كان مؤيدا من الناحية السياسية لموقف عبد الناصر المناهض لذلك (المد)، ومن الناحية التكتيكية الفكرية مدافعا عن (البعث) باعتباره (بديلا عربيا عن الماركسية). وفي مجرى حواراتنا أشار إلى وجود كمّ كبير من الوثائق المتعلقة بهذه الأمور في (السرداب) المحرّم! ما الحل؟

سجلت (بموافقة مرشدي) اسمي في مساق يدرسه (نيكولاس هير) نفسه تحت عنوان (قراءات موجهة Directed Readings) واتفقنا على أن يكون موضوع بحثي ("فلسفة" البعث). وهكذا فتح لي باب (السرداب) الموصود، فماذا وجدت؟ كنوزا من الوثائق (منها رسائل أصلية أو مصورة) تخص جميع الحركات السياسية العربية.

وبقدر تعلق الأمر بموضوع بحثي عثرت على كل ما يعينني: رسائل بخط اليد، منها رسالة كتبها ميشيل عفلق من باريس (حيث انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي بعض الوقت، ثم تركه) إلى صلاح الدين البيطار يؤكد فيها أهمية" خلق بديل عقائدي" عن الماركسية التي سبقتهما اليها الأحزاب الشيوعية العربية، بما فيها حزب خالد بكداش في بلدهما، سوريا. فكان انتاج ما سمّي بعد ذلك بـ (الاشتراكية العربية)، وعلى مستوى العمل السياسي اندمج حزبا (البعث) و(الاشتراكي العربي) الذي كان يتزعمه أكرم الحوراني. وهكذا استورد (البعث) اشتراكيته من الحوراني.

خلاصة بحثي: لا مقبولية لمسمى (فلسفة البعث) لافتقار أفكار البعث إلى الأسس التي تقوم عليها أية فلسفة معترف بها فكريا على النحو الذي دلّني عليه مساق (فلسفات اجتماعية) الذي مرّ ذكره، بل هي مجموعة مبادىء سياسية (أيديولوجية) موزائيكية استعير بعضها من الماركسية بعد أن ألبست

كوفية وعقالا عربيين رشّت عليهما عطور اسلامية ! ولم يتطرق بحثي إلى التطبيق والممارسات العملية، فقد كان ذلك خارج اطار الموضوع (رغم غزارة المواد في (سرداب) المعهد) . وكما هو نهج أهل العلم الأصائل، جاء تقييم (نيكولاس هير) لبحثي عاليا رغم اختلافنا الجدلي.

في بغداد (تشرين الأول 1959) عينت مدرسا في قسم اللغة الانكليزية بكلية التربية (جامعة بغداد)، وانضممت إلى مجموعة (القائمة المهنية) التي فازت في انتخابات نقابة المعلمين في دورتين متتاليتين بزعامة نقيبها الأستاذ نجيب محي الدين .أما على صعيد النشاط الفكري فقد أصبحت عضوا في هيئة تحرير مجلة (المثقّف) (1959–1963) وكانت (في رأيي) أرقى مجلة فكرية يومذاك. كانت هيئة التحرير يرأسها د.مهدي مرتضى وشارك في الهيئة علي الشوك، خالد السلام، د.غانم حمدون، د.علي العبيدي، سامي عبد الرحمن، عصام القاضي، وغيرهم. وكنت أنشر فيها مقالات في النقد الأدبي أو اخرى مترجمة.

أما الخطوة الجبارة الأولى في مجال ترجمة الكتب فقد كانت في العام 1962، حين قررنا (علي الشوك وغانم حمدون وأنا) ترجمة ملحمة (الدون الهادئ) لميخائيل شولوخوف عن الانكليزية، بعد أن بهرتنا بمحتواها وطريقة تناولها وبنيتها.

والرواية –الملحمة تتألف من أربعة مجلدات، بلغ عدد صفحات الترجمة العربية بعد الطبع أكثر من (2360) صفحة. سؤال: كيف يتسنّى لثلاثة أن يترجموا رواية واحدة؟ الجواب: كنا نتوزع الفصول، ثم نجتمع ثلاثتنا ليتلو أحدنا ترجمته بينما يتولى الآخران مهمتين: تحرّي مدى مطابقة الترجمة للنص الأصلي ، ومدى انسيابية الترجمة بعد أن غدت نصا عربيا. كانت التجربة تشكّل تحديا لنا جميعا.

ربما سائل يتساءل: لماذا اخترتم نصا (سوفيتيا) لا بد أنه كان يضم دعاية للنظام السوفييتي يومذاك؟ أبدا. فالرواية ذات سرد رائع لمحتوى معقد، ذلك لانطوائه على كل مايميّز الروايات الكلاسيكية: فثمة علاقات غرامية، وصور لأفراد متنوعين، ووصف لتفاصيل (مايكروسكوبية)، وقبل هذا وذلك، فان مسرح أحداث الرواية هو في الجبهة المعادية للثورة البلشفية (مقاومة القوزاق لها)! ولعل هذا كان أحد أسباب منح شولوخوف جائزة نوبل في الأدب في العام 1965 تقديرا لروايته هذه على وجه التحديد.

أنجزنا (ثلاثتنا) الأجزاء الثلاثة الأولى، ثم فرقتنا الظروف في أصقاع مختلفة من العالم في العام 1963، فما كان من زميليّ الا ان أصرا على أن أتولى، منفردا ترجمة الجزء الرابع (والأضخم). وهذا مافعلته، أي أن نصيبي الاجمالي كان ترجمة مايزيد على نصف الملحمة. ومع ذلك، فحين حملت

المسودة الى بيروت لطباعتها وجّهت الناشر بأن تحمل الرواية أسماء ثلاثتنا، وهذا ما حصل في المرات الست (حتى الآن) التي شهدت اعادة طبعها.

لا مجال لفصل الفكر عن السياسة، خصوصا في ظروف الأعوام 1958-1963 فمع أن جلّ اهتمامي كان منصبا على النشاط الثقافي (والأكاديمي، طبعا) كانت استقلاليتي الفكرية لا التنظيمية هي سمتي التي أعتز بها. وربما لمس الصديق الاستاذ نجيب محي الدين ذلك فصرت أحضر (مع مثقفين آخرين)، تلبية لدعوته، اجتماعات في دار المرحوم كامل الجادرجي للتحاور ولمناقشة مشروع دستور جديد لـ (الحزب الوطني الديمقراطي) اثر الانشقاقات التي حصلت داخله.

ثم حدث انقلاب 8 شباط 1963، فكان نصيبي الاعتقال والعزل من الخدمة مع ثلث أعضاء الهيئة التدريسية لجامعة بغداد!

ومع انني أحاول في كتاباتي أن اتجنب الخوض في التفاصيل (الفرانكشتاينية) لما كابدناه في معتقلات (الوحدة والحرية والاشتراكية)، بيد ان سرد الواقعة الآتية قد يكون ذا دلالة.

ذات يوم نقلنا، نحن مجموعة من الأكاديميين، الى معتقل (مقر الاتحاد العام لنقابات العمال) الكائن قرب (القصر الأبيض). وفي صباح اليوم التالي نودي على اسمي، واقتادني أحد الحراس الى غرفة التحقيق، فاذا برئيس لجنة التحقيق صدام التكريتي (وهو الأسم الذي عرف به منذ محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم حتى تبوئه قمة هرم السلطة بعد انقلاب 1968 وقراره بالغاء استعمال الألقاب بعد شيوع بعضها في أسماء كبار الحكام الجدد). شخصية منذ وقع ناظري عليه لأن صورته ظلت تنشر في الجرائد في 1959 بصفته مجرما هاربا.

كان يجلس خلف منضدة مليئة بملفات (الأمن العامة)، والى جانبه كاتبان يدونان محضر التحقيق. وعلمت أنه كان قد عاد من بلد اللجوء (مصر) بعد الانقلاب بعشرة أيام وأنه عين محققا لدى (الأمن العامة).

من بين الأسئلة التي وجهها لي: " شلون انتو أساتذة وتقولون احنة مثقفين وتأيدون عبد الكريم قاسم، ها؟".

أجبته:" نحن نؤيده ونعارضه معا".

– "شلون يابة؟".

– "نؤيد وطنيته وكثيرا من خطواته، كالخروج من حلف بغداد والاصلاح الزراعي وبناء المعامل والقانون رقم(80) ...."

قاطعني :" آنه ما أشتري هذا الحجي بفلس. الحاكم اللي مايؤمن بالتنظيم الحزبي نهايته في أحضان الاستعمار. هذا عبد الناصر مو سوّه فضل عليّ وآواني عنده كل هالسنين ... لكن مصيره في أحضان الاستعمار لأنه ضد تشكيل الأحزاب!".

بعد انتهاء التحقيق عدت الى زملائي وقلت

لهم:" روحوا تلقوا أعمالكم فالمحقق هنا فيلسوف ومنظر".

ثم أثبت أسلوبه في" الفلسفة" كونه:، لا لاجئا عاقا، بل ساديا حطم بيده عظام عدد من خيرة الأساتذة مثل د.صلاح الخزرجي ود. طه ناجي وآخرين.

في اوائل العام 1964 انتقلت الى الكويت، وعملت رئيسا لقسم الترجمة في (شركة البترول الوطنية الكويتية)، وفيها أكملت ترجمة (الدون الهادئ).

وعملت تجربتي الكويتية على اغناء معرفتي بما لم تسبق لي تجربة معه: النصوص القانونية والادارية والتقنية والاعلامية ... الخ.

في أواخر العام 1971 عدت الى جامعة بغداد (كلية الآداب) مدرسا ثم استاذا مساعدا ثم استاذا. وبالاضافة الى التدريس وكتابة البحوث في حقل اختصاصي عدت الى ترجمة المقالات، الى أن فاتحتني وزارة الثقافة والاعلام ممثلة (بدار المأمون)، التي كان مديرها العام ناجي صبري الحديثي يومذاك، لترجمة سلسلة من الكتب، هي:

(1) رواية (نساء عاشقات) لـ(د.هـ. لورنس)، طبعت بجزءين، ثم أعادت دار (المدى) طبعها في دمشق في كتاب واحد (2010).

(2) مجموعة (اللعب في الغسق) القصصية لـ (أنيتا ديساي).

(3) كتاب (الدبلوماسية والمخابرات خلال الحرب العالمية الثانية) لـ (ريتشارد لانغهورن –محرر). لم يطبع لأن (مراجعي السلامة الفكرية) في الوزارة وحزب البعث ومديرية المخابرات، على التوالي، رفضوا نشره دون بيان الأسباب التي (في تقديري) كانت قائمة على احتوائه اشارات لعمليات حصلت في أوربا قد تجعل قارءها العراقي يعقد مقارنة، على سبيل المثال، بين مافعله النظام الفاشي (موسوليني) في ايطاليا من اجراءات" ضبط" المجتمع الايطالي على وفق ايديولوجيته (مثلا:" اعادة كتابة التأريخ") وعمليات " تجنيد المثقفين" في صفوف المخابرات التي نفذتها في بريطانيا أجهزة المخابرات السوفيتية (kGB) والبريطانية (MI 5)،وبين ممارسات مشابهة في العراق.

(٤) رواية (حرب نهاية العالم) لـ (ماريو بارغاس يوسا) الحائز على جائزة نوبل في الأدب في العام 2010 ، عن دار المدى في 2012.

في العام 1993 أحلت نفسي على التقاعد وغادرت العراق الى ليبيا. ولعل المقتطف الآتي من رسالة بعثتها الى الصديق غانم حمدون في لندن تغني عن شرح مبررات المغادرة: "تركت بغداد غير آسف... هذه هي المرة الثانية التي أتخذ فيها مثل هذا القرار(...) فأنا من الذين يمدّون

الحبل مع تزايد "جماغات" الوطن، على أساس ان "الجماغات" الوطنية يمكن امتصاصها بالمزايا الاخرى: استمرارية الاستقرار، وجود أصدقاء العمر حولك، الأقارب، حق عمرك (أو شيخوختك) عليك...الخ. لكن هذه الموازنة كانت تميل الى الاختلال، خصوصا في السنتين الأخيرتين، بحيث أمسى الروتين اليومي مصدر ازعاج وقلق دائمين، وصار البؤس والكآبة هما الهواء الذي نتنفس. ولعل الأنكى من غلاء المعيشة وفقدان مقومات الحياة الاعتيادية– على أهميتها– أنك صرت تلاحظ تحول الكثير من البشر الى قرود! وقد تثلج هذه الظاهرة صدر المرحوم (دارون) وهو في لحده. لكن فرحته ستكون قصيرة العمر حين يدرك أن هذا التحول ليس بايولوجيا بل سلوكي. واذا كانت ظاهرة " الاستقراد" متفشية في الوسط السياسي (حتى قبل مكيافيللي) فان انتشارها في الوسط الجامعي أمر صعب ابتلاعه. ولكن يبدو أن هذا هو الذي يجري الآن. وهكذا صرت أتلفت حولي فاذا هذا الاستاذ وذاك النطاسي يسارعان الى نزع اهاب الآدمية عن احساسهم والانضمام الى حظيرة القردة حتى قبل أن يشرع" المروّض" بقرع طبلته!

لماذا يحصل كل هذا؟ ساذج، أليس كذلك؟ أهي الحاجة الى المحافظة على مصدر الرزق في زمن الجدب والفاقة هذا؟ أهي الرغبة في الصعود، بصرف النظر عما يؤدي اليه – في زمن صار فيه الصعود على مستوى المنصب والمال صنوا للانحدار؟ أم هي تطبيق للقاعدة الشاذة والشائعة هذه الأيام:" الكل يفعل هذا"؟

وتعبت، ياعزيزي، تعبت... من السباحة ضد التيار، وتعبت من مغالبة الرغبة في البصق على الكثيرين، وتعبت من السكوت (كالشيطان الأخرس) ازاء قلب الحقائق،وتعبت من تمثيل الأدوار وتغيير الملابس، وتعبت يداي من التشبث بكياني متماسكا خشية أن يجرفني التيار، وتعب قلبي من فرط التألم على مايجري حولي أربعا وعشرين ساعة يوميا ، سبعة أيام اسبوعيا، ثلاثين يوما شهريا، ألف يوم سنويا".

أمضيت في ليبيا خمس سنوات رئيسا لقسم اللغة الانكليزية في (جامعة السابع من أبريل) في مدينة الزاوية، وفيها (رغم تخلفها) عشت فضاء الحرية لأول مرة منذ عقود (القنوات الفضائية العالمية، السفر بلا قيود، رفع الأقفال التي كانت تكمم أفواهنا في بلدنا...الخ). وفي العام 1998 انتقلت الى الاردن حيث مارست التدريس في الجامعات الرسمية أكثر من ست سنوات. ومنذ تقاعدي في العام 2004 انصرفت الى الترجمة بالاتفاق (في الغالب) مع مؤسسات

دولية مثل (مركز الدراسات الاستراتيجية – دراسات عراقية / بيروت)، (المنظمة العربية للترجمة/ بيروت)، (برنامج الأمم المتحدة الانمائي/ عمان) وغيرها، كما أتاح لي وضعي الجديد حضور المؤتمرات والندوات الثقافية في الأردن والعراق.

منذ العام 2004 ترجمت الآتي:

(1) (الأغا والشيخ والدولة: البنى الاجتماعية والسياسية لكردستان) لـ (مارتن فان برويسن)، بجزئين/ بيروت (2007).

(2) (مدحت باشا ونظام الأراضي في جنوب العراق) لـ (ألبرتين جويدة)/ بيروت (2008).

(3) مقالات في الاعلام/ مجلة" تواصل"/ بغداد.

(4) العلاقات مابين الدولة والجامع في العراق: 1968–2004) لـ (أماتزيابارام)/ بيروت(2008).

(5) التقرير الوطني لحال التنمية البشرية في العراق ،2008) لـ (برنامج الأمم المتحدة الأنمائي/UNDP) عمان (ترجمت حوالي 80٪ منه من الانكليزية الى العربية وبالعكس).

(6) أوراق (مؤتمر النفط والغاز في العراق) الذي عقد في باريس في 2008 (تحت الطبع)

(7) أوراق (مؤتمر البلدان المتشاطئة) الذي عقد في ستوكهولم في 208/ برنامج الأمم المتحدة الأنمائي/ عمان.

(8) (الجماعة والمجتمع والثقافة: ثلاثة مفاهيم لفهم الهويات المتنازعة في يومنا الحاضر) لـ (موريس غوديلييه)/2009/ عمان (تحت الطبع).

(9) (القبائل في التأريخ: القبائل والدولة) لـ (موريس غوديلييه)/2009/ الجامعة الاردنية/عمان (تحت الطبع).

(10) (العمامة والأفندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني) لـ (فالح عبد الجبار)/2010/بيروت.

(11) (تضخيم الدولة العربية: السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط) لـ (نزيه الأيوبي)2010/ بيروت .

الانحلال الاحتمالي للمعنى الأول في المعنى الآخر.. قراءة مجاورة / قراءة متساءلة أي (أيّ فلسفة للقرن الحادي والعشرين؟)

مقداد مسعود

مقداد مسعود، شاعر وناقد من مواليد 1954، أصدر العديد من الدواوين الشعرية: المغيب المضيء (بغداد/ 2008)، زهرة الرمان (دمشق/2009)، الزجاج وما يدور في فلكه (بغداد/2009)، بصفيري أضيء الظلمة وأستدل على فراشتي (دمشق/2010)، شمس النارنج (دمشق 2011). وله في النقد: الأذن العصية واللسان المقطوع / قراءة اتصالية في السرد والشعر (دار الينابيع/ دمشق/ 2009). كما نشر مقداد مسعود العديد من المقالات في الصحف والمواقع على الانترنيت.

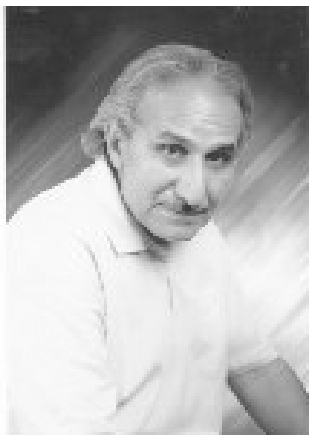

في 26/25 شباط/فبراير/ نظّمّ مركز جورج بومبيدو مؤتمرا دوليا بالتعاون مع دار نشر غاليمار..وتمخض المؤتمر عن كتابين فلسفيين (قرن من الفلسفة/1900–2000) و(أيّ فلسفة للقرن الحادي والعشرين ؟) ترجم الكتاب الثاني للعربية في أيار /2011. تحاول قراءتنا المنتجة انتخاب قراءة معينة لمفاصل من الكتاب..الذي يستحق قراءات متنوعة..

استراتيجية القراءة..

بعد تكرار قراءتنا المنتجة للنصوص الفلسفية العشرة ..قررنا ترك النص (texte) والخروج الى السياق context

2-1

نار الاولمب الطبقية...

مع انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في الثلث الاول من القرن العشرين ،أصبحت الماركسية بطبعتها اللينينية سراج

الشعوب الفقيرة ..فقد استعاض لينين عن ماركسية الحتم التاريخي لماركس ،أعني (الضرورة الحديدية للتاريخ)..مؤكدا دور (القيادة البروليتارية) (2) في ذلك.. على الشاطىء الثاني الموازي للثورة الفتية العظمى ،انتقلت عدوى الثورة الى المانيا وسرعان ما قمعها العسكر وكان من ضحاياها القائد الثوري كارل ليكبنخت، وشعلة الثورة (روزا لوكسبورغ).

(جمهورية المجر السوفياتية) لم تأخذ من سنة 1919 أكثر من 123 يوما، ثم فر (بيلا كن) رئيس الجمهورية الى النمسا..ولم يتخل حالم الكرملين (فلاديمير لينين) عن انتظاره الاممي للثورة الأممية في اوربا الغربية الرأسمالية،ها هو يكتب في 1920 (..الامبريالية على شفاه الثورة الاجتماعية للبروليتاريا، هذا ما أثبت صحته في عام 1917 على الصعيد العالمي)..في 1921 ينعقد الكومنترن الثالث..فينشب النزاع والتساؤل ..هل الوضع العالمي وضعا ثوريا؟ ام ان (التاريخ خائنٌ بصورة شائنة في ما يتعلق بسرعة تحرك الثورة؟) حسب (النبي المسلح)* ليون تروتسكي؟..ولأن النظرية رمادية اللون والحياة وحدها شجرة خضراء..فأن لينين نفسه استوعب قوة المصدات الأمبريالية في قمع الحركة الثورية العالمية وتعليق قيام الثورات الاشتراكية..لذا أكد في 1923.. (ان روسيا انعدم امامها أي خيار، لابد ان تخلق الظروف التي تسمح بالانتقال الى الاشتراكية دون المرور بالمرحلة الرأسمالية)..

ولينين هنا يغترف من العقل الماركسي وفق منجز الاشتراكيين الثوريين الروس : (تشيرنيشفسكي)و(بليخانوف)و (تكاشيف)..ليصنّع ماسوف يعرف ب (الماركسية الخلاّقة)..وما سوف يشخصه الشاعر مايكوفسكي في قصيدته (ضاع في الكومنترن) سيشكل بداية طيبة بين لينين وما يكوفسكي..فقد اعُجب لينين بقصيدة ما يكوفسكي وهي تسلط الضوء على حالة البيروقراطية في الحزب....

وسيكتب لينين قبيل وفاته في 1942 مايأتي: (دولتنا دولة عمالية منطوية على تشويه بيروقراطي..ان النضال ضد البيروقراطية سوف يستغرق عقودا من الزمن،وسيكون هذا النضال من أشد النضالات صعوبة) .. لكن الوعي الاشتراكي بوهجه كان يسري في غابة الرأسمال..وأنتج مفكرين كبارا امثال (غرامشي)..(كورنيلوس كاستورياديس) ومدرسة فرانكفورت الفلسفية، التي كانت تضم الفلاسفة (يورغن هابرماس / أدورنور/ والتر بنجامين / إيريك فروم/ ليو لوفنتال) ..

وفي البلدان المستعمرة..كانت الخلايا الماركسية ترّصن نسيجها في مصر والعراق وبلاد الشام.ومن جانب آخر وتحديداً على المستوى الفلسفي أصيب العقل الكونيالي برد فعل ازاء منجزه الفلسفي وتحديدا الديالكتيك الهيغلي والشك الديكارتي، فانتشر التناول الشعري للوجود وانتعشت الوجودية كفلسفة تعايش ومعاناة في الحياة،ورأت في الرواية والشعر ميدانا لفلسفتها وهكذا انتشرت روايات سارتر ومسرحياته وكذلك الاعمال الادبية لرفيقته سيمون دي بوفواروروايات فرانسوا ساغان ومسرح العبث : صموئيل بيكت/ آداموف/ ادوار البي/ اوجين يونسكو/جان جينيه..

وروايات البير كاموحيث تحولت رواية (الغريب) انجيلا للوجودية.. وسرعان ما وجدت الوجودية أبا فلسفيا جاهزا وهو الفيلسوف سورين كيركغادر المتوفى قبل قرن، وجعلت من كتابه (أما أو..) ضمن التداول.. سورين كيركغادر وحصريا الانسان المكابد والشقي في سورين كيركغارد، كان ينحاز بكليته الى اقصى الذاتية، ذاتية الفيزيقي وليست الميتافيزيقيا لذا انتج رفضه المزدوج للحتم الهيغلي للتاريخ والكوجيتو الديكارتي، واشتهر بمقولته المتقاطعة مع الكوجيتو الديكارتي (أنا أفكر إذن أنا موجود)،حيث اعلن كيركغارد عن كوجيتو مضاد (أنا أفكر إذن أنا غير موجود).. في هذا الكوجيتو يعلن كير كغارد ان انسانية الانسان ليست فكرا محضا،بل هي تتشقق من أحاسيس الانسان وهفواته الضرورية لمعرفة الوجود، وهكذا اصبحت الوجودية تمردا على إرادة النسق الشمولي الممتد من القرن الثامن عشر وصولا الى الثلث الاول للقرن العشرين.. ونرى ان وجودية عصر سارتر.. مسبوقة بممهدات منها: الدادئية،التي تشظت من الحرب الكونية الاولى.. وهكذا تكون الدادائية والمستقبلية والسوريالية محاولات جريئة في الخلاص من ابوية النسق الفلسفي الصارم...وهناك ردة فعل أخرى على النسق الهيغلي والديكارتي .. لكن هذه الردة، اشبه ماتكون ردة اروقة مقارنة بالوجودية كردة جماهير وتتشخصن ردة الاروقة بالفلسفة الوضعية المنطقية وكذلك فلاسفة المنطق البريطانيين برترند رسل ومشتقاته. ومدرسة فيينا التي تنطلق من ضرورة تحديد المدلول واخضاع الحكم الوارد في العبارة لمعيار القابلية للتحقق وهنا قامت الردة بتقعيد الفلسفة في غرفة المختبرالتحليلي والمنطقي واصبحت الفلسفة محضاً مساعداً ضئيلاً للعلم وظيفتها العناية بدراسة لغة العلم ..وحسب فتغنشتاين .. (لم تعد المذاهب الكبرى التي تنطوي على أفكار عامة وشاملة لكل مظاهر الكون. وإنما أصبحت مجرد تحليل للغة العلم أو توضيح منطقي للفكر العلمي تحديدا) وفي هذا الصدد ،يرى جاك ديريدا ان (النزعة الوضعية،التي تجعل الفلسفة نمطا من المعرفة ينتمي الى مرحلة عفى عليها الزمان، وتبشر بقدوم عصر جديد، يتولى العلم فيه حل المشكلات التي طرحتها الفلسفة، إن لم يطح بها كلية بوصفها مشكلات زائفة /ص36)(3).

والسؤال الآن ..ما الذي استفز مفكري اوربا ودعاهم الى الاتفاق الكلي في العودة الى الفلسفة الاغريقية ..؟ وهي بشهادات فلاسفة غربيين إنها كفلسفة لم تغادر أنساق التحديدات والتقابلات المفهومية .

وهذا سوف يتجسد في الماهية وكذلك في الوظيفة العادية للميتافيزيقيا، سيكون ماننقله عن افلاطون مساوٍ الى قولنا في ارسطو أو بارمنديس وصولا الى كانط..الذي سيشكل تفارقا فلسفيا كبيرا،ليأتي هيغل كأعظم مستثمر لمنجز كانط.. هيغل: مسك ختام الميتافيزيقيا الاوربية.. ونحن في الوقت نفسه لا ننكر الاضافات الإغريقية للفلسفة، ولكنها اضافات داخل السياق وليس تمردات عليه...مما يجعل المنظومة الفلسفية منضّدة بترابط في مجال المفهمة،والديالكتيك والعقل المحض...الخ.

ومن جانب آخر ان(التجريبية – الاستقرائية التي مهدت ورافقت حركة النهضة الاوربية الحديثة في الفهم والنظر،تقف وراء استبعاد المطلقات ورفض قانون الهوية الارسطية/ص108)(4).

السؤال الثاني لماذا ارسطو حصريا..؟..وهنا استعين بالفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو من باب(شهد شاهد من اهلها) حيث يعلن فوكو(ان عصرنا هذا كله،سواء من خلال المنطق ام من خلال الابستمولوجيا وسواء من خلال ماركس ام نيتشة هو عصر يحاول الافلات من هيغل) (5).

ونرى مصداق كلام هذا الفيلسوف الشاهد، في محاولات استاذ الفلاسفة الفرنسيين اعني الماركسي بابا ألتوسير،الذي بعد مئة وخمسة عشر عاما من نقد ماركس لهيغل يكرر محاولة ماركس في هذا المجال، وهنا اردد مع المفكر هشام غصيب (لماذا شعر ألتوسير بالحاجة الماسة الى نقد هيغل في مطلع ستينات القرن العشرين)(6).

السؤال الثالث هل يتمكن ارسطو ان يقدم لنا قراءة إنقاذية لتدهور الفكر الكولونيالي في (عصر الرأسمال)؟

إذا كانت الفلسفة هي (المعرفة العقلية) كما جاء في موسوعة لالاند /المجلد الثاني/ ص980 وهذه التعريف الوجيز حين نفككه يعني هل يعني فقط العقل الانساني وفق المبادىء الثلاثة التي اجترحها أرسطو:

* مبدأ الهوية
* مبدأ عدم التناقض
* مبدأ الثالث المرفوع

وهي تشتمل في تفرعاتها على: الشمول/ الدقة/ الاحصاء/ المعاينة / التنظيم/ الاستقراء/ الاستنباط

ومن جانب آخر، تحذف : التجربة الحسية/ الحدوس الصوفية/ الرؤيا بالقلب/ العاطفة/ التقليد..

وفي هذا الصدد يقرن الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز موافقته للعمل في حقل الفلسفة..(شريطة تبديد مبدأ الهوية ويضيف بأن على تاريخ الفلسفة أن يلعب دورا مماثلا للدور الذي تلعبه الملصقات Collageفي ميدان الفن التشكيلي/ ص14)(7)..وفي كتابه الضخم (الاختلاف والتكرار) يتبين رفضه لمبدأ الهوية من خلال اعتناقه لفلسفة الاختلاف ،فالكائن ليس هو الماثل ،لأن التمثل يعمل وفق ميكانيكزم اتصالي لمبدأ الهوية، الذي يجعل تاريخ الفلسفة كله محكوماً بهذا الخطأ .

السؤال الرابع: هل يكفي فيلسوف واحد للقرن الحادي والعشرين؟ اليس في ذلك معاداة لأرسطو ذاته، الذي جاء ضد الفكر الاسطوري بخرافاته وطلاسمه وشعوذاته؟..

السؤال الخامس هل يمكن تقرير مصير الفلسفة من خلال مؤتمر او ورشات عمل فقط؟

ما الذي يمنع ان تكون المشاركات في المؤتمر عبر التشارك الاممي بين الحضارات وتكون ثمة اوراق نقاشية عربية واسلامية تمثل الحضارات العربية الاسلامية واوراق تمثل الحضارة الهندية و الحضارة الصينية و...الخ؟ وفي هذا اقول مع المفكر العراقي الراحل هادي العلوي..(مايزال عصرنا عصر الهيمنة الاوربية وما يزال جمهرة مثقفينا تستريح.....على ان لكل أوج حضيضاً تنعطف منه الاشياء الى مصائر

مغايرة وقد تأوجت الهيمنة الغربية الى حدود لم يعد بالمقدور تجاوزها الى ذروة أعلى واستكمل الغربيون حلقات حصارهم ففرضوا على المحصورين أن يبحثوا عن منافذ للافلات..ما نشكو هيمنته علينا ليس العلم الغربي أعني ليس انشتاين أو فرويد، بل الايديولوجية الغربية، كما ان ما يعنينا

اليوم ليس الفكر الشرقي المتنافر مع جمود الحقائق العلمية بل الفكر الشرقي في تدامجه مع الطبيعيات وتراث الفكر الشرقي الذي اتسع لكونفوشيوس ولاوتسو كما اتسع للغزالي والخوارزمي وسيخدم الكشف عن منابع جديدة لثقافتنا في اعماق آسيا هدف انفلاتنا من هيمنة الثقافة الغربية التي نريدها ان تكون احد روافد ثقافتنا وليس النبع الوحيد الذي يتزاحم عليه الرواد/ 8-9/) (8).

فضائل أرسطو..

لا يمكن التقليل من شأن ارسطو كفيلسوف ،فهو على ذمة شراحه يعد مرحلة فلسفية بحد ذاته ،حيث استطاع النفاذ من اشكالوية فلسفية حادة بين القائلين بمبدأ الحركة واللاكائن وأنصار مبدأ سكون الكائن وابديته فقد نجح ارسطو في حسم التناقض بين الفريقين من خلال قولته الفلسفية التالية (إن الكائن يقال بمعانٍ عديدة،فالجوهر والكمية والإضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال هي هذه المعاني المختلفة التي يمكن للكائن ان يقال انطلاقا منها ومامن لفظ من هذه الالفاظ يُثبت أو ينفي شيئا من ذاته أو بذاته فقط بارتباط هذه الالفاظ في ما بينها،يتم الاثبات والنفي..) ولا يكتفي ارسطو بذلك فهو ينتقل من المجرد الى المحسوس قائلا:"

فما هو الجوهر؟ هو مثلا :إنسان،حصان..

الكمية؟ ما طوله ذراعاه

الكيفية؟ أبيض، عالم لغة

الإضافة؟ ضعف، نصف، أكبر

المكان ؟ أين..

الزمان؟ متى

الوضع؟ مستلق،جالس،

المِلك؟ منتعل، مسلح

الفِعل: يقطع، يحرق

الانفعال : مقطوع،محروق ".

من دواعي المؤتمر:

(على مدى عشرين قرنا، قامت هذه المقولات ..بإملاء القواعد الاساسية للتفكير الفلسفي،فماذا تبقى منها اليوم؟ هل ينبغي التخلي عنها؟ وهل يجب أن نعيد التفكير فيها بصيغ جديدة؟ مامن جواب ممكن إلا (بصيغة)المفرد، من خلال فحص كل مقولة على حدة وبالجمع،من خلال احترام تنوع المقاربات والتقاليد الفلسفية التي ستستجيب كما الصدى بعضها لبعض./ص١٠/دانيال سونيف/ ايريك فيني)..

وكقارئ منتج أرى اننا امام محاولة من محاولات مايسمى بـ (اللاهوت السلبي) اننا سوى ندرك ماهية الذات الارسطية من خلال نفينا عنها كل ما لا يليق بها..وعلى مستوى آخر يعيدنا هذا الامر الى لعبة التوازيات ..حيث عضد العقل الكولونيالي في حقبة المد الماركسي الجماهير والاكاديمي في النصف الاول من القرن العشرين ،عضّد مشروعين فلسفيين كمصدين ازاء المد الماركسي ،المشروع الاول يمثله نيتشة ودولوز والثاني هيدجر وديريدا وميشال

فوكو، ويشترك المشروعان في رفض الهيمنة الهيجلية والبنيوية،وفي بلورة النقد انطلاقا من الميتافيزيقيا وضدها في آن،وفي اللجوء المشترك الى مفهوم الاختلاف ..واستمر المد الماركسي في الاجتياح الى نهاية العقد الثاني من النصف الثاني للقرن العشرين ،وبشهادة مضادة تؤكد ذلك وهي شهادة (فيلب مانغ) حيث يرى ان كل من فوكو/ ديريدا/ دولوز..(كان منطلق هؤلاء الفلاسفة شعورهم،بأن الفلسفة ظلت خلال الفترة 1960–1970 متخلفة عن ركب ما يجد في حقل العلوم الاخرى..وكأن الفلسفة وصلت الى طريق مسدود/ ص8)(9).

ومع التمرد الطلابي 1968 الذي اندلع من فرنسا وانتشر في اوربا، وأمريكا بقيادة الطالب الجامعي(كوهين بانديت) ورفاقه، وهم يحملون ملصقات فيها صور(أرنستو جيفارا) (هوشي منه) (ماوتسي تونغ) سرعان،ما تبنى العقل الكولونيالي تخريجات (هربرت ماركيوز) كنبي لليسار الجديد،والقصد من ذلك مصادرة حماس الشباب الاوربي وتعليق الثورة، فانتشرت في اوربا وفي البلدان العربية في ذات السرعة الضوئية، مؤلفات ماركوز، أمثال(الحب والحضارة)..(الانسان ذو البعد الواحد)..(فلسفة النفي) وغيرهامن الكتب الباثة للوعي الزائف.. والحقيقة كانت خلافا لذلك كما فضحها المفكر الكبير محمود أمين العالم في كتابه (ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود) ..(مع انفجار حركة الطلبة والشباب عام 68، كانت هناك اضرابات عمالية عارمة في كثير من بلدان العالم الرأسمالي وانجلترا وايطاليا واليابان وغيرها،ولكن وسائل الإعلام الرأسمالية، كادت أن تتجاهلها تماما، مركزة أضواءها على حركة الطلبة والشباب، ليس هذا فحسب بل، حاولت أن تنسج بينها وبين مفاهيم ماركيوز جسورا مشتركة بحيث تجعل من مفاهيم ماركيوز القوة المحركة والدلالة المفسرة لهذه الحركة،وسرعان مابدأ ماركيوز نفسه يشترك في هذه اللعبة، فأخذ يتنقل بين العواصم ويلقي المحاضرات والندوات بأعتباره المبشر بها والنبي المنتظر للثورة الانسانية..كان الهدف،هو محاولة ركوب موجة الحركة الطلابية والشبابية،لتزييف دلالتها والانحراف بها فكريا وعمليا واستيعابها في النهاية ، لغير مصلحة أهدافها النبيلة/ص22)..(10)

(****)

شهادة المترجم انطوان سيف

في ص12 من معرض حديثه عن مؤلفات ارسطو، يخبرنا المترجم " لم يصلنا من كل هذه المؤلفات سوى 47 مؤلفا، وهذه المؤلفات الباقية ليست كاملة، بل أصابها النحل إما بكاملها من حيث اسلوب الكتابة دون المضمون، اذ يرجّح كتابتها من بعض تلاميذه لا من ارسطو نفسه، وإما من حيث مضمونها الذي لا ينسجم مع مواقف ارسطو العلمية والفلسفية المعروفة،أو بعض اجزاء او مقاطع منها، أقحمت في النص الارسطي الاصلي أو ببعض الاجزاء الناقصة المفقودة من النص الاصلي وإما أخيرا،من حيث ترتيبها ضمن كتب لم يضعها ارسطو نفسه على هذا النحو ام بالتالي من حيث ترتيبها وفقا لأزمنة تأليفها،التي لاتزال مجهولة على العموم، وواقعة في نطاق التخمين..." . وسيكررالمترجم الكلام نفسه في ص34.

وفق كلام المترجم ..ان ماتوفر من كتب موقعة باسم ارسطو ليست كتبا ارسطية إلا بالاستعاضة، وعبر فهم الشخص المنتحل وقراءته الشخصية في انتاج ارسطو حسب وعيه.

هو..اذن ماتقدمه الاوراق المشاركة محض قراءات في كتب هي في الحقيقة غير الارسطية...؟!

ووفقا لكلام المترجم.. " واذا كانت الترجمة هي في الاصل تأويل،أو أختيار (قراءة) للنص من بين (قراءات) عدة محتملة،أو هي فعلا طرد واستبعاد لقراءات أخرى او استبقاء على واحدة منها وحسب، فإن هذا الخيار الاولي الذي قام به المترجم السرياني منذ أكثر من ألف عام، قام به في الحقيقة مرتين ،الاولى: عندما انتقل من لغة هندو- اوربية هي اليونانية،الى لغة سامية هي السريانية، والثانية: عندما عاد، هو نفسه ونقل هذه النصوص السريانية (السامية) الى لغة سامية أخرى هي العربية". (ص44).

وبشهادة المترجم (ان القراءة السريانية الاولية، لنصوص ارسطو تحديدا، لم تكن ارسطية صافية ولن تكون بالتالي هكذا عند العرب اللاحقين وعند الاوربيين الوسيطيين الذي اخذوا عن العرب /ص45).

2-2

ألا يمكن اعتبار السؤال: حصاة الفلسفة ...؟ تشطحه في الماء الراكد لليومي والمألوف والمنمّط ..وهكذا تتخلق دوائر من التفكر وكيفية صوغ هذه التفكرات..ثمة اتصالية مساءلة: موضوع/ زمان مختومة بعلامة استفهام (أيّ فلسفة ..؟) والمحذوف هنا فعل الارادة وهكذا يكون التساؤل (أي فلسفة نريد للقرن الحادي والعشرين؟) وهكذا زمان التفلسف هو المعيار القاعدي المرتهن بصدق انتمائها (الفلسفة) لحقبة محددة حصريا بالقرن الحادي والعشرين واذا كان التحديد ديمقراطيا، فأن الواحدية الفلسفية تبشر بدوكماتزم يعلن عن توتاليتارية أخرى؟! لماذا لايكون شعار المؤتمر الفلسفي او عنوان الكتاب (أي فلسفات للقرن الحادي والعشرين) ان المؤتمر الذكوري عشرة رجال من الباحثين الاكاديميين، بذلوا جهودا فلسفية مخلصة تعلن عن مركزانيتهم الغربية،وتعلن عن وجهات نظر تشكل مصفوفة فلسفية منضّدة تنضيدا ارسطياً محضاً...

لمن ينتسب هذا العنوان (أيّ فلسفة للقرن الحادي والعشرين؟)

ألا ينتسب لسلطة مركزانية ؟! أليس (أسئلة العنوان هي دوما أسئلة السلطة والاحتياط والحق والحق المحفوظ والتراتب أو الهيمنة (21) حسب جاك ديريدا (11).

..ما نراه عاديا يراه الفيلسوف غامضا، ومن أجل توضيح الغامض،يستعمل الفيلسوف السؤال وهذا ما فعله الفيلسوف عمانوئيل كانط مع المألوف اليومي،الذي صيرته حيواتنا بداهة متقاعدة، ها هو يتساءل : ما هما إذاً المكان والزمان؟ هل هما من الكائنات الواقعية؟ أو أنهما محددات للأشياء وحسب؟ أو إنهما نسب ما بين الاشياء حتى لو لن تكون مدركة بالحدس؟ أو إنهما نسب لا صلة لها سوى بشكل الحدس وتاليا بالتأسيس الذاتي لفكرنا الذي من دونهما لا يمكن لهذه المحمولات ان تحمل على أي شيء؟.

هذه الاسئلة الكانطية الانطولوجية، بتفرعاتها المتماسكة، لكل ما له موجودية واقعية..هذه الاسئلة تشترط علينا تراتبية رباعية التنضيد وسيكون الامر بالطريقة هذه:

* راتوب الكائنات الواقعية
* راتوب التحديدات
* راتوب النسب الموضوعية
* راتوب النسب الذاتية..

ان الفيلسوف كانط هنا يقتبس هذه التقسيمات للواقع، من خلال فصله بين :التحديدات /الاضافات..

وحتى نقترب من كانط، علينا ان لا نهرع الى كتابه الاشهر،أعني (نقد العقل الخالص).. بل الى كتاب اقدم منه اعني (علم الحس)، وسأقترض من ورقة المفكر (فانسان ديكومب) المعنونة (الإضافة / ص211–) وهو يناقش مقولة الاضافة الارسطية..واقول بعد قراءتي المنتجة لهذه الورقة ..ان كانط ينطلق من أمر بحكم المسلمات، في حين المطلوب هنا إجراء تعديل اساس في القسمة التقليدية للمحمولات الى مقولات ضمن قسمة الكائن الواقعي..ان تصنيف كانط خاضع لتقابل كبير بين :الكيفية – النمط ،أقصد بالكيفية هنا :كيفية وجود الجوهر الكائن في الذات.

أما النمط فأعني : نمط وجود كل المحمولات الأخرى الكائنة في غيرها..والملاحظ ان كانط يضم كل الاغراض في مقولة واحدة ويعزل الاضافات في حيز آخر.. لكن علينا ان نعي جيدا ان إضافات كانط تميزها لا يتأتى من مقوليتها كأعراض،بل لأنها تشكل شيئاً آخر غير ذلك..وحتى نفهم مقولات كانط ،علينا ان ننتبذ بعيدا عن إجراءات العقل الكانطي حتى نتمكن من القول الآتي : الأعراض توجد في الاشياء، بينما الاضافات هي معطاة بين الاشياء.

اتصالية الإضافات / المحمول

أتواصل مع ورقة المفكر (فانسان ديكومب)(12) وفقا لإجراءاتي الاتصالية وستكون لي إضافاتي الشخصية،لإضافاته..وسيكون ذلك دون مساس بأجراءاته الرصينة.لاخلاف مع ديكومب ان منطق الإضافات ينطلق من معنى أكثر عمومية عن المحمول: سأخذ بالنسبة لي كقارئ منتج جملة عربية للتوضيح، ثم استخرج منها: الإضافة / المحمول

تولّه قيس في عشق ليلى..

اقوم بتقويس الاسمين في الجملة الثانية

توله (قيس) في عشق (ليلى)

في الجملة الثالثة نثبت المحمول فقط وهو كالآتي:

توله في عشق

هنا سنكون أمام محمول تعددي، فعل يتطلب مفاعيل، ولدينا محمول أثنيني، يحتاج الى موضوعيّ حمل..

هنا سأفترق عن المفكر (فانسان ديكومب)، افتراقي محدد بالاستعانة، فهو يستعين بالعالم (تشارلز ساندرز بيرز) لتوضيح الامر.. أما انا القارئ المنتج فأستعين بـ (رينيه جيرار) وتحديدا بكتابه (الكذبة الرومنسية والحقيقة الروائية)(١٣).

– الراغب
– المرغوب
– الدليل الى الرغبة

ويصنف (رينيه جيرار) الرغبة وفقا لأغراضها المشتركة

– رغبة التشارك ويتشقق منها التعاطف البشري

– رغبة التفرد التي ترفض التشارك ويتشقق منها التنافس ومن التنافس حين نكشطه نرى منظومة تحوي :

*الغيرة/ الحسد/ الكراهية/ العنف والرغبة تتأطر بنوعين من الوساطة: برانية/ جوانية

– البرانية: شخصيات تجسد مُثل وقيم

– الجوانية: الوسيط حقيقيا وموجودا عند مستوى الشخص الراغب نفسه وهو يتحول في هذه الحالة الى منافس والى عقبة تقف حائلا دون امتلاك الغرض المرغوب،فتزداد قيمة هذا الاخير مع احتدام المنافسة..

وما يطرحه كانط مفصلا وبتعال فلسفي مشروط ، سوف يبسط الفيلسوف (برتراند راسل) (1872–1970) في كتابه عن سيرته الذاتية الفكرية، من خلال الترابية الثلاثية الآتية :

الاشياء --- خصائص --- إضافات

ويعني بذلك ان الاشياء تنوجد اولا ثم تنماز بخصائصها وبعد ذلك تأتي الاضافات

نفور الفلاسفة

وهنا من يعترض قائلا: ليس الفلسفة وحدها من تسأل ان العلوم كلها لاتتوقف عن انتاج الاسئلة وسنقول له نحن معك ..ولكن لا يكفي ان تسأل فالعلوم اسئلتها برانية التوجه، أعني انها لا تسأل ذاتها، بل موضوعا خارجها وهذه هي ديناميكية سيرورتها، كأن العلوم الموضوعية لها ثقة نرجسية مطلقة بذاتانيتها.. وهي بهذه الطريقة تحصن وترصن حقلها الاشتغالي..أما الفلسفة فهي وحدها التي لاتكون دون جرثومة السؤال المتواصل..فهي تنتج السؤال ثم تسأل عن السؤال أيضا: ماهي القوة الدافعة للسؤال؟ كيف يتشقق السؤال؟ ولماذا هذا السؤال وفي هذه الحقبة؟ وماهي نتائج هذه السؤالات؟

وحده الغريب من يكتشف المختلف، وسيكون الاكتشاف مصحوبا بالدهشة..ولا تكتفي هذه بفتح العينين والشفتين ..إذ سرعان ما تصوغ من الانفتاح المزدوج سؤالا بالقوة حسب المنطق الارسطي.

والسؤال سيحّول المتساءل حفارا معرفيا يتقصى الأصول ويضفرها بالجذور.. ويفككها ويختلف مع تساؤلاته قبل اختلافه مع السؤال النقيض..دون الوصول الى نهايات سعيدة كما في الافلام الرومانسية، او إجابات قاطعة كما يفعل المفوه الاعلامي. وهكذا تكون الفلسفة قد أدت الامانة الوظيفية حسب حقلها الانتاجي والامانة كما يخبرنا ياسبرز* ان لا تخون الفلسفة نفسها، وحين نكشط كلمة خيانة سنجد تحتها: الحلول السحرية الناجعة والنهائية..

وتجذبني العودة الى التوقف عند (غاتاري) و(جيل دولوز)** فهما يريان ان الفلسفة ديمومة فاعلية انتاج المفهمة.. وقبلهما ألح هيغل على الضرورة النسقية للفلسفة....

الفيلسوف ينحاز للترفع لا للتبضع،هكذا ترى قراءتنا المنتجة وهي تطوف حول التاريخ النقدي للفكرة، وللتعين الفيلسوف هنا هو عمانوئيل كانط،الذي (كان على يقين

من أن تنظيم المجتمع المدني حول مجموعة مشتركة من الغايات هو أفضل أخلاقيا من تكوينه طبقا لمتطلبات السوق/222ص) (14)..وهنا نلاحظ ان (كانط) كان من الرافضين لإشتقاق اخلاقا سياسية من إقتصاد السوق..وفي نفس الوقت رأى بالثورة الفرنسية (هي البيت الاول الذي ينظم الاستخدام الكلي والعمومي للعقل، ولكن ما إن اقتنع بأن الحريات المدنية قد تعرضت للخطر حتى سحب نفسه). (224)..

ولا تختلف مناصرة كانط للثورة عن سواه أمثال هيغل/شيليغ/ غوته/ فختة/ بيتهوفن....وسيفترق الفيلسوفان في منظورهما للوجود سيكون هيغل في معزل عن أفق الفيلسوف كانط وحصريا ثنائيات كانط..حيث سيدون هيغل في رائعته الفلسفية العظمى (فنومينولوجيا الروح).. (كان كانط مخطئا..أن جوهر الأشياء يمكن ان يتجلى في العالم، والعقل غير موجود قبليا،فهو لايتحقق إلا في الممارسة بأعتباره مجموعا للتفاعلات الواقعية والحسية التي يتكون منهاالتاريخ البشري (15) والآن يحق لنا ان نتساءل،كما تساءل المجتمعون في مؤتمر دولي نظمه مركز جورج بومبيدو(أي فلسفة للقرن الحادي والعشرين؟)..حين نقرأ الاوراق المشاركة في المؤتمر الدولي نتساءل كيف اصبح ارسطو الفيلسوف الإنموذج دون سواه؟

هل إرث ارسطو الفلسفي هو هو؟ ألم يتعرض لمتغيرات (45/ اي فلسفة نريد للقرن الحادي والعشرين)..اين هي اذاً المتغيرات الفلسفية، في حياة تجاوزت بيئة ارسطو ملايين المرات؟ هل حقا لا جديد تحت شمس ارسطو، وهل كل الفلسفة التي تلت ارسطو ولحد هذه اللحظة الفلسفية لاتتعدى افق (التشكل الكاذب) حسب علماء التعدين، هل فشلت الفلسفة في خطف أنفاسها؟ وفي صوغ أشكال تعبيرها الخاصة والنقية من شوائب منطق ارسطو؟ هل فشلت في تطوير شعورها الخاص بذاتها تطويرا كاملا؟ هل كل منجز الفلسفة هو محض عودة الروح الأرسطية للفلسفة؟ الا يؤدي ذلك إلى تخثر الدم الفتي في عروق ميتة لكائن فلسفتي اكتملت دورتها منذ زمن ليس بالقصير؟ أليس في ذلك أمبريالية فلسفية، تلغي التشارك الفلسفي وتتشبث بالواحد الذي يمثل المركزانية الاوربية، ونلاحظ هنا ان هذه المركزانية تناست (ان التركيب الباطني لأية حضارة هو نفس التركيب الباطني لكل الحضارة/ ص13) (16) ولا توجد ظاهرة واحدة ذات قيمة عميقة في الصورة التاريخية لحضارة ما دون ان يوجد ما يقابلها تماما في غيرها من الحضارات ..هذه الإتصالية الحضارية يطلق عليها (اسوالد اشبنغلر) (ظاهرات متعاصرة) من هنا يرى هذا الفيلسوف المنعوت بالمتشائم والرجعي ثمة متقابلات حضارية يجب الاقرارا بها وهي كالآتي:

فيثاغورس ـــــــــــ ديكارت

الاسكندرية ـــــــــ بغداد العباسية

بغداد العباسية ---------- واشنطن

ألا يدخل توكيد هذه الواحدية الارسطية،على فاعلية تتأفق بأفق (أركيولوجيا التوهم)؟*

تايتل ثان:

ترى قراءتنا عبر إنتاجيتها ..ان الاوراق

النقاشية العشر،إشتغلت على تثبيت الواحد (أرسطو)عبر مبدأ (العلاقة والترابط)،وتأفقت بأفق النسيج والتصور الذي فرضته المركزانية الغربية بانغلاقها. وهكذا اعادت الاوراق نسق المتعدد الى واحدية الواحد الارسطي..؟! إذن أدت الفلسفة بكل أمانة وظيفتها في تحجيب التنافض وتسيّد الوحدة وتحدد الكائن كحضور علاماتي محض، وهكذا استعملت الاوراق التاريخ الفلسفي للفلسفة لحراسة فلسفة المركزانية الاوربية المحكومة بسرمدية الحضور الابدي والحقيقة الكونية المطلقة وتراتبيات هذه المركزانية تشكل الراتوب الاول بين ثقافات العالم ..

ورقة جيل غاستون غرانجي

عنوان الورقة (المكان) ..تحيلني الورقة الى كتابه (فكر الفضاء) المترجم الى العربية من قبل د.علي دعيبس ولي قراءة خاصة عن الكتاب تجعلني ارجئ قراءة هذه الورقة..

مكتبة البحث

قراءة مجاورة: في الملتقى الاخير للقصة العراقية الذي انعقد في (17-19/ كانون الثاني/2009) كان وفد اتحاد ادباء البصرة يتكون من ثلاثة اعضاء: ثريا الادب العراقي استاذنا محمود عبد الوهاب (طيب اللّه ثراه)، والاستاذ الناقد جميل الشبيبي ومقداد مسعود، وكانت ورقة الصديق الشبيبي عن مدن اليوتوبيا في الادب العراقي، وكانت ورقتي تعقيبا على ورقة الشبيبي ، لكنني اجترحت نوعية جديدة للقراءة اذا جاز القول، فلم تكن ورقتي تعقيبا بل (قراءة مجاورة) فالتعقيب اراه حركة عموديا ملتصقة بمن قدامها امام التجاور، فحركة افقية بينها وبين الجوار فاصلة حرية..وقد نوهت شخصيا بذلك قبل قراءة ورقتي..وبعد انتهاء الجلسة تناقشت مع بعض الاصدقاء والاخوة وقبل ليلة القراءة قرأت الورقة في حضرة استاذنا محمود عبد الوهاب ..ثم اتصلت تلفونيا بأستاذ جميل وأعطيتهُ ورقتي ليقرأها..واستحسن استاذنا محمود نوعية القراءة، كما ان صاحب الورقة النقاشية، احترم وجهة نظري في نوعية القراءة الجديدة...

الهوامش:

(1) مجموعة من المؤلفين/ أيّ فلسفة للقرن الحادي والعشرين؟/ترجمة أنطوان سيف/ مراجعة الحسين الزاوي/المنظمة العربية للترجمة/ بيروت/ط1/ايار/2011.

(2) يوجين فارغا/ رأسمالية القرن العشرين/ ترجمة ابو بكر يوسف /دار التقدم/ موسكو /ط2/.

(3) جاك ديريدا/في علم الكتابة / ترجمة:أنورمغيث/ منى طلبة/ المركز القومي للترجمة/ القاهرة/ ط2/2008.

(4) محمد مبارك/ مقاربات في العقل والثقافة/ دار الشؤون الثقافية/ط1/2004/ ص108.

(5) ميشال فوكو/ نظام الخطاب/ ترجمة محمد سبيلا/ دار التنوير/ بيروت/ 2006.

(6)هشام غصيب/ نقد العقل الجدلي/ دار التنوير/ بيروت/ط1/2011/ص45.

(7) فيليب مانغ/ نسق المتعدد أو جيل دولوز/ ترجمة عبد العزيز بن عرفة/ دار الحوار/ دار الكنوز الادبية/ بيروت/ ط1/ 1995.

(8) هادي العلوي/ كتاب التاو/ لاوتشو/ ترجمة ودراسة هادي العلوي/ دار الكنوز الادبية/ بيروت/ط1/.1995

(9) فيليب مانغ/ نسق المتعدد/ ترجمة عبد العزيز بن عرفة/ دار الحوار/ سوريا –اللاذقية /ط1/ 2003.

(10) محمود أمين العالم/ ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود/ دار الآداب/ بيروت/ ط1/أيلول/1972.

(11) جاك ديريدا/ عن الحق في الفلسفة/ ترجمة د.عزالدين الخطابي/ مراجعة د.جورج كتّورة/ المنظمة العربية للنشر/ بيروت/ط1/ تشرين الاول/2010.

(12) رينيه جيرار/ الكذبة الرومنسية والحقيقة الروائية/ ترجمة رضوان ظاظا/ مراجعة د.سعود المولى/المنظمة العربية للترجمة/ بيروت/ط1/ أيار/ 2008/فصل مثلث الرغبة/ص 13.

(13) جون أهرنبرغ/ المجتمع المدني- التاريخ النقدي للفكرة/ ترجمة د.علي حاكم صالح- د.حسن ناظم/ المنظمة العربية للترجمة/ بيروت/ط1/ شباط 2008 .

(14) هيغل/ فينومينولوجيا الروح/ ترجمة وتقديم / د. ناجي العونلي /المؤسسة العربية للترجمة/ بيروت/ط1/ 2006.

(15) ازوالد اشبنغلر/ ثلاثية تدهور الحضارة الغربية/ الجزء الاول/ ترجمة احمد الشيباني/ منشورات دار مكتبة الحياة/ بيروت/ ط1/ 1964/ ص 15.

*عنوانات ورد في البحث

*النبي المسلّح/ هو الجزء الاول من ثلاثية أنتجها المفكر الماركسي أسحق دويتشر عن (ليون تروتسكي): النبي المسلّح / النبي الاعزل/ النبي المنبوذ/ ترجمها الى العربية وقدم لها: كميل قيصر داغر/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ط1/ 1981

(جيل دولوز/ نيتشة والفلسفة/ ترجمة أسامة الحاج/مجد للنشر والتوزيع/ بيروت/ط1/2011

(جيل دولوز –فيلكس غثاري/ ماهي الفلسفة/ ترجمة وتقديم /مطاع صفدي/ وفريق مركز الانماء القومي/ مركز الانماء/ بيروت/ط1/1997.

(16) اركيولوجيا التوهم/ من كتب الفيلسوف جاك ديريدا، يشتغل فيه على مفهومات سيجموند فرويد

*بخصوص الفيلسوف ياسبرز ..ينظر في مقالتنا(الفلسفة كتوقيع) المنشورة في مواقع النت.

**(عصر الرأسمال) أقصد هنا الكتاب الذي يشكل الجزء الثاني من ثلاثية الفيلسوف الماركسي (أريك هوبزباوم): عصر الثورة/ عصرالرأسمال /عصر الامبراطورية.

خضراء الضفتين
الى الحلة الفيحاء

حسينة بنيان

استوقفك اللّه
بين الموج الهادئ
والليل العاصف
تروين حكايةً لن تنتهي
الاّ بشقّ الأنفس
خضراء الضفتين
النور ضيفكِ
فاستضيفي
وردّي عليَّ المحاورَ
كي يتلاشى الجرح
ويقرُّ السندبان ....عينا
استفيقي لرشدك البابلي
وعجّلي بنا....نحو الاثير
شهيدةَ الملمات
أروقةَ الملك اللامنسي
حين تروم العشتاريات
قصد الشاطئ
بين أديمك..وبين الشفع الصامت
يسري العشق
وينامُ الفجر حياءً
خلف جبينك
حين ترفرفُ ثّواً
أغصانُ النبق السارح
حول حجارتك الشمطاء
ليعورَ الخُطّاب المسحورين
حديثاً..
بضفاف العرس الأزلي
المحفوف بشوك بهائك
أيرٍ..عروستنا الفراتيّة
متى تُسقين بشهد الجنة
لتكوني أعذبَ منّا؟
حِلةَ المؤمن..وحُلّتهُ الصدقيّة
آمن بكِ الربُّ
فتاقت إليك السنون .....ترا

الرايات الخفّاقة .. ليست راياتنا

كاظم اللاّيذ

الشاعر كاظم اللاّيذ من مواليد البصرة 1946، تخرج في كلية الآداب / قسم اللغة العربية عام 1970، عمل في التعليم في الجزائر وفي العراق سنوات مديدة، عضو اتحاد أدباء البصرة، صدر له: "الوصول الى غرناطة" ٢٠٠٦؛ "النزول الى حضرة الماء" 2009، "أطراس حارس الزمن" 2011.

لا شكّ
أن الراياتِ التي تخفقُ في الأعالي
هي ليست راياتنا .
وأن الجباه التي تسع بالمجد والعنفوان
هي ليست جباهنا .
إن راياتنا ، أبداً
هي الراياتُ المدحورة .
وجباهنا ، أبداً
هي الجباه المنكّسة

والغَلَبُ لا تليق بنا ...
ما يليق بنا هو الهزيمة والاندحار .

*****

لنا من التاريخ
ذبح كربلاء
يُحزُّ منه الرأس ويُرفع على الرمح
ثم يُساق عبر البراري
ليُلقى هناك
بين قدمي ابنِ (آكلة الأكباد) .

*****

لنا من الجغرافيا :

المحمّرة و الأهواز

و الإسكندرونة

و سبتة و مليلة

وعارُنا الكبير فلسطين

*****

لنا عبدالله بن الزبير

يرجمُ الحجّاج بالمنجنيق

ثم يصلبه على جذع النخلة

أمام باب الكعبة ..

ويتركه هناك

حتى يعشش في جمجمة الطير .

لنا محنةُ (أحمد بن حنبل)

يُجلد بالسياط

فيغشى عليه من الألم

حتى يُظن أنه قد مات ...

لنا عبدالكريم قاسم

يقذف العتاةُ جثتَه في النهر

ليحمدوا قبسَه إلى الأبد ..

لنا الذين رُموا كاللحم في قصر النهاية

وتيبسوا في نقرة السلمان

مثل لِحاء الشجر ..

لنا الشبّان اليافعون

الذين أمسك بهم (علي حسن المجيد)

وأسندهم إلى حائط المدرسة

ثم حصدهم بالرشاشات .

لنا المجندلون في أزقة حلبجة

كأنهم شبعوا ، فناموا ...

.....

الرايات الخفّاقة لا تليق بنا

ما يليقُ بنا الخسران

*****

الفتوحات ليست لنا

والغنائم والرقيق

ليس لنا

والخراج ليس لجيوبنا

وبساتين قريش ، لقريش
وضِياع (الباب العالي)
للباشوات والانكشاريين
وقصور صدام السبعون
التي بناها أيام الحصار والجوع ،
لإغاظتنا
والسخريةِ من عذابنا .....
.....
منا المنكوبون
ومنا الأرامل
ومنا الدروع البشريةُ
التي احترقت بلهيب السوائر .
ومنا أبناء المعدومين
ومنا مصلومو الآذان

ومنا من يبكّر مع انبلاج الفجر
الى (المسطر)
ليحظى بما يقيم الأوَد ...
ولنا يستورد التجّار
كراسي المُعاقين
والعكّازات
والأطراف الاصطناعيةِ ...
*****
الحزنُ ميراثنا العضوض
ويافطات النعي السود
التي تراها مسمّرةً على الجدران
هي نصيبنا
وهي راياتنا
نحن الذين لم تخفق لنا رايةٌ

ترجمة جديدة لقصيدة لوركا
" الزوجة الخائنة "

للشاعر الإسباني الشهير فيديريكو غارسيا لوركا
ترجمة : سنان أحمد حقّي . عن اللغة الأنكليزيّة .

هكذا أخذتها إلى النهر
كنت أظنها عذراء
في حين أنها كانت متزوجة
حدث ذلك في ليلة القديس جيمس
كل شيء بدا وكأنني ممتنٌّ
انطفأت الفوانيس
وارتفع صوت الصراصير
في أركان الشوارع القصيّة
لمست نهديها النائمين

فتبدّيا لي فجأةً
كأشواك السنبلة
نساء تنورتها
بدا في أزقتي

كقطعةٍ من الحرير .
تمزقها عشر سكاكين
بلا ضوءٍ فضّيٍّ على أوراق الشجر
الأشجار نمت وكبرت
وأفقٌ من كلابٍ
نابحةٍ بعيدا عن النهر
تمضي عبر العلّيق
والقصب والزعرور
تحت عَقَد شعرها
عملت حفرةً في الأرض
خلعتُ ربطتي
هي أيضا خلعت ثوبها
أنا ، نزعت حزامي ومسدّسي
هي ، فكّت أزرار فتحة صدرها الأربعة

لا العنبر ولا الصدف
لم مثل هذه البشرة
ولا الزجاج والفضّة
يُوضبمثل هذا الألق
انزلق فخذاها بعيدا عنّي
كسمكةٍ مذعورة
نصفا ممتلئا بالنار
نصفا ممتلئا بالثلج
تلك الليلة عدوتُ
في أفضل الطرق
راكبا فرسا من محار
بلا ركبان ملجمة
كرجل لا أريد أن أعيد
الأشياء التي قالتها لي
نور الفهم

جعلني ألكز رزانةً
معفّرةً كانت بالرمل والقبل
أخذتها بعيدا عن النهر
سيوف الزنابق
تقاتلت في الهواء

تصرفتُ كما يليق بي
كفجريٍّ أصيل
أهديتها سلّة خياطة كبيرة
من الستان ، بلون القش
لكنني لم أقع في الحبّ
حيث مع أنها كانت متزوجة
قالت لي أنها عذراء
عندما أخذتها إلى النهر

حياة !

يوسف أبو الفوز

القاص والروائي والاعلامي يوسف أبو الفوز، من مواليد السماوة 1956. خلال مسيرته الادبية اصدر العديد من الكتب القصصية والروائية والادبية، ومتواصل في نشاطه الاعلامي والادبي، وفي عام 2000 ، في هلسنكي، صدرت مجموعته القصصية "طائر الدهشة"، مترجمة الى اللغة الفنلندية من قبل الباحث والاستاذ في جامعة هلسنكي الدكتور ماركو يونتونين ، كما أنه كتب واخرج للتلفزيون الفنلندي افلاما وثائقية عن العراق ، اختير فيلمه " عند بقايا الذاكرة " 2006 لتمثيل فنلندا في مهرجان سينمائي في سويسراورشحت روايته " عند سماء القطب " 2010 لجائزة البوكر العربية.

لا يتذكر مَن اقترح اسمه ، لكنه لم يعارض. وجد نفسه ضمن الوفد الذي تم اختياره والتصويت على أعضائه وتوجه باسم المؤتمر لزيارة المناضل الكبير، الذي بلغهم انه متوعك الصحة وتعذر عليه الحضور كضيف شرف، فقرر المؤتمر، بغالبية الأصوات، زيارته إلى بيته بوفد كثير العدد محملين بباقات الورد وتحايا الوفاء.

كانت أربيل تلتهب تحت درجات الحرارة التي بلغت الخمسين درجة، في موجة حر تعم عموم البلاد.الاقاويل تقول انها تجاوزت الخمسين بعدة درجات، الشوارع فارغة، السيارات في بعض الاماكن تطبع اثارها على الاسفلت، المآذن تتبارى في إطلاق الادعية بمناسبةحلول شهر رمضان الذي يقول الجميع انه سيكون ثقيلا هذا العام. اصحابه يتأففون، يطلقون شتائم في كل الاتجاهات ويتصايحون :

ـ اللّه يكون في عون اهل البصرة والناصرية ...

ـ والسماوة ؟!

ـ والسماوة يا بعد روحي... أعرف لا كهرباء ولا خدمات عندكم مثلنا !

ـ المهم ان لدينا مجلس نواب مكيّفا!

ـ أكتب على العراقيين ان يعيشوا في الجحيم قبل حلول يوم القيامة؟

مسؤول الوفد لا يمل من التكرار، وكأنه يرسل برقيات مثلما كان أيام الجبل :

ـ تذكروا ، لن نمكث هناك سوى القليل من الوقت. لن نتحدث كثيرا . هناك من سيتحدث باسمنا. ننصرف بسرعة. لن نقبل الدعوة للبقاء اكثر. علينا مراعاة صحته، مهمتنا ابلاغه بأننا لم ننسه واننا نقدر تضحياته ونضاله و ...

ـ لا تنسوا باقات الورد !

جلس في احدى السيارات صامتا عند النافذة الى جانب أحد اصحابه ، الذي بدا متبرما لكونهم نسوا شراء زجاجات الماء :

ـ هل حكم علينا بالعذاب في كل وقت!

عاد مسؤول الوفد يكرر من جديد وبدت تكتسي صوته بحة من كثرة الصراخ :

ـ يا اصحابي ارجوكم. فكرنا بكل شيء، فقط اعطونا الفرصة. سنتوقف عند اقرب "سوبر ماركت" ونشتري لكم زجاجات الماء البارد. فقط اصبروا علينا!

ـ لولا صبرنا لما تحملناكل هذا العمر نتائج حسن تفكير وتدبير القيادات!

تحركت ثلاث سيارات ازدحمت بركابها، مبتعدة عن الفندق تلاحقهم نظرات الانزعاج من البعض ممن لم يحالفهم الحظليكونوا ضمن قوام الوفد. أراد احدهم ان يغني، فأطلق اغنية سرعان ما ماتت حين لم يجد تجاوبا من الاخرين. فيالسيارة التي تسبقهم لاحظ الاصابع ترتفع وتتشابك فعرف انهم يغنون ويدبكون على طريقتهم. كانت السيارات تلتهم ارضية الشوارع العريضة النظيفة تحت شمس آب، تترك اطراف المدينة ، حيث مكان الفندق الذي اقيم فيه المؤتمر وتقترب من الاحياء السكنية . مروابيوت فارهة بأسيجة مرتفعة واشجار باسقة في حدائق عامرة ، فقال صاحبه القريب اليه :

ـ واضح انها بيوت مسؤولين مفسدين؟

فصاح احدهم من مقدمة السيارة:

ـ وكيف عرفت أنهم مفسدون؟

فضحك صاحبه وقال:

ـ من الخادمة التايوانية الواقفة عند الباب!

وانطلقت ضحكات خافتة وتعليقات من مقدمة السيارة لم يسمعها جيدا .توقفت السيارات عند "سوبر ماركت" بأبواب أوتوماتيكية عريضة عالية ، تقف عندها افيال واحصنة خشبية ، نظيفة لامعة، مزينة بأشرطة ملونة كأنها في سيرك. وجدها المدخنون فرصة فتقافزوا من السيارات وراحوا يتبادلون السجائر والولاعات ويتقافزون بمرح، مستعيدين شيئا من ايام فتوتهم الغاربة، ايام كان

صخر الجبل يئن تحت خطوات اقدامهم الواثقة، فوجدها فرصة ليقلب الصحيفة التي تركها صاحبه في مكانه وراح يتابع تطورات موقف غلق ايران لنهر الوند ومخاطر حلول كارثة بيئية بسبب ذلك .كان يتمنى لو ان المؤتمر استطاع ارسال وفد تضامني للوقوف ولو ساعات الى جانب المتظاهرين، ممثلي منظمات المجتمع المدني، الذين قطعوا الطريق المؤدي الى معبر المنذرية الحدودي في خانقين. بلاد مهددة بالجفاف. حكومة محاصصة طائفية واثنية تهادن الجيران وشعب بحت اصواته من الصراخ والشكوى. الصبر والجحيم والعذاب . جفاف ومعاناة وعطش. فجأة من لا مكان خرجت. مثل نبع جبلي ينبثق من بين الصخور. لمحها تتحرك عند باب "السوبر ماركت".لم يكن متأكدا. أحقا هي؟ بدأ بعض اصحابه بالصعود وثمة من راح يوزع قناني الماء المثلجة. أراد النزول لم يستطع. زاحمه الصاعدون. كان شعرها طويلا مثلما كانت، مثل جناح سنونو حزين يداعب سمرة وجهها الاليف .تخفي عينيها بنظارات شمسية عريضة على غير عادتها. من جاء بها الى هنا؟ من جاء بها من البصرة الى اربيل؟ يقول أصحابه :

ـ الاوضاع الامنية المتردية جنوب ووسط العراق جلبت الكثير من العوائل الى مدن كردستان !

فجاة ركضت طفلة. خمسة او اربعة اعوام . عبر نافذة السائق المفتوحة، سمعها تنادي خلفها. صوتها الخافت وصله كأنه السحر:

ـ حياة !

انقبض قلبه. كف حجرية عصرته. صوتها. هو ذاته. لم يتبدل. خافت وواضح كأنه خفقة جناح. كموجة في نهير بصريّ يتطامن عند سعفات نخلة استظلا بها في يوم ما . كان بالكاد يسمعها وهما يتحادثان . كان يبذل جهدا ليجعلها تقول كلمات غزل مابصوت مسموع :

ـ قولي ؟

ـ ماذا ؟

ـ قولي احبك ؟

في بدء معرفته لها كان يظنها لا تسمع نفسها حين تتكلم . ها هي التي يوما قالت له وعيناها تلتمعان بالصدق والدمع :

ـ انت وحدك من يستطيع ان يعرف مسالك قلبي !

لو تلتفت اليه . لو تنظر باتجاهه . اصحابه يواصلون الصعود وضجيج الضحكات يعلو كل شيء. يحاول فتح زجاج النافذة القريبة ، لا يعرف كيف ؟ كيف يستطيع لفت انتباهها ؟ من جاء بك ايتها الغالية بعد كل هذه السنين ؟ حين القوا القبض عليه ، قال لأمه التي زارته الى السجن :

ـ اخبريها ، بأنها امرأة حرة . لا اعرف لي مستقبلا مع سلطة غاشمة ، ولا أريد تقييد حياتها مع مصيري المجهول !

بعد ان غادر ابو غريب إثر العفو الرئاسي المفاجئ ، تسلل الى كردستان

ومن هناك أخذه أحد معارفه من ايام الدراسية الجامعية الى قريب له الذي قاده ولعدة ليال ، عبر وديان ووهادليجد نفسه وسط المقاتلين في الجبل ، ليكون واحدا منهم لسنوات طويلة . حين قابل اخته بعد سقوط النظام الديكتاتوري لم يتجرأ عن السؤال كثيرا عن المرأة التي لازمه طيفها كل سنوات الجبل يحلم بلقائها في يوم ما . فجأة في اربيل يجدها امامهومعها بنت بعمر الورد وأيضا اسمها :

" حياة" ؟!

ـ لو اتاحت الحياة لنا الفرصة لان نعيش معا ، سأنجب لك ابنة أسميها ... حياة !

وها هي "حياة " تقفز أمامه . ايمكن ذلك ؟ الم يعترض زوجها على هذا الاسم ؟ ألم يخطر في باله سبب اختيارها لهذا الاسم بالذات ؟ أتكون ...

رأى رجلا مديد القامة ، وسيما ، بنظارات طبية وبدلة وربطة عنق رغم الحر القاتل ، يغادر السوبر ماركت ويقترب منها . كان يدفع أمامه عربة محملة باكياس وزجاجات ماء وعلب اغذية مغلفة . قال شيئا فضحكت له ، وألتفت . أرتجف قلبه . شعر وكأنها لمحته . اذ راحت تحدق طويلا باتجاهه . رفع كتفيه ليستقيم ظهره . كانت تعيب عليه أن يسير محني الظهر :

ـ صاحباتي يقلن لي انك تسير كأنك أضعت شيئا وتبحث عنه !

طول عمره وهو يبحث عن اشياء اضاعها وفقدها . لم تتح له الحياة الحصول على ما كان يحلم به . ليس وحده . كل ابناء جيله الخائب . لم يستطع إكمال دراسته الجامعية . البعثيون وضعوه بين خيارين. الموت أو الحياة .ان يهرب ويترك الجامعة وهو في سنته الاخيرة وبين ان يمسخ كل ما آمن به من قيم وأفكار ، فترك الجامعة لهم وتشرد وتخفى سنة كاملة في وطنه وضباع البعث تطارده من شارع الى شارع حتى القوا القبض عليه يوما إثر وشاية ورموه في زنزانة رطبة من أبي غريب .فقد حبيبته ، بسبب هذا البعد الذي راح يتوالد سنة بعد اخرى ، يدفع به من بلد غريب الى آخر ، من لغة الى اخرى ، حتى وجد نفسه يقيم عند حافات الارض . حين عاد الى العراق ، عرف ان لها حياتها الجديدة ، فلم يشأ ان يخدش لها ايامها بماض صار بعيدا . فما ادراه بطباع زوجها ؟ ربما يكون رجلا غيورا يحاسبها على ماضيها ، فلماذا يمنحه الفرصة لانفجار غضبه وغيرته ؟ ألا يهمه ان تكون سعيدة ؟ اذاً فليروض قلبه وحنينه وليجعل الزمن يشفيه من ماضيه البعيد . لم يكرر زياراته لبيت خالته حتى لا يسأله او يذكره أحد بابنة جيرانهم التي أحبها يوما وعاهدها على الزواج . فقد العديد من اصحابه واصدقائه ضحايا حروب مجنونة لنظام شوفيني أهوج اراد ان يبسط سيطرته على المنطقة ويبني إمبراطورية قومية فانتهى بقائد النظام وفارسه في حفرة جرجره منها

جنود الاحتلال الامريكان مثل جرذ أجرب . حين عاد وجد نفسه يسير في شوارع لا تعرفه ولا يعرفها ، في وطن طارد لابنائه ، اضاع منه طفولته وصباه . بعد احداث الانفال في كردستان ، وقبل سقوط الطاغية ، تشرد وتجول طويلا في بلدان المنفى ، وحين عاد بعد سقوط الصنم الى البصرةلزيارة ما تبقى من عائلته ، وجد كل شيء مختلفا . اقرب الناس اليه يتحدثون بلغة لا يفهمها . ابن خاله ، صديق طفولته ، راح لساعات يحكي له عن عذاب النار والحياة الدنيا الزائلة . بنت خالته بدت له بعباءتها وحجابها كخيال المآته ، وهي التي كانت تحرجه بتنانيرها القصيرة وشعرها الذي تحب ان يلاعبه الريح . أهذا وطن أم جامع ؟ اين حلم الناس بالحريات الشخصية، وهو يرى شيوخ وملالي مثل الفطر يتكاثرون في شاشات التلفزيون يكبرون ويبسملون ويحوقلون وهم يتحدثون عن فسق النساء السافرات !

ـ حياة !

صاح الرجل المتأنق وهو ينظر باتجاه سيارتهم . رأى احد اصحابه يمازح الطفلة ويريها شيئا على غلاف كتاب يحمله . فهم سر نظراتها باتجاهه . كانت الطفلة حياة هناك الى جانب السيارة تحجبها عنه اكتاف اصحابه الذين يتزاحمون ويتسابقون الى سياراتهم .

مد مسؤول الوفد رأسه في سيارتهم وصرخ بصوت مبحوح :

ـ هل الجميع هنا ؟ لقد تأخرنا !

ـ طول عمرنا ونحن متأخرين !

ـ هذا نقد سياسي أو فلسفي ؟

وانطلقت ضحكات مرحة . صاح احد اصحابه بلوعة :

ـ اغلقوا النوافذ رجاء . الحر لا يطاق ، عزيزي ... سائقنا الورد رجاء شغل التبريد !

صاح الرجل مديد القامة ، ذو النظارات الطبية والبدلة وربطة العنق بصوت أجش:

ـ حبيبتي "التفات" أرجوك ، هاتي ابنتك ودعينا نغادر !

التفت اليها . كانت تبتسم وهي تلوح بيدها لابنتها . لم يكن اسم حبيبته التفات.لها اسم اخر !

كتبت لأول مرة في اربيل
4 آب 2011

قصة قصيرة

الغبار يسرج بغاله

محمد سعدون السباهي

غادرتُ البيت ودخل الغبار ورائي، الرجل المتخم بالإيمان، كالعادة يتسلى صباح كل يوم بتشذيب شجيرات الآس في حديقته الواسعة، وكنس الممرات ورشها، وكذلك الرواق المؤدي الى المصلى ثم تفقد قن دجاجه وأبراج حمامه، صلعته المضحكة الصغيرة، تبدو الوحيدة مشعّة في ذلك الصباح العابس، اذ السماء بلون القيء فالشمس ابتلعها الغبار او هي متخمة جدا بالغبار، الهواء، لا يوجد هواء في هذه البطائح المنكوبة.

في الباص القذر اسمعهم يتهامسونكما هم دائما: نعم لقد بزغ فجر جديد مع الكثير من الغبار.

في أكمة مهملة طالعتني شجرة منتصبة، لكن لا يمكن معرفة نوعها لكثرة ما تراكم عليها من غبار.

العجوز بائعة الباقلاء لا تكف تقصع بمقشتها الصفراء الذباب، غير ان الذباب يتكاثر على نحو محيّر، تتأوه وحيدة وكأنها تتذكر ساعة افتضاض بكارتها المباركة.

غادرت الحافلة، صعدت مجموعة جرذان واحتلت المقاعد الفارغة.

أراهم يضعون الكمامات على وجوههم المصدومة فأضحك اضحك وأنا اسمع المذيع المرعوب وقد تعثرت الكلمات على حنجرته، يتأتئ: المستشفيات في غيبوبة، غرف الإنعاش مختنقة بالغبار .

على الرصيف تلوح دجاجة بضة سمينة تنتظر الباص على ما يبدو، ثمة ديك مريّش يستنشق في زهو الغبار، يقوفئ ويتلكأ حولها، ولأن سيارات النقل العام في كل العالم دائما تخطئ في مواعيدها، وحتى تمضي البضة السمينة الوقت من دون ملل، اقتربت من الديك وأخذت صراحة تفلي صدره، اقتربا من بعضهما أكثر تضاحكا، العالم لا

يسعهما ! ضربها بلطف بطرف جناحه، استجابت للنداء الذي أورق بستانها في ما يشبه السحر، واندفعا في زقاق قريب.

ثمة عسكري يراقب المشهد ويغلي، يغلي وكأن الدجاجة امه او شقيقته، يا الهي! انه يكاد ينفجر في اية لحظة.

المقهى تسعل، جمهرة الثعالب الخنيثة تضحك وتدخن وتلعب النرد.

هرّ هرم يتوكأ على عصا، يلحس دموعه الكاذبة ويدفع راحة يده في وجوه تستنشق بدورها الغبار مزهوة وتعطس، فجأة برزت بقوة وعلى نحو غير متوقع جدتي وصرة نشوقها الصغيرة المغموسة بكسرة من فخار مملوءة بنقيع طوز التبغ، جدتي تعطس وتمخط منكبة تضفر بمخرزها المدبب طبق من خوص ملوّن، بعد كل خمس أو سبع غرزات، تتوقف لترتشف بطرف انفها الوردي بعضا من نشوقها الحريف، تعطس وتمخط، رأسي يرتج من جراء حركة فخذها الضامرة، النعاس يجافيني، لقد قطعوا غلفتي قبل ساعات، أمي تخبز وقد تعلقت ذرات الطحين على أهدابها، وانعقدت حبات العرق على ناصيتها السمراء العريضة، ابي يكافح بدوره ليضع حبل ليف النخيل الذي انتهى توا من برمه حول عنق البقرة المهتاجة، وحدها شقيقتي تبدو في المشهد القروي المسائي الحزين تمسد رقبة البقرة الذهبية وتضحك.

رائحة النشوق قوّية، اعطس ويسيل مخاطي، المشهد قنديل يتوهج على بوابة ذاكرة الطفولة الخضراء، ولأنه من الممكن ان نبكي بصمت متذرعين بعوالم الغبار وما الى ذلك، تجمعت دمعة في عيني، دمعة كبيرة تجمعت في عينيّ.

الأعراب المخادعون الذين عسكروا في البلدة يتنقلون على صهوات جيادهم فيثيرون المزيد من المشاكل وزوابع الغبار، ولذا فالحوانيت تغلق ابوابها حالما يحل المساء .

وسط هذا الضجيج، اقصد ضجة الدهماء كان الليل يطول والنهار يقصر، احيا كأي مواطن اعزل الا من حنينه، أعيش مثل جندب، انهض وأنام واحتسي خلسة خمرتي القوّية، أحيانا ابكي أو اغني، عموما المسرات نزيرة وعابرة .

أينما سرت أعثر على مخلوق مريض، يسعل ويبصق غبارا، ويحك رأسه من دون توقف.

عجوز يتسقط مكان قدميه ويهذي: لا فائدة، الغبار ! المزيد من الغبار يا رب.

أولئك وجوه الخزف يحبون على ركبهم، الخزف المعجون من غبار

نيسان، نيسان الشؤم الابدي، ولكن هذا لا يمنعهم من ان يتلمسوا طريقهم في صعوبة والتوقف ليتساءلوا عن الأسعار، ويتناقلون الأخبار.

وفيما انا يائس حتى من مجرد العودة بسلام الى البيت، جاء من يعرض علي فكرة التسكع في حدائق الغبار، على حد زعمه، اضحك وابصق غبارا:

– نتسكع ؟ أتمزح يا رجل !

– لم لا، وقد أزفت الساعة على ما يبدو ؟

قال ضاحكا، وفرك يديه في سرور فتطاير منهما الغبار.

عموما، أفلح في مسعاه، فاقتادني الى ما يشبه التابوت، لنقل قاعة كبيرة على هيئة تابوت من حجر، كانت تستخدم في ما مضى مسرحا للألعاب البهلوانية، جوف القاعة مشبعا برائحة الموت، داخنا مغبرا، ولذا يستحيل ان تتبين وجوه الحاضرين الذين انتظموا في صفوف طويلة، الصف الاول مخصص للكرادلة، والذي يليه لحملة الهراوات والسيوف، وقبل ذلك كانت قد اوقفتنا ثلة من عساكر المليشيات يقودهم خنّيص التوى محياه المنغولي فبدا كمن يضحك ضحكة الأبالسة، فتشوا في صمت مصطنع واستخفاف خفي مؤخرتينا وما الى ذلك، احتفظوا بساعتي وقلمي ونطاقي وهاتفي النقال، وكذلك فعلوا بصاحبي.

صفعتني تراتيل وهمهمات حرّى ، ثم نواح وبخور ولون اسود، حينها فقط علمت ان الامر كالمعتاد : تأبين يتكرر كل عام احياءً لذكرى شخص يوصف بالاستثنائي كان قد مضى على مماته الف عام ونيف.

فجأة رنّ في آذاننا رنين رهيب: بكاء لا معنى له، وتوا تجاوبت معه الصفوف المحتشدة في القاعة، وفي صعوبة بالغة تبينت مصدر البكاء الأجش، كان تمثالا من غبار، يتربع ساهما على منصة انيقة مضاءة بالشموع، تخبو بينها وتتلامظ حزمة من عيدان البخور .

التمثال يشمل الجميع بنظرة مترفعة ساخطة، وينوح في آن وذراعاه القصيرتان مفتوحتان على وسعهما، يجلد بهما صدره، ومن فمه تتطاير زنابق الغبار .

استشعرت سرورا لا تخطئه العين تتشح به الصفوف المتراصة في السرادق، انه سرور الاستذكارات الثأرية، والارتدادات النفسية المجهضة الى الماضي البعيد الدامي، حتى انني احسست بتناثر الدماء الساخنة على وجهي وملأت أذنيّ حمحمة الخيول المغيرة وصليل السيوف الثقيلة الباشطة وهي تفلق الهامات.

كان الغبار لا يني يهمي فتلعقه الحشود السكرى بالنواح والبخور والدماء، آآآه! الوثنية تكرر ذاتها، النزوع البدائي الاخرق الى الخلود، الرعب الدفين من الافعى، الخوف الملثم بالطقوس، الهروب اللامجدي المبطن من حقيقة مدوّية اسمها : الموت !

صاحبي يهذي : هذه الجموع طالما اثارت مخاوفي !. ابتسم وانا ارتعد بدوري.

كانت فراشة روحي تبحث من دون جدوى عن منقذ لها من كرنفال القيامة هذا.

انسحبت، خلسة، رحت امشي متراجعا ببطء، اتوقف ووجهي باتجاه شلة الخنّيص المتنمرين الى ان تلمست المنعطف.

حين ابتعدت بما يكفي، اتكأت على بقايا ما كان يعرف بتمثال الشهيد وقد تحول الى مكب للنفايات .

ارتطمت بومة بعمود الكهرباء، ومرّ غراب في عجالة، نعق وسقط في لجة النهر، وفيما يشبه الحلم ابتسمت امرأة في وجهي، نعم ابتسمت صراحة امرأة خضراء في وجهي، اذن الدنيا لم تخل بعد من اناس يبتسمون حتى وهم في اللجة، حين تجاوزتها سمعتها تهمس : كلهم اغبياء ! قالتها في حنق وهي تتحسس فرجها الحزين.

اسرعت الخطى: هذا الذي استغل طيبتي سأبصق في وجهه حالما اراه، ثم استدركت : حسنا، كم وجهاً تود لو بصقت عليه هذا اليوم ؟

اسمعهم يثرثرون: الطيور لا تجرؤ على مغادرة اعشاشها، وان الديكة تصيح في غير مواقيتها، الثعالب وبنات آوى نصبت خيامها عند ضفاف الانهار، تسبح وترقص، تتضاجع وتتشاجر.

وفيما تتثاءب الريح في خمول، وتكون اشرعة الغبار في ازدياد وان المدينة تترنح مثل سفينة رفعت مرساتها، ونشرت قلوعها وقت هبوب العاصفة، ثمة علامة مبهمة تتأرجح عند سمت الافق، انها من دون شك تلعب لعبة خطرة من وراء الجميع.

المعروف ان اقوام هذه المدينة غير المتجانسين لم يتفقوا يوما على امر ما، صغيرا كان ام كبيرا مثل اتفاقهم هذه المرة حول قضية مفادها : في الليلة التي اعقبت كسوف القمر رأى الناس عند الفجر طائرا غريب الشكل شديد السواد، يقف على بناية شرطة المدينة، صوّت بما يشبه النحيب، وصوّت حتى بانت خيوط الشمس الاولى، حينها اخذت الكلاب تنبح وتعوي من دون توقف، وشيئا فشيئا بدأت طلائع الغبار

تتقدم.

ويوماً إثر يوم عادت الى الظهور من جديد على نحو لافت، بعد ان كانت الناس قد نسيتها، عادت ظواهر تعليق الأحجية والتعاويذ حول الأعناق، ورفع الرايات الحمراء والصفراء والسوداء فوق أسطح المنازل، وكذلك دق حدوة الحصان وتثبيت قرون الوعول والثيران على واجهات الدور والدكاكين، وحرق حبة الحرمل المباركة عند مغيب الشمس، والاكثار من زيارة المقابر وكل ما من شأنه ان يصرف الارواح الشريرة التي تقف وراء ظاهرة زوابع الغبار.

حاكم المدينة الجديد الورع، اصدر فرمانا له قوّة القضاء والقدر، الزم بموجبه الفتيات ان يخبئن (ضفائرهن الشيطانية !) داخل اكياس التقوى التي اعدت خصيصا لهذا الغرض، مثلما الزم الجندرمة التي تجوب الشوارع المظلمة، رافعة فوانيس خافتة الضوء وايديها على قلوبها، بحثا عن اشباح شريرة، اطلقت عليها العامة تسميات طريفة مثل : العلاسة، والقناصة، والصكاكة، يشاع انها لا تني تظهر هنا وهناك مثيرة الكثير من المشاكل.

عدت الى المقهى، الثعالب في ازدياد، نعم اللغط والغبار والثعالب في ازدياد..

مذيع التلفاز ذو السحنة الغرابية، ينسب ظاهرة الغبار الى غضب سماوي، ويتنبأ بالمزيد منه في الايام المقبلة، ثم ما لبث ان اقتحم المقهى تيس ارخى لحيته الشعثاء على صدره، وتوا قفزت مثل جندب عبارة : (كلما اطال المرء ذقنه دلل على صغر عقله ..)، التيس الذي غطى الغبار رأسه راوح بقدميه وبصق في زيقه واستغفر وتعوّذ ثم انشغل بعض الوقت ينفض الغبار عن حاجبيه ويبتسم، بعدها وضع ساقا على ساق واسترخى في مقعده يحتسي شايه، يبصق على عقيق محابسه وينظفها بأطراف لحيته ثم انصرف يُسقط حبات مسبحته من دون أن تفارق شفتيه الابتسامة، وقد بدا مثل من لا ينقص اكتمال سعادته، سوى أن يغني !

بغداد/ تموز
2009

مطبوعات وصلتنا :

● عبد الجبار وهبي (أبو سعيد) – مختارات وشهادات – تحرير :ابراهيم الحريري (بغداد – دار الرواد المزدهرة – 2012).

● زهير كاظم عبود – التناص بين الديانة الايزيدية والزرادشتية (بغداد – منشورات ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الاخرى – 2012).

● سعدي رشيد – رواية "مطر وطين" (بغداد – منشورات دار المرتضى – 2012).